

التفسير الوسيط
للقرآن الكريم

تفسير سورة التوبة

لفضيلة
الدكتور محمد طنطاوي
الأستاذ بجامعة القاهرة

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

١٩٨٥ — ١٤٠٥

(الجزء العاشر)

(الطبعة الثانية)



٧ من الباب الاخير الشهيد القسطنطين

القاهرة ٨٠٨٠٥٣٦

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين .

وبعد : فهذا تفسير تحليلي لسورة التوبة ، توخيت فيه أن أبرز ما اشتملت عليه العمورة الكريمة من توجيهات سامية ، وآداب عالية ، وهدايات شاملة ، وحكم جليلة ، و تراكيب بليغة

والله نسأل أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه ، ونافعاً لعباده ، وشفيعاً لنا عنده - سبحانه - يوم نلقاه ، إنه أكرم مسئول وأعظم مأمول .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؟

المؤلف

تحريراً ١٩ من شوال سنة ١٣٩٥ هـ

محمد سيد طنطاوى

الموافق ٢٤ من أكتوبر سنة ١٩٧٥ م

تميز بين يدى تفسير سورة التوبة

نقصد بهذا التميز - كما سبق أن بينا فى تفسير السور السابقة - إعطائه القارىء صورة واضحة عن السورة التى سنفسرها قبل أن نبدأ فى تفسيرها آية آية ، فنقول :

١ - سورة التوبة هى السورة التاسعة فى ترتيب المصحف ، فقد سبقتها سور الفاتحة ، والبقرة ، وآل عمران ، والفساء ، والمائدة ، والأنعام ، والأعراف ، والأنفال .

٢ - وعدد آياتها مائة وتسعة وعشرون آية عند الكوفيين . ومائة وثلاثون آية عند جمهور العلماء .

٣ - أسماءها :

عرفت هذه السورة منذ العهد النبوى بمجملتها من الأسماء منها :

(١) التوبة : وسميت بهذا الاسم لتكرار الحديث فيها عن التوبة والمائبين ومن ذلك قوله - تعالى - : « فَإِنْ تَبَتُّمْ فَهِيَ خَيْرٌ لَّكُمْ ... » (١) .
وقوله - تعالى - : « فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ » (٢) .

وقوله - تعالى - : « ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ » (٣) .

وقوله - تعالى - : « وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرًا سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ... » (٤) .

(٢) الآية ١١ .

(٤) الآية ١٠٢ .

(١) الآية ٣ .

(٢) الآية ٢٧ .

وقوله - تعالى - : : وآخرون يرجون لأمراً الله إما يعذبهم وإما يشوبهم عليهم^(١) .

إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة التي تكررت في هذه السورة عن التوبة والتائبين .

(ب) براءة : وسميت بذلك لافتتاحها بقوله - سبحانه - : : براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين وهذا ان الاسمان - التوبة وبراءة - هما أشهر أسماء هذه السورة الكريمة .

(ج) الفاضحة : وسميت بهذا الاسم لحديثها المستفيض عن المنافقين وصفاتهم وأحوالهم وفضيحتهم على رهوس الأشهاد . أخرج البخاري عن سعيد بن جبير قال : قلت لابن عباس : سورة التوبة قال : التوبة هي الفاضحة . ما زالت تنزل : ومنهم ومنهم ، حتى ظنوا أنها لن تبقى أحدا منهم إلا ذكر فيها^(٢) .

(د) المنقرة : وسميت بذلك ، لأنها انقرت عما في قلوب المنافقين والمشركين فكشفت عنه ، وأظهرته للناس .

(هـ) المثيرة : وسميت بهذا الاسم ، لأنها أثارت مشالهم وعوراتهم . أي : أخرجتها من الخفاء إلى الظهور

(و) المبعثرة : لأنها بعثت أسرارهم . أي بينتها وعرفتها للمؤمنين .

(ز) المدمرة : أي المهلكة لهم

إلى غير ذلك من الأسماء التي اشتهرت بها هذه السورة الكريمة^(٣) هذا ، وليس في سور القرآن الكريم أكثر أسماء منها ومن سورة الفاتحة .

(١) الآية ١٠٦ .

(٢) صحيح البخاري : ج ٦ ص ١٨٣ . طبعة مصطفى الحلبي سنة ١٣٤٥ .

(٣) راجع تفسير الألوسي ج ١ ص ٣٦ . الطباعة المنيرية . الطبعة الثانية .

(٤) سورة التوبة

(٥) سورة التوبة

٤ - زمان ومكان نزولها : قال ابن كثير : هذه السورة الكريمة من أو آخر ما نزل على رسول الله ﷺ - كما قال البخارى ... (١) .

وقال صاحب المنار : هى مدنية بالاتفاق . وقيل : إلا قوله - تعالى - ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قرى... الآية، وذلك لما روى فى الحديث المتفق عليه من نزولها فى النهى عن استغفاره ﷺ - لعمه أبى طالب - كما سأتى تفصيله عند تفسيرها .

ويجاب عنه بجواز أن يكون نزولها تأخر عن ذلك ، وبما يقوله العلماء فى مثل هذا المقام من جواز نزول الآية مرتين : مرة منفردة ومرة فى أثناء السورة . واستثنى ابن القيس قوله - تعالى - قد جاءكم رسول من أنفسكم... إلى آخر الآيتين اللتين فى آخرها ؛ فزعموا أنهما مكيتان .

ويرده ما رواه الحاكم وأبو الشيخ فى تفسيره عن ابن عباس من أن هاتين الآيتين من آخر ما نزل من القرآن ، كما يردده أيضا قول السكيتين من أن هذه السورة نزلت تامة .

وما يعارض هذا مما ورد فى أسباب نزول بعض الآيات ، يجاب عنه بأن أكثر ما روى فى أسباب النزول ، كان يراد به أن الآية نزلت فى حكم كذا . أعنى أن الرواة كانوا يذكرونها كثيرا فى مقام الاستدلال . وهذا لا يدل على نزولها وحدها ، ولا على كون النزول كان عند حدوث ما استدلت بها عليه ، كما قلنا آنفا فى احتمال نزول آية استنكار الاستغفار للمشركين فى المدينة ، وإن كان ما ذكره من سببها حدث بمكة قبل الهجرة (٢) .

وقال بعض العلماء : ومن مراجعة نصوص السورة مراجعة موضوعية ، ومراجعة ما جاء فى الروايات الماثورة عن أسباب النزول وملاساته ، ومراجعة

(١) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٢٣١ . طبعة عيسى الحلبى .

(٢) تفسير المنار ج ١٠ ص ١٧٤ .

أحداث السيرة النبوية كذلك . . يتبين أن السورة بجمعائها نزلت في العام التاسع من الهجرة . ولكنها لم تنزل دفعة واحدة

ومع أننا لا نملك الجزم بالمواقيت الدقيقة التي نزلت فيها مقاطع السورة في خلال العام التاسع ، إلا أنه يمكن الترجيح بأنها نزلت في ثلاث مراحل : المرحلة الأولى منها : كانت قبل غزوة تبوك في شهر رجب من هذا العام . والمرحلة الثانية : كانت في أثناء الاستعداد لهذه الغزوة ثم في ثنائها . والمرحلة الثالثة : كانت بعد العودة منها .

أما مقدمات السورة من أولها إلى نهاية الآية الثامنة والعشرين منها ، فقد نزلت متأخرة في نهاية السنة التاسعة قبيل موسم الحج من ذي القعدة أو في ذي الحجة .

وهذا - على الإجمال - هو كل ما يمكن ترجيحه والاطمئنان إليه^(١) .

والذي نراه أن هذا القول هو الذي تسكن إليه النفس في الحديث عن زمان ومكان نزول السورة الكريمة ؛ لأن الذي يستعرض آياتها يراها - في مجموعها - ترسم للمؤمنين ما يجب أن تكون عليه علاقاتهم مع المشركين ، ومع أهل الكتاب ومع المنافقين ؛ ومع غيرهم من الطوائف .

كما يراها ترسم لهم الطريق الذي يجب عليهم أن يتخذوه أساساً لدولتهم . ومنهاجا لحياتهم ، حتى تستمر عزتهم ، وتبقى كلمتهم عالية قوية بعد أن فتح الله لهم مكة وأدل الشرك وأهله .

كما يراها - أيضاً - تتحدث باستفاضة عن أحداث قد وقعت خلال غزوة تبوك أو قبلها أو بعدها . وغزوة تبوك قد كانت في السنة التاسعة من الهجرة .

هـ - لماذا لم تذكر البسملة في أول سورة التوبة ؟

(١) تفسير د في ظلال القرآن ، للاستاذ الشهيد سيد قطب . الطبعة

الخامسة سنة ١٣٨٦ هـ و سنة ١٩٦٧ م .

للإجابة على هذا السؤال ذكر العلماء أقوالاً متعددة لخصها القرطبي تلخيصاً حسناً فقال :

واختلف العلماء في سبب سقوط البسملة من أول هذه السورة على أقوال خمسة : الأول : - أنه قيل كان من شأن العرب في زمانها في الجاهلية ، إذا كان بينهم وبين قوم عهد وأرادوا نقضه ، كتبوا إليهم كتاباً ولم يكتبوا فيه بسملة ؛ فلما نزلت سورة يراءة بنقض العهد الذي كان بين النبي - صلى الله عليه وسلم - والمشركين ، بعث بها النبي - صلى الله عليه وسلم - على بن أبي طالب فقرأها عليهم في الموسم ، ولم يبسم في ذلك على ما جرت به عادتهم في نقض العهود من ترك البسملة .

وقول ثان : - روى النسائي قال : حدثنا أحمد قال : حدثنا محمد بن المثنى عن يحيى بن سعيد قال : حدثنا عوف ، قال : حدثنا يزيد الرقاشي - وفي صحيح الترمذي يزيد الفارسي - قال : قال لنا ابن عباس : قلت لعثمان : ما حملكم على أن عمدتم إلى د الأنفال ، وهي من المثنى ، وإلى د براءة ، وهي من المئين فقرأتم بينهما ، ولم تكتبوا سطر بسم الله الرحمن الرحيم ، ووضعتموها في السبع الطوال ؛ فما حملكم على ذلك ؟

قال عثمان : إن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان إذا نزل عليه شيء يدع بعض من يكتب عنده فيقول : د ضعوا هذه الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا ، وكانت د الأنفال ، من أوائل ما أنزل - أي بعد الهجرة - ، و براءة ، من آخر القرآن نزولاً ، وكانت قصتها شبيهة بقصتها . وقبض رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولم يبين لنا أنها منها فظننت أنها منها ، فن ثم قرئت بينهما ولم أكن بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم .

وقول ثالث : روى عن عثمان أيضاً . وقال مالك فيمارواه ابن وهب وابن القاسم وابن عبد الحكم : لأنه لما سقط أولها سقط بسم الله الرحمن الرحيم معه .

وذلك عن ابن جحلان أنه بلغه أن سورة «براءة» كانت تعدل البقرة أو قرأها فذهب منها : فلذلك لم يكتب بسم الله الرحمن الرحيم .
وقال سعيد بن جبير : كانت مثل سورة البقرة .

وقول رابع : - قاله خارجة وأبو عصمة وغيرهما . قالوا : لما كتبوا المصحف في خلافة عثمان اختلف أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال بعضهم : براءة والأنفال سورة واحدة ، وقال بعضهم : هما سورتان . فتركت بينهما فرجة لقول من قال إنهما سورتان وتركت بسم الله الرحمن الرحيم لقول من قال هما سورة واحدة ، فرضى الفريقان معاً ، وثبتت حجتاهما في المصحف .

وقول خامس : قال عبد الله بن عباس : سألت علي بن أبي طالب لماذا لم يكتب في براءة بسم الله الرحمن الرحيم ؟ قال : لأن بسم الله الرحمن الرحيم أمان ، وبراءة نزلت بالسيف ليس فيها أمان .
- وكذا قال المبرد : إن التسمية افتتاح للخير ، وأول هذه السورة وعيد ونقض عمود ، فلذلك لم تفتح بالتسمية .
ثم قال القرطبي والصحيح أن التسمية لم تكتب ، لأن جبريل - عليه السلام - ما نزل بها في هذه السورة . . . (١)

هذا ، وقول القرطبي : والصحيح أن التسمية لم تكتب . . . الخ ، هو القول الذي نعتمد ، وتمامنا إليه قلوبنا ، وقد رجحه المحققون من العلماء . فقد قال الهجر الرازي - وقد ذكر ستة أوجه في سبب إسقاط التسمية من أولها - :

الصحيح أنه - صلى الله عليه وسلم - أمر بوضع هذه السورة بعد سورة الأنفال وحياً ، وأنه حذف بسم الله الرحمن الرحيم من أول هذه السورة وحياً (٢)

(١) تفسير القرطبي ج ٨ ص ٦١ طبعة دار الكتب المصرية سنة ١٣٨٠ هـ سنة ١٩٦١ م

(٢) تفسير الفخر الرازي ج ١ ص ٢٢٦ طبعة عبد الرحمن محمد سنة ١٣٥٧ هـ سنة ١٩٣٨ م

وقال الجلال : ولم تكتب فيها البسملة لأنه - صلى الله عليه وسلم - لم يأمر بذلك ، كما يؤخذ من حديث رواه الحاكم .
أى أنه - كما يقول الجمل - لا مدخل لرأى أحد في الإثبات الترك ، وإنما المتبع في ذلك هو الوحي والتوقيف ، وحيث لم يبين النبي - صلى الله عليه وسلم - ذلك تعين ترك التسمية ، لأن عدم البيان من الشارع في موضع البيان بيان للعدم ، (١) .

وقال بعض العلماء : ولم تكتب في أولها البسملة لعدم أمره - صلى الله عليه وسلم - بكتابتها ، إذ لم ينزل بها جبريل - عليه السلام - . والأصل في ذلك التوقيف ، .

أما الأقوال الخمسة التي نقلناها عن القرطبي - منذ قليل - في سبب سقوط البسملة من أول سورة التوبة ، فإننا لا نرى واحدا منها يعتمد عليه في هذا الأمر . لأن القول الأول الذي حكاه بقوله : قيل كان من شأن العرب ... الخ ، إنما هو تحليل عقلى على سبيل الاجتهاد لبيان الحكمة في عدم كتابة البسملة في أولها . ومثل هذا التعليل يقال في القول الخامس الذي حكاه ابن عباس ، عن علي بن أبي طالب .

وأما القول الثانى - وهو الحديث الذى رواه النسائى والترمذى - فقد علق عليه أحد العلماء المحققين بقوله : « فى إسناده نظر كثير ، بل هو عندى ضعيف جداً ، بل هو حديث لا أصل له . يدور إسناده فى كل رواياته على يزيد الفارسى ، ... ويزيد الفارسى هذا يختلف فيه : أهو يزيد بن هرمز أم غيره ؟ قال البخارى فى التاريخ الكبير : « قال لى على : قال عبد الرحمن بن يزيد الفارسى هو ابن هرمز . قال : فذكرته لبحيى فلم يعرفه ، قال : « وكان يكون مع الأمراء ، . وفى التهذيب : « قال ابن أبى حاتم : اختلفوا هل هو يعنى ابن هرمز يزيد الفارسى أو غيره ... »

فهذا يزيد الفارسى الذى انفرد برواية هذا الحديث يكاد يكون مجهولاً ، حتى شبه على مثل ابن مهدى وأحمد والبخارى أن يكون هو ابن هرمز أو غيره .

ويذكره البخاري في الضعفاء ، فلا يقبل منه مثل هذا الحديث ينفرد به ، وفيه تشكيك في معرفة سور القرآن الثابتة بالتواتر القطعي ، قرأه وسماعاً وكتابة في المصاحف . وفيه تشكيك في إثبات البسملة في أوائل السور ، كان عثمان كان يثبتها برأيه وينفيها برأيه ، وحاشاه من ذلك . فلا علينا إذا قلنا إنه حديث لا أصل له ، تطبيقاً للقواعد الصحيحة التي لا خلاف فيها بين أئمة الحديث .

قال السيوطي في تدريب الراوي في السكلام على إمارات الحديث الموضوع : أن يكون منافياً لدلالة الكتاب القطعية ، أو السنة المتواترة ، أو الإجماع القطعي ، ... (١) .

وأما القول الثالث الذي يقول ، إنه لما سقط أولها سقط معه بسم الله الرحمن الرحيم ... ، فهو قول ساقط لا يعتد به ، لأنه لا دلائل عليه ولا سند له ، ويؤدي الالتفات لإيمه إلى المساس بقداصة القرآن الكريم ، حيث إن بعض سورته كانت طويلة ثم سقط منها ما سقط .

وأما القول الرابع الذي يزعم قائلوه أن بعض الصحابة قال : د براءة والأنفال سورة واحدة ... ، فهو قول ضعيف ولا يعتد به - أيضاً - كسابقه ، لأنه قد عرف واشتهر بأنهما سورتان مستقلتان منذ عهد النبي - صلى الله عليه وسلم - إلى يومنا هذا .

ولأن الذي يقرأ السورتين بإمعان وتدبر ، يرى أن لكل منهما موضوعاتها الخاصة بها ، والتي اهتمت بها أكثر من غيرها ، فسورة الأنفال تحدثت باستفاضة عن غزوة بدر وما يتعلق بها ... بينما سورة التوبة قد تحدثت باستفاضة عن غزوة تبوك أي في السنة التاسعة .

(١) راجع : المسند للإمام أحمد ، شرح وتحقيق الأستاذ الشيخ أحمد شاكر . ج ١ حديث رقم ٢٩٩ طبعة دار المعارف ، الطبعة الثالثة سنة ١٩٤٩ ، فقد تكلم الأستاذ أحمد شاكر على هذا الحديث / كلاماً طويلاً فأنظره .

قال الحاكم : إستفاض النفل أنهما سورتان .

وقال أبو السعود : إشتهارها - أى سورة التوبة - بهذه الأسماء المتقدمة -
براءة والفاضحة ... إلخ - يقضى بأنها سورة مستقلة ، وليست بعضاً من
سورة الأنفال ... ،^(١) :

وقال بعض العلماء : وهذه الأسماء وغيرها مما ثبت إطلاقه على السورة
- أى سورة التوبة - من الصدر الأول ، لم يعرف إطلاق واحد منها على
السورة التى قبلها وهى سورة الأنفال ، كما لم يعرف أنه أطلق اسم سورة
الأنفال على هذه السورة . وبذلك أحتفظت كل من السورتين منذ العهد
الأول بما لها من اسم لم تشاركها فيه صاحبتها .

وكما أحتفظت كل من السورتين بما لها من اسم ، أحتفظت كل منهما
بوقت نزولها ، فسورة الأنفال نزلت بعد غزوة بدر . أى : فى السنة الثانية
من الهجرة . وسورة التوبة نزلت بعد غزوة تبوك ، وبعد خروج أبى بكر
على رأس المسلمين إلى الحج . أى : فى أواخر السنة التاسعة .

وكما أحتفظت كل منهما بهذا وذاك ، أحتفظت كل منهما - أيضاً -
بهدفها الخاص .

فسورة التوبة عاجلت شئوناً حدثت بعد زمن طويل من نزول سورة
الأنفال ، ومعرفتها باسم سورة الأنفال . وسورة الأنفال عاجلت شئوناً
حدثت قبل نزول سورة التوبة ولم يرد لها ذكر فيها .

ولاشك أن كل هذه الاعتبارات الواضحة المبينة والمحقة فى السورتين
من الصدر الأول ، تدل دلالة واضحة على أنهما سورتان منفصلتان ، وأن
عدهما سورة واحدة رأى لا قيمة له ، كما لا قيمة لاشتباه فى استقلال كل منهما .

(١) تفسير أبى السعود ج ٢ ص ٢٥٠ . طبعة محمد عبد اللطيف .

حتى يقال : تركت البسملة بينهما نظراً لاحتمال وحدثهما ، وتركتهما بينهما
فرجة نظراً لاحتمال انفصالهما .
وقد عرفت مع ترك التسمية بينهما أنهما سورتان مستقلتان من عهد النبي
صلى الله عليه وسلم - إلى يومنا هذا .

وقد جاء كذلك في المصاحف الأولى : مصحف عثمان ، وعلى ، وابن
عباس ، فلا معنى بعد هذا كله لإثارة شبهة ق- تمس من قرب أو بعد قداسة
تنظيم كتاب الله وترتيبه بناء على روايات ضعيفة أو موضوعة (١) .
والخلاصة أن القول بأتهما سورة واحدة ، قول لا وزن له ، ولا يعول
عليه للأسباب التي ذكرناها آنفاً .
٦ - مناسبتها سورة الأنفال :

قال الألوسي : ووجه مناسبتها للأنفال أن في الأولى قسمة الغنائم وجعل
لخمسة أصناف على ما علمت ، وفي هذه قسمة الصدقات وجعلها لثمانية
أصناف على ما ستعلم إن شاء الله .

وفي الأولى - أيضاً - ذكر اليهود وهنا نبذها . وأنه - سبحانه - أمر في
الأولى بالإعداد فقال : وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ، ونعى هنا على
المنافقين عدم الإعداد بقوله : د لو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ، .
وأنه - سبحانه - حتم الأولى بإيجاب أن يوالى المؤمنون بعضهم بعضاً وأن
يكونوا منقطعين عن الكفار بالسكينة ، وصرح - جل شأنه - في هذه بهذا
المعنى فقال : د برادة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين . . .
إلى غير ذلك من وجوه المناسبة (٢) .

(١) تفسير القرآن الكريم ص ٦٠١ لقصيلة الأستاذ الشيخ محمود شلتوت

طبعة دار القلم الطبعة الرابعة سنة ١٩٦٦

(٢) تفسير الألوسي ج ١٠ ص ٣٦

وقال صاحب المنار : وأما التناسب بينها وبين ما قبلها فإنه أظهر من التناسب بين سائر السور وبعضها مع بعض ، فهي - أي التوبة - كالتممة لسورة الأنفال في معظم ما فيها من أصول الدين وفروعه والسنن الإلهية والتشريع وأحكام المعاهدات . . . فما بدى به في الأولى أنتم في الثانية ، مثال ذلك .

- ١ - أن العمود ذكرت في سورة الأنفال، وافتتحت سورة التوبة بتفصيل الكلام فيها ، ولا سيما نبذها الذي قيد في الأولى بخوف خيانة الأعداء .
- ٢ - تفصيل الكلام في قتال المشركين وأهل الكتاب في كل منهما .
- ٣ - ذكر في الأولى صد المشركين عن المسجد الحرام وأنهم ليسوا بأوليائه ، وجاء في الثانية : ما كان للمشركين أن يعمرُوا مساجد الله . . .
- ٤ - ذكر في أول الأولى صفات المؤمنين الكاملين ، وذكر بعد ذلك بعض صفات الكافرين . ثم ذكر في آخرها حكم الولاية بين كل من الفريقين . وجاء في الثانية مثل هذا في مواضع أيضاً . (١) .

والحق أن الذي يقرأ السورتين بتأمل وتدبر يراها تعطيناه ما يشبه أن يكون صورة تاريخية مجملة لدعوة النبي - ﷺ - وجهاده إلى أن أنتم الله له نعمة النصر .

فإذا عندما نقرأ سورة الأنفال نراها تتحدث عن حالة المسلمين قبل الهجرة كما في قوله . تعالى . واذكروا إذا أنتم قليل مستضعفون في الأرض تخافون أن يخطفكم الناس . . . الآية ٢٦ .

كما تتحدث عن المكر السيء الذي صدر عن المشركين والذي كان من أسباب الهجرة ، كما في قوله . تعالى . واذمكركم الذين كفروا ليشتكوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين . الآية ٣٠ .

(١) تفسير المنار - بتصرف وتلخيص - ج ١٠ ص ١٧٥ . للسيد محمد رشيد رضا .

(٢ - سورة التوبة)

ثم نراها تفيض في الحديث عن غزوة بدر، وتشير إلى ما ظهر من المنافقين فيها . إذ يقول المنافقون وللذين في قلوبهم مرض غر هؤلاء دينهم . الآية ٤٩ . وإلى ما حدث من اليهود من نقض للعهد ، وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين ، الآية ٥٨ .

أما سورة التوبة فإرادنا ذكر المسلمين بالنصر الذي منحه الله لهم في موطن كثيرة قال . تعالى . : « لقد نصركم الله في موطن كثيرة . . . » الآية ٢٥ ، كما تصف بالتفصيل مواقف المنافقين في غزوة تبوك وغيرها . ولعل قيام السورتين المكرمتين بإعطاء القارىء ما يشبه أن يكون صورة تاريخية مجعلة للدعوة الإسلامية هو الحكمة في وضعهما مقترنتين وفي تسميتهما بالقرينتين .

قال القرطبي : « كافتا تدعيان القرينتين ؛ فوجب أن نجما وتضم إحداهما إلى الأخرى ؛ للوصف الذي ازماه من الاقتران ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - (١) . »

٧ - المقاصد الإجمالية لسورة التوبة :

عندما نقرأ سورة التوبة بتأهل وقدر نراها في مطلعها تحدد تحديدًا حاسمًا المنهاج الذي يجب أن يسلكه المؤمنون في علاقتهم مع المشركين ، وتبين بوضوح وجلاء الأسباب التي تدعو المؤمنين إلى التزام هذا المنهاج . فهي في أولها تعلن براءة الله ورسوله من المشركين بسبب خياناتهم ، وتمنحهم الأمان لمدة أربعة أشهر لكي يدبروا فيها أمر أنفسهم ، وتعلن للناس عامة يوم الحج الأكبر أن الله ورسوله قد برئا من عهود المشركين ، وأنها قد نبذت إليهم ، وتستثنى من هؤلاء المشركين أولئك الذين لم ينقضوا ، فتأمر المؤمنين بأن يتعوا إليهم عهدهم إلى مدتهم ، فإذا ما انتهت مدة الأمان فعلى

المؤمنين أن يقتلوا المشركين الناكثين حيث وجدوهم ، وأن يؤمنوا من يطلب الأمان منهم حتى يسمع القرآن ويتدبره ، ويطلع على حقيقة الإسلام . وبذلك لا يبقى له عذر .

استمع إلى السورة الكريمة وهي تصور كل هذه المعاني بأسلوبها البليغ الحاسم فتقول :

براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين . فسيحوا في الأرض أربعة أشهر ، واعلموا أنكم غير معجزي الله وأن الله مخزن السكاكين . وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله بريء من المشركين ورسوله ؛ فإن تبتم فهو خير لكم ، وإن تولوا فاعلموا أنكم غير معجزي الله ، وبشر الذين كفروا بعذاب أليم .

ثم نسوق السورة بعد ذلك الأسباب التي دعت إلى البراءة من المشركين ، والتي أوجبت على المؤمنين قتالهم ، وحرصتهم على ذلك بأنواع من المشجعات فقالت :

ألا تقاتلون قوماً فكثوا إيمانهم وهموا بإخراج الرسول وهم بدوكم أول مرة ، أنخسوهم ؟ فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين . قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين . ويذهب غيظ قلوبهم ويتوب الله على من يشاء والله عليم حكيم .

ثم توجه السورة الكريمة خطابها إلى الذين شق عليهم القتال من المؤمنين ، وتبين أن الحكمة في الأمر به ، إنما هي الامتحان والتحريض فتقول .

أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ، ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة والله خبير بما تعملون .

ثم تصرح السورة الكريمة بعد ذلك بأن المؤمنين وحدهم هم الذين من حقهم أن يعمرُوا مساجد الله . . . أما المشركون فليس من حقهم ذلك بسبب كفرهم ونجاستهم .

قال تعالى : ما كان للمشركين أن يعمرُوا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر أولئك حبطت أعمالهم وفي النار هم خالدون . إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين .

فإذا ما وصلنا إلى الربع الثانى من سورة التوبة رأيناها فى أوائله توجه إلى المؤمنين فداء تأمرهم فيه أن يؤثروا محبة الله ورسوله على محبة الآباء والأبناء والأموال . . . وتهدد من يخالف ذلك فتقول :

يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان ، ومن يتولهم منهم فأولئك هم الظالمون . قل إن كان آباؤكم وأبناءؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ، ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله ، فاربصوا حتى يأتى الله بأمره ، والله لا يهدى القوم الفاسقين .

ثم أخذت السورة الكريمة فى تذكير المؤمنين بألوان من نعم الله عليهم ،

حيث نصرهم . سبحانه : على أعدائهم في موطن كثيرة ، وحيث أيدهم بعونه بعد أن ضاقت عليهم الأرض بما رحبت .

قال تعالى : لقد نصركم الله في موطن كثيرة . وتوم حنين إذ أعبىكم كثيركم فلم تغن عنكم شيئاً ، وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين : ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين ، وأنزل جنوداً لم تروها ، وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين .

ثم وجهت إليهم نداءً ثانياً انتهت بهم فيه عن تمسكهم المشركين من قربان المسجد الحرام ، وبشرتهم بأن الله : تعالى . سيغنيهم من فضله متى تابوا إليه وأطاعوه .

قال تعالى : يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا وإن خفتهم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء إن الله عليم حكيم (الآية ٢٨) .

ولم يأت هنا في السورة الكريمة قد حددت تحديداً حاسماً المنهاج الذي يجب أن يسلكه المؤمنون في علاقتهم مع المشركين ، وأبرزت بصورة واضحة ومقنعة الأسباب المتنوعة التي أوجبت سلوك هذا المنهاج .

وتلك عادة القرآن الكريم في تشريعاته . لا تكاد تجد تشريعاً من تشريعاته إلا وقد صاحبه الحكمة التي كان لأجلها هذا التشريع . والتي من شأنها أن تدفع الناس إلى المسارعة في التنفيذ والامتثال .

ثم بدأت السورة بعد ذلك في تحديد المنهاج الذي يجب أن يسلكه المؤمنون في علاقتهم مع المنحرفين من أهل الكتاب ، وأبرزت . أيضاً : الأسباب

عليه من صفات سيئة تحمل المؤمنين على تأديبهم ، وأرشدت إلى ما كان عليه رؤساؤهم من أكل لأموال الناس بالباطل ، ومن صد عن سبيل الله . استمع إلى الآيات الكريمة وهي تحكى كل ذلك فتقول :

قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يدهم صاغرون . وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ، ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون .

يا أيها الذين آمنوا إن كثيراً من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله ، والذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم .

ثم وجهت السورة نداء رابعاً إلى المؤمنين ، نعت فيه على المتشاكسين الذين دعوا إلى الجهاد فتكاسلوا عنه . . وحذرتهم من سوء عاقبة هذا التكاسل وذكرتهم بما كان من نصر الله - تعالى لنبيه وقت أن أحاط به المشركون وهو في الغار . وأمرتهم بالخروج للجهاد في حالتى اليسر والعسر والمنشط والمكر .

قال تعالى : يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم أنفروا في سبيل الله إنا قلنا لكم إلى الأرض ، أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة ، فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل : إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ويستبدل قوماً غيركم ولا تضروه شيئاً ، والله على كل شيء قدير .

وبعد هذه الدعوة الحارة للمؤمنين إلى الجهاد في سبيل الله بالنفس والأموال

بدأت السورة الكريمة في الحديث عن المنافقين ، فكشفت عن أصنافهم وأوصافهم ، ورسمت أحوالهم النفسية والعملية ، وفنعت مواقفهم في غزوة تبوك وما كان منهم قبلها وبعدها وأثناءها ، وأظهرت حقيقة نواياهم وحيالهم ومعاذيرهم عن القتال ، وأزاحت الستار عن أساليب نفاقهم وألوان فتنهم وتخليد لهم للمؤمنين ، وحكت ما كانوا ينطقون به من سوء في حق النبي ﷺ وفي حق أصحابه .

وقد استغرق الحديث عن المنافقين زهاء نصف سورة التوبة ، - أي من أواخر الربع الثالث منها إلى نهاية الربع السابع - .

وقد تركتهم السورة الكريمة - بعد هذا الكشف السافر لأحوالهم : عراه من الخير أمام المؤمنين ، منبذين من جماعة المسلمين ، يميزين بصفاتهم القبيحة التي فصلها القرآن تفصيلاً يجعل العقلاء يعرفونهم ويحذرونهم .

فمن صفاتهم الذميمة ومسالكم الخبيثة التي تحدثت السورة عنها :
(أ) الفرار من موطن الجد والجهد ، والاندال بالأعذار الكاذبة ، والانسار والإيمان الفاجرة ، وقد حكمت السورة عنهم ذلك في مواضع كثيرة منها ،

قال تعالى : لو كان عرضاً فريباً ومنراً فاعداً لا تبعوك ولكن بعدت عليهم الشقة ، وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم - لو كانوا أنفسهم والله يعلم أنهم لسكاذبون :

وقوله تعالى : ومنهم من يقول انذن لي ولا تفتني ألافى الفتنة سقطوا وإن جهنم لمحيطة بالكافرين .

وقوله تعالى : فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله ، وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ، وقالوا لا تنفروا في الحرب ، قل

وقوله تعالى : وإذا ما أنزلت سورة أن آمنوا بالله وجاهدوا مع
رسوله استأذنك أولوا الطول منهم وقالوا ذرنا مع القاعدين . ر ضوا بأن
يكونوا مع الخوالف وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون .

(ب) إشاعة الفتنة في صفوف الجيش الإسلامي متى وجدوا فيه . أي أن
خلو الجيش منهم خير وبركة ووجودهم فيه شر وفتنة .

قال تعالى لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا ولا وضعوا فلكم
يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم والله عليم بالظالمين .

(ج) كراحتهم الخبير للرسول - ﷺ - ولأصحابه ، ومحبتهم
النساء لهم .

قال تعالى : إن تصبك حسنة تسؤهم ، وإن تصبك مصيبة يقولوا
قد أخذنا أمرنا من قبل ويتولوا وهم فرحون :

(د) تكاسلهم عن أداء الشعائر الدينية بسبب فسوقهم وكفرهم :
قال تعالى : قل أنفقوا طوعاً أو كرهاً إن يقبل منكم إنكم كنتم
قوماً فاسقين . وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله
وبرسوله ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى ولا ينفقون إلا وهم كارهون .

(هـ) تظاهرهم بالاسلام تقية وجبنهم عن التصريح بما هم عليه من كفر .

قال تعالى : ويخلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم ولست بهم قوم
يفرقون لو يجدون ملجأ أو مغارات أو مدخلا تولوا إليه وهم يجمعون .

(و) طعنهم على الرسول - صلى الله عليه وسلم - في قسمة الأموال وفي توزيع الصدقات بقصد إشاعة التهم الباطلة حوله .

قال تعالى : ومنهم من يلمزك في الصدقات ، فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون .

(ز) وصفهم للرسول - صلى الله عليه وسلم - بأنه أذن - أى يصدق كل ما يقال له بدون تثبت ...

قال تعالى : ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون هو أذن قل أذن خير لكم ، يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين ورحمة للذين آمنوا منكم ، الذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم .

(ح) استهزأهم بتعاليم الإسلام فيما بينهم ، واعتذارهم عن ذلك بأنهم لم يكونوا جادين فيما ينطقون به من سوء ، وتكذيب الله لهم فيما اعتذروا عنه ..

قال تعالى : يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم ، قل استهزؤا إن الله مخرج ما تحذرون . ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب ، قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون . لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم إن نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة بأنهم كانوا مجرمين .

(ط) تعاطفهم فيما بينهم وتعاونهم على الإثم والعدوان لا على البر والتقوى .

قال تعالى : المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ، ويقبضون أيديهم نسوا الله فنسيهم إن المنافقين هم الفاسقون .

(ج) سخر بهم من فقراء المؤمنين ، لأنهم يتصدقون بالقليل الذي لا يملكون سواه .

قال تعالى : الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات والذين لا يجدون إلا جهدهم فيسخرون منهم سخر الله منهم ولهم عذاب أليم .

(ك) نقضهم للعهود ، وبخلفهم بما آتاهم الله من فضله .

قال تعالى : ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين . فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون .

(ل) اتخذهم مسجداً لهم لا من أجل العبادة ، وإنما من أجل المضارة وإيذاء المؤمنين ومحاولة تفريق كلمتهم ، وتشيت وحدتهم .

قال تعالى : والذين اتخذوا مسجداً ضرراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل ، وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى ، والله يشهد إنهم لكاذبون .

وهكذا نرى السورة الكريمة قد تلبت المنافقين ، فكشفت عن أصنافهم وأوصافهم وأحوالهم .. بصورة تجعل المؤمنين الصادقين يعرفونهم ويحذرونهم .

بعد ذلك اتجهت السورة : في أواخرها بالحديث إلى المؤمنين الصادقين .

(ا) فذكرتهم بالاعاقبة الذي بينهم وبين خالقهم : عز وجل . وبشرتهم برضوانه ومحبه متى وفوا بعهودهم فقال : تعالى :

أن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة

يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا في التوراة والانجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم

(ب) وأعلمتهم بأن إيمانهم يحتم عليهم عدم الاستغفار لمن خالفهم في الدين مهما بلغت درجة قرابته

ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى من بعد ما تبين لهم أصحاب الجحيم .

(ج) وأمرتهم بأن يصحبوا رسولهم ﷺ : في جهاده للأعداء ، وأن يكابدوا معه الندائد والأهوال برغبة ونشاط :. لأن كل تعب يلحقهم معه مكتوب لهم في سجل حسناتهم .

ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ، ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه ، ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا محمصة في سبيل الله ولا يطأون موطنًا يعظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلا إلا كتب لهم به عمل صالح إن الله لا يضيع أجر المحسنين .

(د) وأرشدتهم إلى أنه في حالة عدم خروج النبي ﷺ معهم للجهاد ، عليهم أن يقسموا أنفسهم إلى قسمين : قسم يخرج للجهاد وقسم آخر يبقى مع النبي ﷺ ليتعلم منه العلم ويحفظ عنه ما تجدد من أحكام .

وما كان المؤمنون لينفروا كافة ، فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون :
(هـ) ثم ختم . سبحانه . هذه السورة الكريمة بهاتين الآيتين الدالتين على سابغ رحمته بعباده ، حيث أرسل إليهم رسولا من أنفسهم حريصا على منفعتهم رحيمًا بهم ، فقال تعالى :

لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم . فإن تولوا فقل حسبى الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم .

أما بعد : فهذا عرض لإجمالى لما اشتملت عليه سورة التوبة من موضوعات ومن هذا العرض يتبين لنا أن السورة الكريمة قد اهتمت بأمور معينة من أهمها ما يأتى .

١ - رسم المنهاج النهائى الذى يجب أن يسير عليه المسلمون فى علاقاتهم مع مشركى العرب ، ومع أهل الكتاب ، ومع المنافقين ، مع بيان الأسباب التى تدعو المسلمين إلى التزام هذا المنهاج .

٢ - كشف الغطاء عن المنافقين وأصنافهم وأوصافهم ، وعما انطوت عليه قلوبهم من أحقاد ، وعما سلكوه من مسالك خبيثة لمحاربة الدعوة الإسلامية ، ومناوأة أتباعها الصادقين .

وقد أفاضت السورة فى الحديث عن ذلك إفاضة لا توجد فى غيرها من سور القرآن الكريم .

٣ - حددت السورة الكريمة معالم المجتمع الإسلامى بعد أن بهم فتح مكة ، وبعد أن دخل الناس فى دين الله أفواجا .

فأثنت على السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان ووعدتهم بالفوز العظيم .

قال تعالى : والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار الذين أتبعوهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه ، وأعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم .

وحكمك على كل فريق من المتخلفين عن غزوة تبوك من أهل المدينة وما حولها بالحكم الذى يناسبه .

قال تعالى : وعن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم سنعذبهم مرتين ثم يردون إلى عذاب عظيم .

قال تعالى : وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم .

وقال تعالى : وآخرون مرجون لأمر الله إما يعذبهم وإما يتوب عليهم .

وهكذا نرى السورة الكريمة قد وضحت الطوائف المتنوعة التى كان للمجتمع الإسلامى يتكون منها عند نزولها ، أى : بعد أن تم فتح مكة .

٤ - يؤخذ من الحديث المستفيض الذى ساقته السورة عن المنافقين وصفاتهم وأحوالهم . . . أنهم بعد فتح مكة بدأت دولتهم تعود إلى الظهور فى المجتمع الإسلامى بينما كانت قبيل الفتح قد أوشكت على التلاشى والاندثار .

ولعل السبب فى ذلك : أن كثيراً من الناس قد دخل فى الإسلام بعد أن فتحت مكة . لأسباب دينوية متنوعة . دون أن يستقر الإيمان فى قلوبهم ، وإنما بقيت آثار الجاهلية لها وزنها فى تحريك طباعهم واتجاهاتهم وأفكارهم

قال بعض العلماء : سياق السورة يرسم صورة كاملة للمجتمع المسلم فى

فترة بعد الفتح ، ويصف تكوينه العضوى . ومن هذه الصورة يتجلى نوع
من الخلقة وقلة التناسق بين مستوياته الإيمانية ، كما تكشف ظواهر
وأعراض من الشح بالنفس والمال ، ومن النفاق والضعف ، والتردد فى
الواجبات والتكاليف ، والخلط وعدم الوضوح فى تصور العلاقات بين
المعسكر الإسلامى والمعسكرات الأخرى ، وعدم المفاصلة الكاملة على أساس
العقيدة . وإن كان هذا كله لا يتعارض مع وجود القاعدة الصلبة الآمنة
الخاصة من المهاجرين والأنصار . مما استدعى حملات مفصلة ومنوعة
للكشف والوعية والبيان والتقرير تفى بحاجة المجتمع إليها .

وإن سبب هذه الحالة هو دخول جماعات كثيرة متنوعة من الناس فى
الإسلام بعد الفتح ، لم تتم تربيتها ، ولم تنطبع بعد بالطابع الإسلامى
الأصيل (١) .

هـ - عرضت السورة لبيان كثير من الأحكام والارشادات التى تحتاج
إليها الدولة الناشئة ، كحديثها عن مصارف الزكاة ، وعن الجهاد ورجباته ،
وعن العهود وأحكامها ، وعن الأشهر الحرم . . إلى غير ذلك من الأحكام ؛
هذا ، ولعلنا ، بعد هذا العميد الذى سقناه بين يدي تفسير سورة التوبة -
نكون قد أعطينا القارىء الكريم فكرة واضحة عن أسماء هذه السورة ،
وعن زمان ومكان ونزولها ، وعن السبب فى عدم ذكر البسملة فى أولها ،
وعن مقاصدها وموضوعاتها الإجمالية .

والله نسأل أن يوفقنا لما يحبه ويرضاه ، وأن يجنبنا الزلل والانحراف
عن طريقه القويم :

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

(١) راجع تفسيره فى ظلال القرآن ، الأستاذ سيد قطب ص ٩٠ وما بعدها .

طبعة دار إحياء التراث العربى بيروت . الطبعة الخامسة سنة ١٣٨٦ هـ سنة ١٩٦٨ م .

بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾
فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ
وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ ﴿٢﴾ وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ
يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ
تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ
وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ
ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ
عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾

قال الإمام ابن كثير : أول هذه السورة نزل على رسول الله - ﷺ - لما
رجع من غزوة تبوك ، وهم بالحج . ثم ذكر أن المشركين يحضرون
عامهم هذا الموسم على عادتهم في ذلك ، وأنهم يطوفون بالبيت عراة ،
فكره مخالطتهم . وبعث أبا بكر الصديق - رضي الله عنه - أميراً على الحج
تلك السنة ، ليقوم للناس مناسكهم ، ويعلم المشركون أن لا يحجوا بعد عامهم
هذا ، وأن ينادى بالناس ببراءة من الله ورسوله ... ، فلما قفل أتبعه بعلي
ابن أبي طالب ، ليكون مبالغاً عنه - ﷺ - ليكون عصبية له (١) .
وقال محمد بن إسحاق : لما نزلت براءة ، على رسول الله - ﷺ -
وقد كان بعث أبا بكر الصديق - رضي الله عنه - ليقوم للناس .

(١) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٣٣١ طبعة عيسى الحلبي .

الحج . قيل له : يا رسول الله ، لو بعثت بها إلى أبي بكر ؟ فقال : لا يؤدي عني إلا رجل من أهل بيتي .

ثم دعا علي بن أبي طالب فقال له : اخرج بهذه القصة من صدر برائة ، وأذن في الناس يوم النحر إذا اجتمعوا بمنى : أنه لا يدخل الجنة كافر ، ولا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان . ومن كان له عند رسول الله - ﷺ - عهد فهو له إلى مدته .

فخرج علي بن أبي طالب على ناقه رسول الله - ﷺ - . العضباء ، حتى أدرك أبا بكر بالطريق . فلما رآه أبو بكر قال : أمير أو مأمور ؟ فقال : بل مأمور . ثم مضيا ، فأقام أبو بكر للناس الحج ، والعرب إذ ذاك في تلك السنة على منازلهم من الحج التي كانوا عليها في الجاهلية .

حتى إذا كان يوم النحر قام علي بن أبي طالب فأذن في الناس بالذي أمره به رسول الله . ﷺ . فقال : أيها الناس ، إنه لا يدخل الجنة كافر ، ولا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان . ومن كان له عهد عند رسول الله . ﷺ . فهو إلى مدته ، وأجل الناس أربعة أشهر من يوم أذن فيهم ، ليرجع كل قوم إلى ما منهم وبلادهم ، ثم لا عهد لمشرك ولا ذمة ، إلا أحد كان له عند رسول الله . ﷺ . عهد إلى مدة ، فهو له إلى مدته . فلم يحج بعد العام مشرك ، ولم يطف بالبيت عريان . ثم قدما على رسول الله . ﷺ (١) .

وقال الفخر الرازي : روى أن النبي . ﷺ . لما خرج إلى غزوة تبوك وتحلف المنافقون وأرجفوا الأراجيف ، جعل المشركون ينقضون العهد ، فنابذ رسول الله . ﷺ . العهد إليهم (٢) .

(١) السيرة النبوة لابن هشام ج ٤ ص ١٩٥ طبعة مصطفى الحلبي سنة ١٣٥٥ هـ سنة ١٩٣٦ م تحقيق مصطفى السقاء .

(٢) تفسير الفخر الرازي ج ١٥ ص ٢١٧ طبعة عبد الرحمن محمد .

تفسير سورة التوبة

هذه بعض الآثار التي ذكرها المفسرون في هذا المقام .
وقوله - تعالى - : « برأءة ، مصدر برىء . « كتب » ، وأصل البراءة :
التباعد عن الشيء والتخلص منه . تقول : برئت من هذا الشيء أبرأه فأنا
منه برىء . ، إذا أزلته عن نفسك ، وقطعت الصلة بينك وبينه . ومنه قولهم :
برئت من الدين أى تخلصت منه .

ولفظ « برأءة » مرفوع على أنه خبر لمبتدأ محذوف ، والتنوين فيه
للتفخيم و « من » ، لا ابتداء الغاية . والعهد : العقد الموثق باليمين . والخطاب
في قوله « عاهدتم » للمسلمين .

والمعنى : هذه برأءة واصله من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين
بسبب نقضهم لعهودهم ، وإصرارهم على باطلهم ...

قال صاحب الكشف : فإن قلت : لم علقت البراءة بالله ورسوله
والمعاهدة بالمسلمين ؟

قلت : قد أذن الله في معاهدة المشركين أولاً ، فاتفق المسلمون مع
رسول الله - ﷺ - وعاهدوهم ، فلما نقضوا العهد أوجب الله - تعالى -
التباعد إليهم ، فخطب المسلمون بما تجدد من ذلك فقبل لهم : اعلموا أن
الله ورسوله قد برئاً مما عاهدتم به المشركين .

وزوى أنهم عاهدوا المشركين من أهل مكة وغيرهم من العرب ، فنكثوا
إلا ناساً منهم ، فنبذ العهد إلى الناكثين ، وأمروا أن يسيحوا في الأرض
أربعة أشهر آتئين ... (١) .

وقال بعض العلماء : والمعنى أن الله قطع ما بينه وبين المشركين من صلوات
مخلا عهد ولا تعاهد ولا سلم ولا أمان ، وتركهم يعمل فيهم سيوف المؤمنين حتى

(١) تفسير الكشف ج ٢ ص ٢٤٢ طبعة دار الكتاب العربي بيروت
(٣ - سورة التوبة)

الجزء العاشر

يقوموهم أو يبيدوهم . ولا يدخل في هذا التبرى قلع رحمة العامة عنهم التي كتبها على نفسه من جهة أنه الخالق وأنهم المخلوقون . . . فهو مع هذا التبرى لا يزال من هذه الجهة يرحمهم بمنح الحياة وموارد الرزق ، والتمكين من العمل حسب تقديره العام وسنته الشاملة في خلقه . ولو أن التبرى كان على إطلاقه لما عاش كافر طرفه عين ، ولما استطاع كافر أن يقف في وجه مسلم .

فآلية تقرر حكما تسكيفيا للمسلمين في شأن معاملة المشركين ..

واعتبار أن الآية تقرر حكما شرعيا والمشرع هو الله أضيف صدور البراءة إليه - سبحانه - وعطف عليه الرسول - صلى الله عليه وسلم - في هذا المقام ، لأنه هو المبلغ عنه ، والمنفذ لما يبلغه . .

ولما كان النعاهد بين المؤمنين وغيرهم تنفيذا لأمر الله به ، وأصله حق لجماعتهم ، وإنما يقوم الإمام به نائبا عن الجماعة ، أضيف - أى التعاهد - إلى جماعة المسلمين ، فقيل : د عاهدتم . . وكثيراً ما ينسب القرآن الأحكام العامة لجماعة المؤمنين . . .

ويؤخذ من تقرير البراءة من المشركين في هذه الآية جواز نبذ اليهود لمن كان بيننا وبينه عهد متى رأى الإمام مصلحة الأمة في ذلك ، كأن خيف منهم خيانة ، أو نقضوا شيئاً من شروط المعاهدة ، أو وضعت المعاهدة على غير شرط احترامها الشرعى ، وذلك كله أخذاً من هذا المقام ، ومن قوله - تعالى - في سورة الأنفال : د وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء . . . كما يؤخذ أن عقد المعاهدات إنما هو حق للجماعة ، يوافق عليه أصحاب الرأي والاختصاص في موضوع المعاهدة ، وما هو في مصلحة الجماعة ، ثم يباشرها الإمام بعد ذلك نيابة عن الجماعة (١) .

(١) تفسير القرآن الكريم ص ٦١٢ لفضيلة الإمام الأكبر محمود شلتوت .

تفسير سورة التوبة

وقوله - تعالى - : « فسيحوا في الأرض أربعة أشهر ... » ، بيان للمهمة التي منحها - سبحانه - للمشركين ليذبوا فيها أمرهم .

والسياحة في الأصل : جريان الماء وانبساطه على موجب طبيعته ، ثم استعملت في الضرب في الأرض والاتساع في السير والتجوال . يقال : ساح فلان الأرض - يحا وسياحة وسيوحا إذا تنقل بين أرجائها كما يشاء .

والخطاب للمؤمنين على تقدير القول . أى : فقولوا أيها المؤمنون للمشركين سيحوا في الأرض أربعة أشهر .

ويجوز أن يكون الخطاب للمشركين أنفسهم على طريقة الالتفات من الغيبة إلى الحضور ، لقصد تهية خطابهم بالوعيد المذكور بعد ذلك في قوله - سبحانه - : « واعلموا أنكم غير معجزي الله » .

والمقصود بالأمر في قوله : « فسيحوا » ، الإباحة والإعلام بمحصول الأمان لهم في تلك المدة من أن يقتلوا أو يقاتلوا أو يعتدى عليهم . . .

والمعنى : قولوا أيها المسلمون للمشركين - بعد هذه البراءة منهم - ، سيحوا في الأرض ، أى : سيروا فيها مقبلين ومدبرين حيث شئتم وأنتم آمنون في هذه المدة .

وفي التعبير بقوله « فسيحوا » ، من الدلالة على كمال التوسعة ، ما ليس في قوله « سيروا » ، أو ما يشبهه ، لأن لفظ السياحة يدل على الاتساع في السير والبعد عن المدن ، وعن موضع العمار .

والحكمة في إعطائهم هذه المدة تمكينهم من النظر والتدبر في أمر أنفسهم حتى يختاروا ما فيه مصالحهم ، ويعلموا أنهم ليس أمامهم بعد هذه المدة إلا الإسلام أو السيف ، ولكي لا ينسب إلى المسلمين الغدر ونقض العهد دون إعلام أو إنذار .

الجزء العاشر

وهذا من سمو تعاليم الإسلام . تلك التعاليم التي لم تبغ لأتباعها أن يأخذوا أعدى أعدائهم على غرة ، بل منحت هؤلاء الأعداء مهلة كافية يدبرون فيها أمر أنفسهم وهم آمنون من أن يتعرض لهم أحد من المسلمين بأذى .

ومتى كان ذلك ؟ كان ذلك في الوقت الذي نقض فيه المشركون عهودهم عند أول بادرة لاحت لهم ، وفي الوقت الذي أرجف فيه المرجفون أن المسلمين لن يعودوا من تبوك سالمين ، بل إن الروم سيأخذونهم أسرى ، وفي الوقت الذي كانت المجتمعات فيه يغزو بعضها بعضا بدون إنذار أو إعلام ...

فإن قيل : وما الحكمة في تقدير هذه المهلة بأربعة أشهر ؟

فالجواب - كما يقول الجمل - اقتصر على الأربعة - هنا - لقوة المسلمين إذ ذاك ، بخلاف صلح الحديبية فإنه كان لمدة عشر سنين لضعف المسلمين إذ ذاك . والحاصل أن المقرر في الفروع أنه إذا كان بالمسلمين ضعف جاز عقد الهدنة عشر سنين فأقل ، وإذا لم يكن بهم ضعف لم تجز الزيادة على أربعة أشهر ، (١) .

وقال بعض العلماء : ولعل الحكمة في تقدير تلك المدة بأربعة أشهر ، أنها هي المدة التي كانت تكفي - إذ ذاك بحسب ما يالفون - لتحقيق ما أبيع لهم من السباحة في الأرض ، والتقلب في شبه الجزيرة على وجه يمكنهم من التشاور والأخذ والرد مع كل من يريدون أخذ رأيه في تكوين الرأي الأخير . وفيه فوق ذلك مساهمة للوضع الإلهي في جعل الأشهر الحرم من شهور السنة أربعة .

على أنا نجد في القرآن جعل الأربعة الأشهر أمدا في غير هذا فعدة إيلاء الرجل من زوجه أربعة أشهر - وعدة المتوفى عنها زوجها أربعة أشهر .

ولعل ذلك - وراء ما يعلم الله - أنها المدة التي تكفي بحسب طبيعة

(١) حاشية الجمل على الجلايين ج ٢ ص ٢٦٣ . طبعة عيسى الحلبي .

تفسير سورة التوبة

الإنسان لتقليب وجوه النظر فيما يحتاج إلى النظر ، وتبدل الأحوال على وجه تستقر فيه إلى ما يقصد فيه .

ويؤخذ من تقرير الهدنة للأعداء في هذا المقام تقرر مبدأ الهدنة والصلح في الإسلام ، طلبها العدو أم تقدم بها المسلمون . وأصل ذلك مع هدنة المشركين هذه قوله - تعالى - في سورة الأنفال . « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله ، وأن مدتها تكون على حسب ما يرى الإمام وأرباب الشورى المقررة في قوله - تعالى - « وشاورهم في الأمر ، » (١) .

وقد اختلف المفسرون في ابتداء هذه الأشهر الأربعة فقال مجاهد والسدي وغيرهما : كان ابتداء هذه الأشهر الأربعة يوم الحج الأكبر من السنة التاسعة ونهايتها في العاشر من شهر ربيع الآخر من السنة العاشرة ، وذلك لأن المشركين قد أعلموا بهذه المهلة يوم النحر من السنة التاسعة على لسان علي بن أبي طالب - كما سبق أن بينا - .

وقيل كان ابتداء هذه الأشهر الأربعة يوم النحر لعشر من ذى القعدة من السنة التاسعة ونهايتها في اليوم العاشر من شهر ربيع الأول من السنة العاشرة ، وذلك لأن الحج في تلك السنة كان في ذلك الوقت بسبب النسيء الذي ابتدعه المشركون .

والرأى الأول أرجح وعليه الأكثرون ، لأن معظم الآثار تؤيده . وكذلك اختلف المفسرون اختلافاً كبيراً فيمن تنطبق عليهم هذه المهلة ، فقال مجاهد : هذا تأجيل للمشركين مطلقاً ، فمن كانت مدة عهده أقل من أربعة أشهر رفع إليها ، ومن كانت أكثر حط إليها ، ومن كان عهده بغير أجل حد بها .

(١) تفسير القرآن الكريم ج ٦ ٦ لفضيلة الإمام الأكبر الشيخ

محمد شلتوت . طبعة دار القلم . الطبعة الرابعة سنة ١٩٦٦

الجزء العاشر

ثم هو بعد ذلك حرب لله ولرسوله ، يقتل حيث أدرك . ويؤسر ، إلا أن يتوب ويؤمن (١) .

وقال آخرون : كانت هذه الأربعة الأشهر مهلة لمن له عهد دون الأربعة الأشهر ، فأما من كان له عهد مؤقت فأجله إلى مدته مهما كانت هذه المدة لقوله - تعالى - بعد ذلك : « فآتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم » .

وهذا القول قد اختاره ابن جرير وغيره ، فقد قال ابن جرير - بعد أن ذكر عدة أقوال في ذلك :

« وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال : الأجل الذي جعله الله إنما هو لأهل العهد الذين ظاهروا على رسول الله - ﷺ - ونقضوا عهدهم قبل انقضاء مدته ، فأما الذين لم ينقضوا عهدهم ، ولم يظاهروا عليه ، فإن الله - تعالى - أمر نبيه - ﷺ - بإتمام العهد بينه وبينهم إلى مدته بقوله : « إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقضوكم شيئاً ولم يظاهروا عليكم أحداً فآتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين » . ثم قال : وبعد ففي الأخبار المتظاهرة عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه حين بعث علياً ببراءة إلى أهل العمود بينه وبينهم أمره فيما أمره أن ينادى به فيهم « ومن كان بينه وبين رسول الله عهد فعنده إلى مدته » ، أوضح دليل على صحة ما قلنا .

وذلك أن الله لم يأمر نبيه - صلى الله عليه وسلم - بنقض عهد قوم كان عاهدتم إلى أجل ، فاستقاموا على عهدهم بترك نقضه ، وأنه إنما أجل أربعة أشهر من كان قد نقض عهده قبل التأجيل ، أو كان له عهد إلى أجل غير محدود ، فأما من كان أجل عهده محدوداً ، ولم يجعل بنقضه على نفسه سبيلاً ،

بخان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان بإنعام عهده إلى غاية أجله مأمورا،
وبذلك بعث مناديه في أهل الموسم من العرب . . . (١) .

والذى يبدو لنا بعد مراجعة الأقوال المتعددة في شأن من تنطبق عليهم هذه
المهلة من المشركين - أن ما اختاره ابن جرير هو خير الأقوال وأقواها،
لأن النصوص من الكتاب والسنة تؤيده ومن أراد معرفة هذه الأقوال
بالتفصيل فليراجع ما كتبه المفسرون في ذلك .

ثم بين - سبحانه - أن هذا الأمهال للمشركين لن ينجيهم من إنزال
العقوبة بهم متى استمروا على كفرهم فقال - تعالى - : واعلموا أنكم
غير معجزى الله ، وأن الله مخزى الكافرين .

أى : واعلموا - أيها المشركون - أنكم بسياحتكم في الأرض خلال
تلك المهلة لن تعجزوا الله - تعالى - فى طلبكم ، فأنتم جيشا كنتم تحت سلطانه
وقدرته ، وأعلموا كذلك أنه - سبحانه - مذل للكافرين ، فى الدنيا بالقتل
والأسر ، وفى الآخرة بالعذاب المهيّن .

فالآية الكريمة قد ذيلت بما يزلزل قلوب المشركين بالحقيقة الواقعة ، وهى أن
مذلك الإمهال لهم ، وتلك السياحة فى الأرض منهم ، كل هذا لن يجعلهم فى
مأمن من عقاب الله ، ومن إنزال الهزيمة بهم ، لأنهم فى قبضته .

ومها أعدوا خلال تلك المهلة من عدد وعدد لقتال المؤمنين ، فإن
ذلك لن ينفعهم ، لأن سنته - سبحانه - قد اقتضت أن يجعل النصر والفوز
للمؤمنين والمخزى والسوء على الكافرين .

قال الفخر الرازى ما ملخصه ، وقوله : **واعلموا أنكم غير معجزى الله** ،
المقصود منه : **أنى أمهلتكم - أيها المشركون - وأطلقت لكم السياحة**

(١) راجع تفسير ابن جرير ج ١٠ ص ٦٢ طبعة مصطفى الحلبي الطبعة

الثانية سنة ١٣٧٣

في الأرض - فافعلوا كل ما أمكنكم فعله من إعداد الآلات والأدوات ،
فإنكم لا تعجزون الله بل الله هو الذي يعجزكم ، لأنكم حيث كنتم فأنتم
في ملكه وتحت سلطانه . . . (١)

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك الموعد الذي تعلن فيه هذه البراءة من
المشركين ، حتى لا يكون لهم عذر بعد هذا الإعلان فقال - تعالى - :
« وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله بريء من
المشركين ورسوله . . . »

الأذان : الإعلان تقول : آذنته بالشئ إذا أعلمته به . ومنه الأذان للصلاة
أى الإعلام بحلول وقتها . وهو بمعنى الإيذان كما أن العطاء بمعنى الإعطاء .
قال الجمل : وهو مرفوع بالابتداء . و « من الله » إما صفته أو متعلق
به ، وه إلى الناس ، الخبر ويجوز أن يكون خبر المتبداً محذوف . أى : وهذه
أى : الآيات الآتى ذكرها إعلام من الله ورسوله . . . (٢)

والمعنى : وهذه الآيات إيذان وإعلان من الله ورسوله إلى الناس عامة
يوم الحج الأكبر بأن الله ورسوله قد برئا من عهود المشركين ، وأن هذه
العهود قد فبذت إليهم ، بسبب إصرارهم على شركهم ونقضهم لمواثيقهم .
وأسند - سبحانه - الأذان إلى الله ورسوله ، كما أسندت البراءة إليهما ،
إعلاء لشأنه وتأكيداً لأمره :

قال صاحب الكشف : فإن قلت : أى فرق بين معنى الجملة الأولى والثانية ؟
قلت : تلك إخبار بثبوت البراءة . وهذه إخبار بوجوب الإعلام بما ثبت .
فإن قلت : لم علمت البراءة بالذين عاهدوا من المشركين وعلق الأذان
بالناس ؟ قلت : لأن البراءة مختصة بالمعاهدين والناكثين منهم وأما الأذان

(١) تفسير الفخر الرازى ج ١٥ ص ٢٢٠

(٢) حاشية الجمل على الآية ٢ ص ٢٦٥

فقسام لجميع الناس من عاهد ومن لم يعاهد ، ومن تكث من المعاهدين ومن لم ينكث (١) .

واختير يوم الحج الأكبر لهذا الإعلام ، لأنه اليوم الذى يضم أكبر عدد من الناس يمكن أن يذاع الخبر عن طريقهم فى جميع أنحاء البلاد . وأصح ما قيل فى يوم الحج الأكبر أنه يوم النحر . وقيل : هو يوم عرفة . وقيل : هو جميع أيام الحج .

وقدر حج ابن جرير - بعد أن بسط الأقوال فى ذلك - أن المراد بيوم الحج الأكبر : يوم النحر فقال . وأولى الأقوال فى ذلك بالصحة عندنا : قول من قال : « يوم الحج الأكبر ، يوم النحر ، لتظاهر الأخبار عن جماعة من الصحابة أن علياً نادى بما أرسله به رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى المشركين يوم النحر . هذا مع الأخبار التى ذكرناها عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال يوم النحر : « أتدرون أى يوم هذا ؟ هذا يوم الحج الأكبر (٢) » . وقال بعض العلماء : قال ابن القيم : والصواب أن المراد بيوم الحج الأكبر يوم النحر ، لأنه ثبت فى الصحيحين أن أبا بكر وعلياً أذنا بذلك يوم النحر لا يوم عرفة . وفى سنن أبى داود بأصح إسناد أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : يوم الحج الأكبر يوم النحر . وكذا قال أبو هريرة وجماعة من الصحابة .

ويوم عرفة مقدمة ليوم النحر بين يديه ، فإن فيه يكون الوقوف والتضرع ثم يوم النحر تكون الوفادة والزيارة .. ويكون فيه ذبح القرابين ، وحلق الرؤوس ، ورمى الجمار ، ومعظم أفعال الحج (٣) .

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٢٤٤ .

(٢) راجع تفسير ابن جرير ج ١٠ من ص ٦٧ إلى ص ٧٦ .

(٣) تفسير القاسمى - بتصرف يسير - ج ٨ ص ٢٠٦٨ . طبعة عيسى الحلبي

الطبعة الأولى سنة ١٣٧٧ هـ - سنة ١٩٥٨ م .

وقد ساق ابن كثير جملة من الأحاديث التي حكى ما كان ينادى به على بن أبي طالب في الناس يوم الحج الأكبر ومن ذلك ما أخرجه الإمام أحمد عن محرز بن أبي هريرة عن أبيه قال : كنت مع علي بن أبي طالب حين بعثه النبي ﷺ - ينادى . فمكنا إذا صحل ناديت - أي كان إذا بح صوتة وتعب من كثرة النداء ناديت - قلت : بأي شيء كنتم تتنادون ؟ قال : بأربع : لا يطوف بالبيت عريان ، ولا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة ، ولا يحج بعد عامنا هذا مشرك ، ومن كان له عهد عند رسول الله ﷺ - فعهده إلى مدته (١) .

وسمى يوم النحر بالحج الأكبر ، لأن العمرة كانت تسمى بالحج الأصغر . ولأن ما يفعل فيه معظم أفعال الحج - كما قال ابن القيم - .

هذا ، وللعلماء أقوال في إعراب لفظ « ورسوله » من قوله - تعالى - « أن الله يرى » من المشركين ورسوله . وقد لخص الشيخ الجمل هذه الأقوال تلخيصاً حسناً فقال : قوله « ورسوله » بالرفع باتفاق السبعة . وقرئ شاذاً بالجر على المجاورة . أو على أن الواو للقسمة . وقرئ شاذاً أيضاً بالنصب على أنه مفعول معه ، أو معطوف على لفظ الجلالة . وفي الرفع ثلاثة وجوه : أحدها أنه مبتدأ والخبر محذوف أي : ورسوله يرى منهم ، وإنما حذف للدلالة عليه . والثاني أنه معطوف على الضمير المستتر في الخبر والثالث : أنه معطوف على محل اسم إن (٢)

ثم أردف - سبحانه - هذا الإعلام بالبراءة من عبود المشركين بترغيبهم في الإيمان وتحذيرهم من الكفر والعصيان فقال : « فإن تبتم فهو خير لكم ، وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزي الله ، وبشر الذين كفروا بعذاب أليم . »

(١) راجع تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٣٣٣ .

(٢) حاشية الجمل على الجلالين ج ٢ ص ٢٦٤ .

أى : فإن تبتم أيها المشركون من كفركم ، ورجعتم إلى الإيمان بالله وحده ،
واتبعتم ما جاءكم به محمد — صلى الله عليه وسلم — فهو أى المناب والرجوع
إلى الحق ، خير لكم ، من النجاسى فى الكفر والضلال ؛ « وإن توليتم ،
وأعرضتم عن الإيمان ، وأبيتتم إلا الإقامة على باطلكم ، فاعلموا أنكم غير
معجزى الله ، أى : فأيقنوا أنكم لا مهرب لكم من عقاب الله ، ولا إفلات
لكم من أخفه وبطشه ، لأنكم أينما كنتم فأنتم فى قبضته وتحت قدرته .

وقوله : « وبشر الذين كفروا بعذاب أليم ، » تذييل قصد به تأكيد
زجرهم عن التولى والإعراض عن الحق .

أى ، وبشر — يا محمد — هؤلاء الذين كفروا بالحق لما جاءهم بالعذاب
الآليم فى الآخرة بعد إزال الخزي والمذلة بهم فى الدنيا .

ولفظ البشارة ورد هنا على سبيل الاستهزاء بهم ، كما يقال : تحيتهم
الضرب ، وإكرامهم الشتم :

وقوله . تعالى . بعد ذلك : « إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم
شيئاً ولم يظاهروا عليكم أحداً » فأنتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم . . .
استثناء من المشركين فى قوله : « براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم
من المشركين » .

والمعنى : أعلموا . أيها المؤمنون أن الله ورسوله بريشان من عهود
المشركين بسبب نقضهم لها ، لكن الذين عاهدتموهم منهم ولم ينقضوا عهودهم ،
ولم ينقصوكم شيئاً من شروط العهد ، ولم يعاونوا عليكم أحد من الأعداء ،
فهؤلاء أتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم ولا تعاملوهم معاملة الناكثين .

فالآية الكريمة تدل على أن المراد بالمشركين الذين تبرأ الله ورسوله
منهم وأعطوا مهلة الأربعة الأشهر ، هم أولئك الذين عرفوا بنقض العهود .

أما الذين عاهدوا ووفوا بعهودهم ، فإن هؤلاء يجب إتمام عهدهم إلى مدتهم وفاء بوفاء ، وكرامة بكرامة .

وعبر - سبحانه - يثم في قوله : ثم لم ينقصوكم شيئا ، للدلالة على ثباتهم على عهدهم مع تمامي المدة وتجاوزها .

وقراءة الجمهور « ينقصوكم » ، بالصاد المهملة ، وعليها يجوز أن يتعدي لواحد فيكون شيئا منصوبا على المصدرية أي : لم ينقصوكم شيئا من النقصان لا قليلا ولا كثيرا . ويجوز أن يتعدي لاثنتين فيكون شيئا مفعوله الثاني . إي : لم ينقصوكم شيئا من شروط العهد بل أدوها بنهايتها .

وقرأ عطاء بن السائب السكوفى وعكرمة وأبو زيد « ثم لم ينقصوكم » بالضاد المعجمة وهى على حذف مضاف أى : ثم لم ينقصوا عهدهم فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه .

وفى تنكير كلمة « شيئا » ، وكلمة « أحدا » ، دلالة على أن انتقاص المعاهدة ولو شيئا يسيرا ، وأن معاونة الأعداء بأى وسيلة مهما قلت . . . كل ذلك مبيح لنقض العهد ، لأن الخيانة الصغيرة كثيرا ما تؤدي إلى الخيانة الكبيرة . قالوا : والمراد هؤلاء الذين أمر المسلمون بإتمام عهدهم معهم : بنو ضمرة وبنو مدلج وهم من قبائل بنى بكر وكان قد بقى من عهدهم تسعة أشهر ، ولم ينقصوا مواعيثهم .

وقوله « إن الله يحب المتقين » ، تذييل قصد به التعليل لجوب الامتثال ، والتنبية على أن الوفاء بالعهد إلى نهايته مع الموفين بعهدهم من تقوى الله التى يحبها لعباده ويحبهم بسببها .

قال صاحب المنار : والآية تدل على أن الوفاء بالعهد من فرائض الإسلام ما دام العهد معقودا ، وعلى أن العهد المؤقت لا يجوز نقضه إلا بانتهام وقته وأن شرط وجوب الوفاء به علينا محافظة العدو المعاهد لنا عليه بخذافيره .

فإن نقص شيئاً مامن شروط العهد ، وأخل بغرض ما من إغراضه عد
نلقضاً ، لقوله تعالى - ثم لم ينقصوكم شيئاً ، ولفظ شيء أعم الألفاظ
وهو فكرة في سياق النفي فيصدق بأدنى إخلال بالعهد .

ومن الضروري أن من شروطه التي ينتقض بالإخلال بها ، عدم مظاهره
أحد من أعدائنا وخصومنا علينا ، وقد صرح بهذا للاهتمام به ، وإلا فهو
يدخل في عموم ما قبله . وذلك أن الغرض الأول من المعاهدات ترك قتال كل
من الفريقين المتعاهدين الآخر ، فمظاهره أحدهما لعدو الآخر ، أى معاونته
ومساعدته على قتاله وما يتعلق به ، كمباشرته للقتال بنفسه .

يقال : ظاهره إذا عاونه . وظاهره عليه إذا ساعده عليه ، وتظاهروا
عليهم تعاونا وكله من الظن الذى يعبر به عن القوة ، ومنه يعبر ظهير أى
قوى . (١) ،

وقال بعض العلماء : ويؤخذ من هذا أن الإسلام يقرر في حالة نبذ العهود
لزوم إعلان العدو بذلك النبذ ، على وجه يمكن العدو من إيصال خبر النبذ
إلى أطراف بلده وأنحاء مملكته .

وفي ذلك يقول السكال بن الهمام الفقيه الحنفى ، وهو بصدد قوله .
تعالى . وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء : « أنه لا يمكن
مجرد إعلانهم ، بل لابد من مضى مدة يتمكن فيها ملكهم بعد علمه بالنبذ
من إنفاذ الخبر إلى أطراف مملكته ، ولا يجوز للمسلمين أن يغيروا على
شيء من أطرافهم قبل مضى تلك المدة .

وذلك كله أثر من آثار وجوب رعاية العهد ، والبعد عن النكث بكل
ما استطاع (٢) .

(١) تفسير المنار ج ١٠ ص ١٨٤ .

(٢) تفسير القرآن الكريم ج ٦١٨ لفضيلة الإمام الأكبر الشيخ

وبعد أن قررت السورة الكريمة برامة الله ورسوله من عهود المشركين الخائنين ، وأمرت بالوفاء لمن وفى بعهده منهم . . بعد كل ذلك أخذت في بيان كيفية معاملة المشركين بعد انتهاء المهلة الممنوحة لهم فقال . تعالى :

فَإِذَا أَنْسَلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرْمَ فَأَقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوا حَصْرَهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥﴾

وقوله : د أنسلخ ، من السلخ بمعنى الكشط . يقال : سلخ الإهاب عن الشاة يسلخه ويسلخه سلخاً إذا كشطه ونزعه عنها . أو بمعنى الإخراج من قولهم : سلخت الشاة عن الإهاب إذا أخرجتها منه . تم استعير للإيقضاء والإنتهاء فأنسلخ الأشهر استعارة لانقضاءها والخروج منها .

قال الألوسي : والإفساخ فيما نحن فيه استعارة حسنة ، وذلك أن الزمان محيط بما فيه من الزمانيات مشتمل عليه اشتمال الجلد على الحيوان ، وكذا كل جزء من أجزائه الممتدة كالأيام والشهور والسنين ، فإذا مضى فكأنه أنسلخ عما فيه ، وفي ذلك مزيد لطف لما فيه من التلويح بأن تلك الأشهر كانت حرزاً لأولئك المعاهدين عن غوائل أيدي المسلمين فنيطقتا بهم بزوالها ، (١) والمراد بالأشهر الحرم : أشهر الأمان الأربعة التي سبق ذكرها في قوله . تعالى . . فسيحوا في الأرض أربعة أشهر ، ، وعليه فتكون ال في قوله د الأشهر الحرم ، للعهد الذكري .

وسميت حرماً لأنه . سبحانه . جعلها فترة أمان للمشركين ، ونهى المؤمنين عن التعرض لهم فيها .

(١) تفسير الألوسي ج ١٠ ص ٤٤ . طبعة منير الدمشقي .

ووضع - سبحانه - المظهر موضع المضر حيث لم يقل فإذا انسلخت،
ليكون ذريعة إلى وصفها بالحرمة ، تأكيداً لما ينبي عنه إباحة السياحة
من حرمة التعرض لهم ، مع ما فيه من مزيد الاعتناء بشأها .
وقيل المراد بالأشهر الحرم هنا : الأشهر المعروفة وهي رجب ،
وذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم . روى ذلك عن ابن عباس والضحاك
والباقر واختاره ابن جرير .

قال ابن كثير : وفيه نظر ، والذي يظهر من حيث السياق ما ذهب إليه
ابن عباس في رواية العوفي عنه . وبه قال مجاهد ، وعمر بن شعيب ، وابن
اسحاق ، وقتادة والسدي وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم أن المراد بها أشهر
التيسير الأربعة المنصوص عليها بقوله : فسيحوا في الأرض أربعة أشهر .
ثم قال : فإذا انسلخ الأشهر الحرم ، أي : إذا انقضت الأشهر الأربعة التي
حرمنا عليكم فيها قتالهم ، وأجلناهم فيها فحيثما وجدتموهم فاقتلوهم ، لأن عود
العهد على مذكور أولى من مقدر . ثم أن الأشهر الأربعة المحرمة سيأتي بيان
حكمها في آية أخرى وهي قوله - تعالى - : إن عدة الشهور عند الله اثنا
عشر شهراً ... (١) .

والمراد بالمشركين في قوله : فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ، أولئك
الخائنون الذين انتهت مدة الأمان لهم ، أما الذين لم يخونوا ولهم عهود مؤقته
بمدة معينة فلا يحل للمسلمين قتالهم ، إلا بعد انتهاء هذه المدة ، كما سبق أن بينا
قبل قليل تفسير قوله - تعالى - : إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم
شيئاً ولم يظاهروا عليكم أحداً فاتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم

والمعنى : فإذا انتهت هذه الأشهر الأربعة التي جعلها الله مهلة للخائنين ،
فاقتلوا - أيها المؤمنون - أعداءكم المشركين ، حيث وجدتموهم ، أي : في أي
مكان تجدوهم فيه ، وخذوهم ، وهو كناية عن الأسر ، وكانت العرب تعبر

عن الاسير بالاختيار . واحصروهم ، أى : وامنعوهم من الخروج إذا كانت مصلحتكم في ذلك . واقعدوا لهم كل مرصد ، والمرصد للموضع الذى يقعد فيه للعدو لمراقبته . يقال : رصدت الشيء أرصده رصدا ورصدا إذا ترقبته .

والمعنى : واقعدوا لهم فى كل موضع يحتازون منه فى أسفارهم ، حتى تسد السبل فى وجوههم ، وتضعف شوكتهم ، وتذهب ريحهم ، فيستسلموا لكم .

والمندبر هذه الآية الكريمة يرى أن هذه الوسائل الأربع - القتل والأسر والمحصرة والمراقبة - هى الوسائل الكفيلة بالقضاء على الأعداء ، ولا يخلو عصر من العصور من استعمال بعضها أو كلها عند الحاجة .

وهكذا يرى تعاليم الإسلام تحض المسلمين على استعمال كل الوسائل المشروعة لكيد أعدائهم ، والعمل على هزيمتهم . . . مادام هؤلاء الأعداء مستمرين فى طغيانهم وعدوانهم وافتهاكهم لحدود الله - تعالى - .
أما إذا فتحوا قلوبهم للحق واستجابوا له ، فإن الآية الكريمة ترفع عنهم السيف ، وتأمّر المؤمنين بإخلاء سبيلهم .

استمع إلى بقيتها حيث تقول : « فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم ، إن الله غفور رحيم » .

أى : عليكم - أيها المؤمنون - إذا ما أنتهت أشهر الأمان الأربعة أن تقتلوا المشركين الناكثين لعهودهم أينما وجدتموهم وأن تأمروهم وتحبسوهم وتراقبوهم على كل طريق حتى تضعف شوكتهم فينقادوا لكم . . . « فإن تابوا ، عن الشرك بأن دخلوا فى الإسلام فاتركوا التعرض لهم ، وكفوا عن قتالهم ، وافتحوا المسالك والطرق فى وجوههم » .

واكتفى - سبحانه - بذكر الصلاة والزكاة عن ذكر بقية العبادات ، لكونهما الأساسين للعبادات البدنية والمالية .

تفسير سورة التوبة

وقوله : « إن الله غفور رحيم » ، تذييل قصد به التعليل لوجوب إخلاء سبيلهم أى . إن فعلوا ذلك فخلوا سبيلهم . ولا تعاملوهم بما كان منهم من شرك ، فإن الإسلام يجب ما قبله ، وإن الله قد غفر لهم ما سلف من الكفر والغدر بفضلته ورحمته .

قال الإمام ابن كثير : وقد اعتمد الصديق — رضى الله عنه — فى قتال ما نعى الزكاة على هذه الآية وأمثالها ، حيث حرمت قتالهم بشرط هذه الأفعال وهى الدخول فى الإسلام والقيام بأداء واجباته . ونبه بأعلاها على أدائها فإن أشرف أركان الإسلام بعد الشهادتين الصلاة التى هى حق الله — تعالى — وبعدها الزكاة التى هى نفع متعدد إلى الفقراء . وهى أشرف الأفعال المتعلقة بالمخلوقين ، ولهذا كثيرا ما يقرن الله الصلاة والزكاة .

وقد جاء فى الصحيحين عن ابن عمر عن رسول الله ﷺ قال : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة » .

وروى الإمام أحمد عن أنس أن رسول الله — ﷺ — قال : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله ، فإذا شهدوا واستقبلوا قبلتنا وأكلوا ذبيحتنا ، وصلوا صلاتنا فقد حرمت علينا دماءهم وأموالهم إلا بحقها » ، لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم ، ورواه البخارى وغيره .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : أبى الله أن يقبل الصلاة إلا بالزكاة ثم قال : يرحم الله أبا بكر ما كان أفقهه ^(١) .

وبذلك نرى هذه الآية قد جمعت فى إرشادها بين الترغيب والترهيب ، فقد أمرت المؤمنين بأن يستعملوا مع أعدائهم كل الوسائل المشروعة لإرهابهم

(١) تفسير ابن ج كثير ٣٢٥ . بتصرف وتلخيص

(٤ - سورة التوبة)

الجزء العاشر

ثم أمرتهم في الوقت نفسه بإخلاء سبيلهم متى تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة . . .

وبعد أن بين - سبحانه - حكم المصرين على الشرك وهو قتالهم وأخذهم . وحكم الراجعين عنه وهو إخلاء سبيلهم بعد ذلك بين - سبحانه - حكم المشركين الذين يطلبون الأمان لمعرفة شرائع الإسلام فقال . تعالى :

وَأَنَّ أَحَدًا مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجْرُهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ
ثُمَّ أَبْلِغَهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠﴾

وقوله : استجارك . أى . طلب جوارك وحمايتك من الاعتداء عليه . وقد كان من الأخلاق الحميدة المتعارف عليها حماية الجار والدفاع عنه ، حتى سمي النصير جاراً ، وعلى هذا المعنى جاء قوله . تعالى . : « وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم ^(١) » أى : نصير لكم .

و « إن ، شرطيه و « أحد ، مرفوع بفعل مضمر يفسره الفعل الظاهر وهو « استجارك والمعنى : وإن استأمنك - يا محمد - أحد من المشركين ، وطلب جوارك وحمايتك بعد انقضاء مدة الأمان المحددة له ، « فأجره ، أى : فأمنه وأجبه إلى طلبه ، « حتى يسمع كلام الله ، أى : لكي يسمع كلام الله ويتدبره ويطلع على حقيقة ما تدعو إليه من تعاليم مقنعة العقول السليمة بأن الشرك ظلم عظيم . .

واقصر على ذكر السماع لعدم الحاجة إلى شيء آخر في الفهم ، لأنهم من أهل الفصاحة والبلاغة ، وقد كان سماع بعضهم شيء من كلام الله سبيله في هدايته . .

تفسير سورة التوبة

وقوله : « ثم أبلغه مأمنه » بيان لما يجب على المسلمين نحو هذا المشرك المستجير إذا ما أستمع إلى كلام الله ثم بقى على شركه .

أى : عليك - يا محمد - أن تجيره حتى يسمع كلام الله ويتدبره ولا يبقى له عذر فى الاصرار على شركه ، فان آمن بعد سماعه صار من أتباعك ، وإن بقى على شركه وأراد الرجوع إلى جماعته ، فعليك أن تحافظ عليه حتى يصل إلى مكان أمنه واستقراره ، وهو ديار قومه : ثم بعد ذلك يصبح حكمه كحكم المصرين على الشرك ، ويعامل بما يعاملون به .

واسم الإشارة فى قوله : « ذلك بأنهم قوم لا يعلمون » يعود إلى الأمر بالاجارة وإبلاغ المأمن .

أى : ذلك الذى أمرناك به من إجارة المستجير من المشركين وإبلاغه مأمنه إذا لم يسلم ، بسبب أنهم قوم لا يعلمون الإسلام ولا حقيقة ما تدعوهم إليه أى قوم يحتاجون إلى فترة من الوقت يسمعون كلام الله فيها وهم آمنون ، وبهذا السماع منك ومن أصحابك لا يبقى لهم عذر أصلا فى استمرارهم على الباطل عن سعيد بن جبير قال : جاء رجل من المشركين إلى على بن أبى طالب فقال : إن أراد الرجل منا أن يأتى إلى محمد - ﷺ بعد انقضاء هذا الأجل لسماع كلام الله أو لحاجة قتل ؟ فقال له على : لا ، لأن الله يقول : « وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله . الآية (١) » .

هذا ، ومن الأحكام والآداب التى أخذها العلماء من الآية ما يأتى :

أن المستأمن لا يؤذى ، بل يجب على المسلمين حمايته فى نفسه وماله وعرضه مادام فى دار الاسلام . وقد حذر الاسلام أتباعه من الغدر أشد تحذير ، ومن ذلك ما رواه البخارى والنسائى عن النبى ﷺ أنه قال : « من أمن رجلا على دمه فقتله فأنا برىء من القاتل وإن كان المقتول كافرا .

الجزء العاشر

وروى الشيخان وأحمد عن أنس قال : قال رسول الله - ﷺ (لكل غادر لواء يعرف به يوم القيامة (١)) .

٢ - يلحق بالمستجير الطالب لسمع كلام الله من كان طالبا لسمع الأدلة على كون الإسلام حقا ، ومن كان طالبا للجراب عن الشبهات التي أثارها أعداء الإسلام ، لأن هؤلاء وأمثالهم يترقون باب الفهم والمعرفة ويبحثون عن الحق فعلى أن نحميهم ، وأن نبذل أقصى الجهود في تعليمهم وإرشادهم وإزالة الشبهات عنهم ، لعل الله أن يشرح صدورهم للإسلام بسبب هذا التعليم والإرشاد . قال ابن كثير : كان رسول الله - ﷺ - يعطي الأمان لمن جاءه مسترشدا أو في رسالة ، كما جاءه يوم الحديبية جماعة من الرسل من قريش منهم عروة بن مسعود ، ومكرز بن حفص ، وسهيل بن عمرو وغيرهم واحدا بعد واحد ، يترددون في القضية بينه وبين المشركين ، فرأوا من أعظام المسلمين لرسولهم - صلى الله عليه وسلم - ما بهرهم وما لم يشاهدوه عند ملك ولا قيصر ، فرجعوا إلى قومهم ، وأخبروهم بذلك ، وكان ذلك وأمثاله من أكبر أسباب هداية أكثرهم (٢) .

٣ - على الإمام أو من يقوم مقامه أن يعطي المستأمن المهلة التي يراها كافية لفهمه حقائق الإسلام وأن يبلغه مأمنه بعد انقضاء حاجته ، وأن لا يمكنه من الإقامة في دار الإسلام إلا بمقدار قضاء حاجته . قال الامام الرازي : : ليس في الآية ما يدل على أن مقدار هذه المهلة كم يكون ، ولعله لا يعرف مقدارها إلا بالعرف ، فمتى ظهر على المشرك علامات كونه طالبا للحق باحثا عن وجه الاستدلال أهمل وترك . ومتى ظهر عليه كونه معرضا عن الحق دافعا للزمان بالألأ كاذب لم يلتفت إليه (٣) .

(١) تفسير القاسمي ج ١٠ ص ٣٠٧٧

(٢) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٢٢٧

(٣) تفسير المنخر الرازي ج ١٥ ص ٢٢٧

تفسير سورة التوبة

٤ — أخذ العلماء من هذه الآية وجوب التفقه في الدين، وعدم الاكتفاء بالظنون والتقليد للغير ، وقد وضع الإمام الرازي هذا المعنى فقال :
« دلت الآية على أن التقليد غير كاف في الدين ، وأنه لا بد من النظر والاستدلال ؛ وذلك لأنه لو كان التقليد كافياً ، لوجب أن لا يهمل هذا الكافر ، بل يقال له : إما أن تؤمن وإما أن تقتلك . فلما لم يقل له ذلك - بل أمهل وأزبل الخوف عنه ووجب تبليغه مأمنه - علم أن ذلك لأجل عدم كفاية التقليد في الدين ، وأنه لا بد من الحجة والدليل : فلذا أمهل ليحل له النظر والاستدلال ، (١) .

٥ - تكلم العلماء عمن له حق إعطاء الأمان للمستأمن . فقال القرطبي :
« ولا خلاف بين كافة العلماء أن أمان السلطان جائز ؛ لأنه مقدم النظر والمصلحة . نائب عن الجميع في جلب المصالح ودفع المضار . واختلفوا في أمان غير الخليفة ؛ فالحر يعضي أمانه عند كافة العلماء . وأما العبد فله الأمان في مشهور مذهب المالكية وبه قال الشافعي وأحمد .
وقال أبو حنيفة : لا أمان له . والاول أصح لقوله صلى الله عليه وسلم .
« المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم » .
قالوا : فلما قال « أدناهم » ، جاز أمان العبد . . . (٢) .

وقال بعض العلماء : هذه الآية كانت أصلاً عند الفقهاء في إباحة تأمين المشرك ، وقد توسع الإسلام في باب الأمان فقرره به عصمة المستأمن ، وأوجب على المسلمين حمايته مادام في دار الإسلام ، وجعل للمسلمين حق إعطاء ذلك الأمان ، ولم يشترط في ذلك إلا ما يضمن على المسلمين سلامتهم ؛ بأن لا تظهر على المستأمن مظاهر الركون إلى التجسس على المسلمين .

(١) تفسير الفخر الرازي ج ١٥ ص ٢٢٧

(٢) تفسير القرطبي ج ٨ ص ٨٦

الجزء العاشر

ولا ينسب الإسلام - وهو يعطى هذا الحق للأفراد - حق الإمام المهيمن على شئون المسلمين ، بل جعل له بمقتضى هيمنته العامة ، وتقديره لوجوه المصلحة ، حق إبطال أى أمان لم يصادف محله ، أو لم يستوف شروطه ، كما له أن ينتزع ذلك الحق من الأفراد متى رأى المصلحة فى ذلك .

والإسلام يبيح بهذا الأمان التبادل التجارى والصناعى والثقافى ، وفى سائر الشؤون ما لم يتصل شئ منها بضرر الدولة . (١)

٦ - هذه الآية الكريمة تشهد بسمو تعاليم الاسلام وسماحتها وحرصها على هداية الناس إلى الحق ، وعلى صيانة دمايتهم وأموالهم وأعراضهم من العدوان عليها . . . حتى ولو كان هؤلاء الناس من أعداء الإسلام . وقد بسط هذا المعنى بعض العلماء فقال ما ملخصه : إن هذه الآية تعنى أن الإسلام حريص على كل قلب بشرى أن يهتدى وأن يشوب ، وأن المشركين الذين يطلبون الجوار والأمان فى دار الإسلام يجب أن يعطوا الجوار والأمان ذلك أنه فى هذه الحالة آمن حريمهم وتجمعهم وتآلبهم عليه ، فلا ضير إذن من إعطائهم فرصة سماع القرآن ومعرفة هذا الدين ، لعل قلوبهم أن تنفتح وتستجيب وحتى إذا لم تستجب فقد أوجب الله لهم على أهل دار الإسلام أن يحرسوهم بعد إخراجهم حتى يصلوا إلى بلد يأمنون فيه على أنفسهم . ولقد كانت قمة عالية تلك الإجارة والأمان لهم فى دار الإسلام . . . ولكن قمة القمم هذه الحراسة للمشرك - عدو الإسلام والمسلمين - حتى يبلغ مأمنه خارج حدود دار الإسلام . . .

إنه منهج الهداية لا منهج الإبادة ، حتى وهو يتصدى لتأمين قاعدة الاسلام .

إن هذا الدين إعلام لمن لا يعلمون ، وإجارة لمن يستجيرون ، حتى من أعدائه الذين شهروا عليه السيف وحراروه وعاندوه . . . (٢)

(١) تفسير القرآن الكريم ج ٦٢٢ لفضيلة الإمام الاكبر الشيخ محمود شلتوت .

(٢) راجع تفسير (فى ظلال القرآن) ج ١ ص ١٤٢ للاستاذ سيد قطب .

وبعد أن صرحت السورة الكريمة ببراءة الله ورسوله من عبود المشركين
الخالئين ، وأمرت المؤمنين بإعطائهم مهلة يسبحون فيها في الأرض ، ويتدبرون
خلاصها أمرهم ، ثم بعد ذلك على المؤمنين أن يقتلوهم حيث وجنودهم ، وأن
يستعملوا معهم كل الوسائل المشروعة لإذلالهم ، وأن يؤمنوا المشرك الذي
يريد أن يسمع كلام الله ، وأن يحافظوا عليه حتى يصل إلى مكان استقراره .
بعد كل ذلك أخفت السورة الكريمة في بيان الأسباب التي أوجبت
البراءة من عبود المشركين ، والحكم التي من أجلها أمر الله بقتلهم والنضيق
عليهم فقال - تعالى - :

كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ
رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقْتُمُوا لَكُمْ
فَأَسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا
عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ
وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨﴾ أَشْتَرُوا بِعَايَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَنِ
سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا
وَلَا ذِمَّةً وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ
وَاتَّوْا الزَّكَاةَ فَلِإِخْوَانِكُمْ فِي الدِّينِ وَنَفْصَلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ
يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَكُنُوا فِي
دِينِكُمْ فَقَتِلُوا أُمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ ﴿١٢﴾

وقوله - سبحانه - : « كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله » .
الاستفهام فيه للإنكار والاستبعاد لأن يكون يكون للمشركين عهد . وهو
إنكار للوقوع لا للواقع . أى : تحذير للمؤمنين من أن يقع منهم ذلك في المستقبل .
والمراد بالمشركين أولئك الذين فقضوا عهودهم ؛ لأن البراءة إنما هي
في شأنهم .

والعهد : ما يتفق شخصان أو طائفتان من الناس على التزامه بينهما ، فإن
أكداه ووثقاه بما يقتضى زيادة العناية بالوفاء به سمي ميثاقا ؛ لا شتيقا . من
الوثاق - بفتح الواو - وهو الحبل أو القيد . وإن أكداه باليمين خاصة
سمى يمينا .

وسمى بذلك لوضع كل من المتعاقدين يمينه في يمين الآخر عند عقده .

والمعنى : لا ينبغي ولا يجوز أن يكون للمشركين عهد عند الله وعند
رسوله لأن هؤلاء المشركين لا يدينون لله بالعبودية ، ولا لرسوله بالطاعة ،
ولأنهم قوم دأبهم الخيانة . وعادتهم الغدر ، ومن كان كذلك لا يكون له
عهد عند الله ولا عند رسوله .

قالوا : وفي توجيه الإنكار إلى كيفية ثبوت العهد من المبالغة ما ليس
في توجيهه إلى ثبوته ، لأن كل موجود يجب أن يكون وجوده على حال من
الأحوال ؛ فإذا انتفت جميع أحوال وجوده ؛ فقد انتفى وجوده بالطريق
البرهاني . وتكرير كلمة « عند » للإيدان بعدم الاعتماد بعهودهم عند كل
من الله - تعالى - ورسوله - ﷺ - على حدة .

و « يكون » من الكون التام و « كيف » محلها النصب على التشبيه بالحال .

تفسير سورة التوبة

أو الظرف . أو من الـكون الناقص فيكون قوله « عهد ، اسمها ، وقوله «كيف ، خبرها وهو واجب التقديم ، لأن الاستفهام له صدر الكلام (١) .
وقوله : « إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام ، فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم . . ، استثناء من المشركين الذين استنكروا الآية أن تكون لهم عهد عند الله وعند رسوله .

والمراد بالشركين الذين استثنوا هنا : أولئك الذين سبق الحديث عنهم في قوله - تعالى - قبل ذلك « إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً ولم يظاهروا عليكم أحداً فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم . . .

وهم - كما رجحه ابن جرير والخازن - بنو خزيمه وبنو مداج وبنو ضمرة من قبائل بني بكر ، وكانوا قد وفوا بعهودهم مع المسلمين (٢) .
وأعيد ذكر استثنائهم هنا ، لتأكيد هذا الحكم وتقريره . . .

والمراد بالمسجد الحرام : جميع الحرم ، فيكون الكلام على حذف مضاف .

أى : عند قرب المسجد الحرام .

والتعرض لـكون المعاهدة عند المسجد الحرام ، لزيادة بيان أصحابها ، وللإشعار بسبب وجوب الوفاء بها .

والمعنى : لا ينبغي ولا يصح أن يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله ، أسكن الذين عاهدتموهم - أيها المؤمنون - عند المسجد الحرام من المشركين ولم ينقضوا عهودهم ، فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم . .

(١) تفسير الآلوسى . بتصرف وتلخيص . ج ١٠ ص ٤٩ .

(٢) راجع تفسير ابن جرير ج ١٠ ص ٨٢ - وحاشية الجمل على

الجلالين ج ٢ ص ٢٦٦ .

الجزء العاشر

أى : فاستقيموا لهم مدة استقامتهم لكم ، فتكون دما ، مصدرية منصوبة المحل على الظرفية .

وبصح أن تكون شرطية وعاندها محذوف فيكون المعنى : فأى زمان استقامرا لكم فيه فاستقيموا لهم ، إذ لا يجوز أن يكون نقض العهد من جهتك .

وقوله وإن الله يحب المتقين ، تذييل قصد به التعليل لوجوب الامتثال ، وتبيين أن الوفاء بالعهد إلى مدته مع الموفين بعهدهم من تقوى الله التى يحبها لعباده ، ويحبهم بسبب تمسكهم بها .

هذا ، وقد أخذ العلماء من هذه الآية : أن العهد المعتد به فى شريعة الإسلام ، هو عهد الأوفياء غير الناكثين ، وأن من استقام على عهده عاملناه بمقتضى استقامته ، وأن الالتزام بالعهود من تقوى الله التى يحبها لعباد .

وقوله - سبحانه - وكيف وإن يظهرنا عليكم لا يرقبوا فيكم إلا ولاذمة . . . ، لا استبعاد ثبات المشركين على العهد ، ولا استنكار أن يكون لهم عهد حقيق بالمراعاة ، وبيان لما يكون عليه أمرهم عند ظهورهم على المؤمنين .

وفائدة هذا التكرار للفظ وكيف ، : التأكيد والتعميد لتعداد الأسباب التى تدعو المؤمنين إلى مجاهدتهم والإغلاظ عليهم ، والحذر منهم .

قال الألوسى : وحذف الفعل - بعد كيف هنا لسكونه معلوما من الآية السابقة - والإيدان بأن النفس مستحضرة له ، مترقبة اورود ما بوجب استنكاره .

تفسير سورة التوبة

وقد كثر الحذف للفعل المستفهم عنه مع كيف ويدل عليه بجملة حالية
بعده . ومن ذلك قول كعب الغنوى يرثي أخاه أبا المغوار :

وخبر تمناني إنما الموت بالقري فكيف وهاتنا هضبة وقليب

يريد فكيف مات والحال ما ذكر .

والمراد هنا : كيف يكون لهم عهد معتد به عند الله وعند رسوله وحالهم
أنهم : إن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلا ولا ذمة ، (١) .

وقوله : « يظهروا عليكم ، يظفروا بكم وينلبوكم » . يقال : ظهرت على
فلان أى : غلبته ومنه قوله - تعالى - « فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم
فأصبحوا ظاهرين ، أى : غالبين » .

وقوله : « لا يرقبوا فيكم ، أى : لا يراعوا فى شأنكم » . يقال : رقب
فلان الشيء يرقبه إذا رعاه وحفظه . . و رقيب القوم حارسهم .

والإل : يطلق على العهد ، وعلى القرابة ، وعلى الحلف . . .

قال ابن جرير - بعد أن ساق أقوالا فى معنى الإل - وأولى الأقوال
فى ذلك بالصواب أن يقال : والإل : اسم يشتمل على معان ثلاثة : وهى
العهد ، والعقد ، والحلف والقرابة . . . ومن الدلالة على أنه يكون بمعنى
القرابة قول ابن مقبل :

أسد الناس خلوف خلفوا قطعوا الإل وأعراق الرحم

أى : قطعوا القرابة .

(١) تفسير الآلوسى - بتصرف يسير - ج ١٠ ص ٤٩ .

الجزء العاشر

ومن الدلالة على أنه يكون بمعنى العهد قول الفائل :

وجدناهم كاذباً إلههم وذو الإل والعهد لا يكذب
وإذا كانت الكلمة تشمل هذه المعاني الثلاثة ، ولم يكن الله خص من
ذلك معنى دون معنى ، فالصواب أن يعنى ذلك كما عم بها - جل ثناؤه -
معانيها الثلاثة^(١) .

والذمة : كل أمر لزمك بحيث إذا ضيعته ازملك مذمة . أو هى ما يتقدم به
أى يحتجب فيه الذم .

والمعنى : بأية صفة أو بأية كيفية يكون المشركين عهد عند الله وعند
رسوله ، والحال المعهود منهم أنهم إن يظفروا بكم ويغابوكم ، لا يراعوا فى
أمركم لا عهدا ولا حلفا ولا قرابة ولا حقا من الحقوق .

وقوله - تعالى - : دىرونكم بأفواهم وتآبى قلوبهم ، وأكثرهم
فاسقون ، زيادة بيان الأحوال القبيحة الملازمة لهؤلاء المشركين .

أى : أن هؤلاء المشركين إن غلبوكم - أيها المؤمنون - فعلموا بكم
الآفاعيل ، وتفطنوا فى إندائكم من غير أن يقيموا وزنا لما بينكم وبينهم من
عهود ومواثيق ، وقرابات وصلات . . . أما إذا كانت الغلبة لكم فإنهم فى
هذه الحالة دىرونكم بأفواهم ، أى : يعطونكم من أسفهم كلاما معسولا
لإرضاء لكم ، وهم فى الوقت نفسه دآبى قلوبهم ، المملوءة حقدا عليكم
وبغضا لكم تصديق أسفهم ، فهم كما وصفهم - سبحانه - فى آية أخرى :
د يقولون بأفواهم ما ليس فى قلوبهم ،^(٢) .

(١) تفسير ابن جرير - بتصريف وتلخيص - ج ١٠ ص ٨٣ .

(٢) سورة آل عمران الآية ١٦٧ .

تفسير سورة التوبة

وتقييد الإرضاء بالأفواه ، للإشعار بأن كلامهم مجرد ألفاظ يتفوهون بها من غير أن يكون لها مصداق في قلوبهم .

وقوله : «وأكثرهم فاسقون ، أى : خارجون عن حدود الحق ، منفصلون عن كل فضيلة ومكرمة ، إذ الفسق هو الخروج والانفصال . يقال : فسقت الرطبة إذا خرجت عن قشرتها . وفسق فلان إذا خرج عن حدود الشرع .

ولأنما وصف أكثرهم بالفسوق ، لأن هؤلاء الأكثرين منهم ، هم الناقضون لعهودهم ، الخارجون على حدود ربهم ، أما الأقلون منهم فهم الذين وفوا بعهودهم ، ولم ينقصوا المؤمنين شيئاً ، ولم يظاهروا عليهم أحداً .

وبذلك نرى أن الآية الكريمة قد وصفت هؤلاء المشركين وصفاً في نهاية الذم والقبح ، لأنهم إن كانوا أقوياء فجروا وأسرفوا في الإبداء ، ناذين كل عهد وقرابة وعرف ... أما إذا شعروا بالضعف فإنهم يقدمون للمؤمنين الكلام اللين الذى تنطق به ألسنتهم ، وتأباه قلوبهم الخافدة الغادرة ...

أى أن الغدر ملازم لهم فى حالتى قوتهم وضعفهم ، لأنهم فى حالة قوتهم لا يرقبون فى مؤمن إلا ولا ذمة ، . وفى حالة ضعفهم يخادعون ويدهنون حتى تحين لهم الفرصة للانقضاض على المؤمنين .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك السبب الأصيل الذى جعل الغدر ديدنهم ، والحق على المؤمنين دأبهم فقال : «اشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً قصدوا عن سبيله ، إنهم ساء ما كانوا يعملون ، .

والمراد بالاشتراء هنا . الاستبدال والاستيعاض .

الجزء العاشر

والمراد بآيات الله : كل ما جاء به النبي ﷺ - من آياته قرآنية ، ومن تعاليم سامية تهدي إلى الخير والفلاح .

والمعنى : إن السبب الأصيل الذي حمل هؤلاء المشركين على الغدر ، وعلى الفجور والطغيان عند القوة وعلى المداينة والمخادعة عند الضعف . . . هو أنهم استبدلوا بآيات الله المتضمنة لكل خير وفلاح . . . ثمناً قليلاً . أى : عرضاً حقيراً من أعراض الدنيا وزخارفها .

وايس وصف الثمن بالقلة هنا من الأوصاف المخصصة للسكرات . بل هو من الأوصاف اللازمة للثمن المحصل بالآيات ، لأن كل ثمن يؤخذ في مقابل آيات الله فهو قليل وإن بلغ ما بلغ من أعراض الدنيا وزينتها . وقوله : « فصدوا عن سبيله » بيان لما ترتب على استبدالهم بآيات الله ثمناً قليلاً .

والصد : المنع والحيلولة بين الشيء وغيره . ويستعمل لازماً فيقال : صد فلان عن الشيء صدوداً بمعنى أعرض عنه . ويستعمل متعدياً فيقال : صد عنه إذا صرفه عن الشيء . . .

وهنا تصح إرادة المعنيين فيكون التقدير : أن هؤلاء المشركين قد اشترؤا بآيات الله ثمناً قليلاً ، يترقب على ذلك أن أعرضوا عن طريق الله الواضحة المستقيمة التي جاء بها نبيه محمد ﷺ - ، ولم يكتفوا بهذا بل صرفوا غيرهم عنها ، ومنعوه من الدخول فيها .

وقوله : « إنهم ساء ما كانوا يعملون » تدليل قصد به بيان سوء عاقبتهم ، وقبح أعمالهم .

أى : إنهم ساء وقبح عملهم الذي كانوا يعملونه من اشترائهم بآيات الله ثمناً قليلاً ، ومن صدودهم عن الحق وصددهم لغيرهم عنه . . . وسيجازيهم الله على ذلك بما يستحقونه من عقاب شديد .

ثم بين - سبحانه - أن عداوة هؤلاء المشركين ليست خاصة بالمؤمنين

تفسير سورة التوبة

الذين يقيمون معهم ، وإنما هي عداوة عامة شاملة لكل مؤمن مهما تباعد عنهم فقال - تعالى - : « لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة وأولئك هم المعتدون » .
 أى : أن هؤلاء المشركين لا يراعون في أمر مؤمن يقدرون على الفتك به عهدا يحرم الغدر ، ولا قرابة تقتضى الود ، ولا ذمة توجب الوفاء خشية الذم ... وإنما يبدون الحقد والغدر والأذى لكل مؤمن ، من غير أن يقيموا للعهود أو للفضائل وزناً .

وهذه الآية الكريمة أعم من قوله - تعالى - قبل ذلك : « كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلا ولا ذمة » ، لأن هذه بينت أن عدوانهم على المؤمنين مقيد بظهورهم عليهم ، أما التي معنا فقد بينت أن عدوانهم ليس مقيداً بشئ ، فهم متى وجدوا الفرصة لتهبوا في الاعتداء على المؤمنين ولأن التي معنا بينت أن عدوانهم قد شملت كل مؤمن مهما كان موضعه .
 أما الآية السابقة فهي تخاطب المؤمنين الذين كان بينهم وبين المشركين الكثير من الحروب والدماء .

وقوله : « وأولئك هم المعتدون » ، تذييل قصد به ذمهم والتحقيق من شأنهم .

أى : وأولئك المشركون الموصوفون بتلك الصفات السيئة هم المتجاوزون لحدود الله ، الخارجون على كل فضيلة ومكرمة .
 وبعد أن وضحت السورة الكريمة طبيعة هؤلاء المشركين بالنسبة لكل مؤمن ، وبينت الأسباب التي جعلتهم معزّل عن الحق والخير ... شرعت في بيان ما يجب أن يفعله المؤمنون معهم في حالتي إيمانهم وكفرهم فقال تعالى - :
 « فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين » ، وفصل الآيات لقوم يعلمون . وإن نكثوا إيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم فقاتلوا ، أئمة الكفر إنهم لا إيمان لهم لعلهم ينتهون » .
 أى : « فإن تابوا » ، عن شركهم وما يتبعه من رذائل ومنكرات وأقاموا

الجزء العاشر

الصلاة وآتوا الزكاة ، على الوجه الذى أمر الله به ففهم فى هذه الحالة إخوانكم فى الدين د لهم ما لكم وعليهم ما عليكم ، وهذه الأخوة تجب ما قبلها من عداوات . وقوله : « وفصل الآيات لقوم يعلمون » جملة معترضة ، جىء بها للحث والتحريض على ما فصله - سبحانه - من أحكام المشركين ، وعلى الالتزام بها .

هذا ما يجب على المؤمنين نحو هؤلاء المشركين إن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة . . أما إن كانت الأخرى ، أى إذا لم يتوبوا وأصروا على عداوتهم ، فقد بين سبحانه ما يجب على المؤمنين نحوهم فى هذه الحالة فقال : « وإن نكثوا إيمانهم من بعد عهدهم . .

أى : « وإن نقضوا عهدهم من بعد أن تعاقدوا معكم على الوفاء بها . وقوله : « نكثوا » من النكث بمعنى النقض والحل . يقال نكث فلان الحبل إذا نقض فثله وحل خيوطه ومنه قوله . تعالى . « ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً » (١) .

وقوله : « وطعنوا فى دينكم » معطوف على ما قبله . أى : وعابوه وانتقضوه .

وقوله : « فقاتلوا أئمة الكفر » أى : فقاتلوهم فهم أئمة الكفر ، وحمله لوائه . فوضع . سبحانه - الاسم الظاهر المبين لشر صفاتهم موضع الضمير على سبيل الذم لهم .

وقبل : المراد بأئمة الكفر رؤساؤهم وصناديدهم الذين كانوا يحرضونهم على عداوة المؤمنين ، ويقودونهم لقتال النبى ﷺ - وأصحابه .

وعطف . سبحانه . قوله « وطعنوا فى دينكم » على ما قبله مع أن نقض العهد كاف فى إباحة قتالهم ، لزيادة تحريض المؤمنين على مجاهدتهم والاعلاظ عليهم . . .

وقوله : « لأنهم لا إيمان لهم » تعليل للأمر بقتالهم . أى قاتلو هؤلاء

تفسير سورة التوبة

المشركين بعزيمة صادقة ، وقلوب ثابتة .. لأنهم قوم لا إيمان ولا عهد لهم على الحقيقة ، لأنهم لما لم يفوا بها صارت أيمانهم كأنها ليست بأيمان .

وقرأ ابن عامر : إنهم لا إيمان لهم ، - بكسر الهمزة . على أنها مصدر آمنة الإيمان بمعنى إعطاء الأمان . أى إنهم لا أمان لهم فاحذروا الإغترار بهم . أو المراد الإيمان الشرعى . أى إنهم لا تصديق ولا دين لهم ، ومن كان كذلك فلا وفاء له .

وقوله : « لعلمهم ينتهون » متعلق بقوله « فقاتلوا أئمة الكفر »

أى : ليسكن مقصدم من مقاتلتهم - بعد أن وجد منهم ما وجد من لئذائكم الرجاء فى هدايتهم ، والانهاء عن كفرهم وخيانتهم ... واحذروا أن يكون مقصدم من ذلك العدوان وإتباع الهوى .

هذا ، ومن الأحكام والآداب التى أخذها العلماء من هذه الآيات سوى ما سبق - ما يأتى :

١ - أن ما ذكرته الآيات من كون المشركين ، لا يرقبون فى مؤمن إلا ولا ذمة ، يقرر حقيقة واقعة ، ومن الأدلة على ذلك ما فعله التتار بالمسلمين - وخاصة مسلمى بغداد . سنة ٦٥٦ . وما فعله الوثنيون الهنود مع مسلمى باكستانى ، وما فعله الشيوعيون . فى روسيا والصين وغيرها - مع المسلمين الذين كانوا يعيشون معهم (١)

٢ - أن هؤلاء المشركين متى تابوا عن كفرهم ، وأفعلوا عن شركهم ، واندمجوا فى جماعة المؤمنين .. صاروا إخوة لنا فى الدين .

وهذه الأخوة الدينية - كما يقول صاحب المنار - مما يحسدنا جميع أهل الملل ، فهى لا تزال أقوى فيما منها فيهم براوتعاوناً . وعاصمة لنا من

(١) لمعرفة ذلك بالتفصيل راجع تفسير د فى ظلال القرآن ، ج ١٠

حن ج ١٤١ إلى ص ١٤٥ .

(م - ٥ سورة التوبة)

الجزء العاشر

قوضى الشيوعية ، وأثرة المادية وغيرها ، على مامنية به شعوبنا من الضعفاء ، واختلال النظام ، وإختلاف الجنسيات والأحكام . . . (١)

٣ - قال القرطبي : استدلل بعض العلماء بهذه الآية وإن فكشوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم . . . على وجوب قتل كل من طعن في الدين ، إذ هو كافر . والطعن أن ينسب إليه ما لا يليق به ، أو يعترض بالاستخفاف على ما هو من الدين ، لما ثبت من الدليل القطعي على صحة أصول واستقامة فروعه . وقال ابن المنذر : أجمع عامة أهل العلم على أن من سب النبي ﷺ عليه القتل . ومن قال بذاك مالك والليث وأحمد وإسحاق والشافعي (٢) .

٤ - أخذ بعضهم من قوله - تعالى - : « إنهم لا إيمان لهم ، أن الكافر لا يمين له على الحقيقة .

قال الفخر الرازي : وبه تمسك أبو حنيفة . رحمه الله . في أن يمين الكافر لا يكون يميناً . وعند الشافعي . رحمه الله - يمينهم يمين . ومعنى الآية عنده : أنهم لما لم يفوا بها صارت أيمانهم كأنها ليست بأيمان . والدليل على أن أيمانهم أيمان أنه - سبحانه - وصفها بالنكث في قوله : « وإن فكشوا أيمانهم . . . » ولو لم يكن منعقداً لما صح وصفها بالنكث (٣) .

٥ - دل قول . تعالى . « لعلمهم ينتهون » على أن قتال المؤمنين للمشركين لا يراد به سلب أموالهم ولا هتك أعراضهم . . . وإنما المراد به الرجاء في هدايتهم ، والأمل في انتهايتهم عن الكفر وسوء الأخلاق .

قال صاحب الكشاف : قوله « لعلمهم ينتهون » متعلق بقوله « فقاتلوا » أئمة الكفر . . .

(١) تفسير المنار ج ١٠ ص ٢٢٨

(٢) تفسير القرطبي ج ١٠ ص ٨٢

(٣) تفسير الفخر الرازي ج ١٥ ص ٢٣٤

أى: ليسكن غرضكم في مقاتلتهم - بعد ما وجد منهم ما وجد من العظام - أن تكون المقاتلة سببا في إتهامهم عما هم عليه . وهذا من غاية كرمه وفضله وعوده على المسمى بالرحمة كلها ناد (١) .

وبعد أن بينت السورة الكريمة الأسباب الموجبة لقتال المشركين : شرعت في تحريض المؤمنين على مهاجمتهم ومقاتلتهم بأسلوب يشير الحمية في النفوس ، ويحمل على الأقدام وعدم المبالاة بهم . . . فقال تعالى .

أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْرِجُهُمْ مِنْكُمْ وَيُنْصِرْكُمْ عَلَيْهِمُ وَيَسْخِفْ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيَذْهَبْ غَيْظُ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾

قال الألوسي : قوله تعالى : ألا تقاتلون قوما . . . ، تحريض على القتال بأبلغ وجه - ، لأن الاستفهام فيه للإفكار ، والاستفهام الإنكارى فى معنى النفي ، وقد دخل هنا على نفي ، نفي النفي لإثبات . وحيث كان الترك منكرا أفاد بطريق برهاني أن إيجاده أمر مطلوب مرغوب فيه ، فيفيد الحث والتحريض عليه . . . بأقوى الأدلة ، وأسهى الأساليب ، (٢) .

وقد ذكر - سبحانه - هنا ثلاثة أسباب كل واحد منها يحمل المؤمنين على قتال المشرك بغلظة وشجاعة .

أما السبب الأول فهو قوله تعالى : نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ ، أى : نقضوا عهودهم وحنثوا فى أيمانهم التى حلفوها لتأكيد هذه العهود .

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٢٥١

(٢) تفسير الألوسي ج ١٠ ص ٦٤ - بتصرف يسير .

الجزء العاشر

ومن مظاهر ذلك أن هؤلاء المشركين الذين تعاهدوا معكم في صلح الحديبية على ترك القتال عشر سنين . قد نقضوا عهدهم بمساعدة حلفائهم بنى بكر على قتال حلفائكم بنى خزاعة عند أول فرصة سنحت لهم . والسبب الثانى قوله . سبحانه . « وهما بإخراج الرسول ، والهم : المقاربة من الفعل من غير دخول فيه .

أى : وهما بإخراج الرسول - ﷺ - من مكة التى ولد فيها وعاش بها زمنا طويلا . . . لكنهم لم يستطيعوا ذلك ، بل خرج باختيار . وبإذن الله له فى الهجرة . . .

وقد فضل . سبحانه . ما هموا به فى قوله . وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون وبمكر الله والله خير الماكرين ، (١) وإنما اقتصر . سبحانه . فى الآية التى معنا على همهم بإخراجه . صلى الله عليه وسلم . من مكة ، مع أن آية الأنفال قد بينت أنهم قد هموا بأحد أمور ثلاثة ، لأن الإخراج هو الذى وقع أثره فى الخارج بحسب الظاهر ، أما القتل والحبس فلم يكن لهما أثر فى الخارج .

وقيل : إنه . سبحانه . قد اقتصر على الأدنى وهو الهم بالإخراج ، ليعلم غير بالطريق الأولى ، إذ الإخراج أهون من القتل والحبس .

وأما السبب الثالث فهو قوله . سبحانه . « وهم بدموكم أول مرة ، أى : وهم الذين كانوا بادئين بقتالكم فى أول لقاء بينكم وبينهم وهو يوم بدر ، كما كانوا بادئين بالعدوان عليكم فى كل قتال بعد ذلك ، كما حدث منهم فى أحد والخندق وكما حدث منهم مع حلفائكم من بنى خزاعة .

قال صاحب الكشف : قوله : « وهم بدموكم أول مرة ، أى : وهم الذين كانت منهم البداية بالمقاتلة ، لأن رسول الله . صلى الله عليه وسلم . جاءهم أولا

تفسير سورة التوبة

بالكتاب المثير ، وتحذاهم به ، فعدلوا عن المعارضة اعجزهم عنها إلى القتال .
فهم البادئون بالقتال والبادى أظلم ، فما يمنعكم من أن تقاتلوهم بمثله ، وأن
تصدموهم بالشر كما صدموكم ؟ (١)

فأنت ترى أن هذه الآية الكريمة قد ذكرت ثلاثة أمور كل واحد
منها كفيل بحمل المؤمنين على قتال المشركين . . فكيف وقد توفرت هذه
الأمور الثلاثة في هؤلاء المشركين ؟

ولم تكف الآية الكريمة بهذا التهييج والتخصيص للمؤمنين على القتال ،
بل أمرتهم بأن تكون خشيتهم من الله وحده ، فقال . سبحانه . أتخشونهم
فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين ، .

أى : أتتركون - أيها المؤمنون - قتال هؤلاء المشركين الذين دنسوا
أيمانهم وهموا بإخراج الرسول وهم بدءوكم أول مرة « خشية منهم ؟ لا ،
إن هذا لا يليق بكم ، وإنما الذى يليق بكم . إن كنتم مؤمنين حقا . أن تكون
خشيتكم من الله وحده .

قال الإمام الرازى : وهذا الكلام يقوى داعية القتال من وجوه :
الأول : أن تعديل الموجبات القوية وتفصيلها بما يقوى هذه الداعية .
الثانى : أنك إذا قلت للرجل : أتخشى خصمك كان ذلك تحريكا منه
لأن يستنكب أن ينسب إلى كونه خائفا من خصمه .

الثالث : أن قوله : فالله أحق أن تخشوه ، يفيد ذلك كأنه قيل : إن
كنت تخشى أحدا فالله أحق أن تخشاه ، لكونه فى غاية القدرة والكبرياء
والجلالة . . .

الرابع : أن قوله : إن كنتم مؤمنين ، معناه : إن كنتم مؤمنين إيمانا
حقا ، وجب عليكم أن تقدموا على هذه المقاتلة ومعناه : أنكم إن لم تقدموا

الجزء العاشر

لا تكونوا كذلك . فثبت أن هذا الكلام يشمل على سبعة أنواع من الأمور التي تحملهم على مقاتلة أولئك الكفار الناقضين للعهد (١) .

ثم أمرهم — سبحانه — أمراً صريحاً قاطعاً بمقاتلة المشركين . ورتب على هذه المقاتلة خمسة أنواع من الفوائد فقال : « قاتلهم يعذبهم الله بأيديكم ، أى : أقدموا على قتالهم وبأثروهم بشجاعة وإخلاص كما أمركم ربكم ، فإنكم متى فعلتم ذلك ، يعذبهم الله بأيديكم ، بسبب ما تنزلونه بهم من قتل وأسروهم وجراحات بليغة ، واغتنام للأموال ... »

وأشد — سبحانه — التعذيب إليه ، لأنه أمر زائد على أسبابه من الطعن والضرب وما يفضيان إليه من القتل والجرح . والأسر ... »

تلك هي الفائدة الأولى من قتالهم ، أما الفائدتان الثانية والثالثة فتتجليان في قوله . تعالى . « ويخزهم » وينصرهم عليهم . .

أى : ويخزهم بسبب ما ينزل بهم من هزيمة وهوان وهم يتفخرون بقوتهم وبأسهم ، وينصرهم عليهم بأن يجعل كلمتكم هي العليا وكلمتهم هي السفلى .

قال الإمام الرازى : فإن قالوا : لما كان حصول ذلك الخزى مستلزماً لحصول هذا النصر ، كان لإفراده بالذكر عبثاً ؟

فنقول : ليس الأمر كذلك ، لأنه من المحتمل أن يحصل الخزى لهم من جهة المزمنين ، إلا أن المؤمنين قد تحصل لهم آفة لسبب آخر ، فاما قال : « وينصرهم عليهم » دل على أنهم ينتفعون بهذا النصر والفتح والظفر ، « ٢ »

والفائدة الرابعة بينها — سبحانه — في قوله . « ويشف صدور قوم مؤمنين » .

« ١ » تفسير الفخر الرازى ج ١ ص ٢٣٥ — بتصرف يسير .

« ٢ » تفسير الفخر الرازى ج ١ ص ١٦ طبعة عبد الرحمن محمد سنة ١٩٣٨

تفسير سورة التوبة
 أى : أنكم بقتالكم لهم وانتصاركم عليكم، تشفون قلوب جماعة من المؤمنين من غيظها المكظوم ، لأن هذه الجماعة قد لقيت ما لقيت من أذى المشركين وظلمهم وغدرهم ... فكان انتصاركم عليهم شفاء لصدورهم .
 قالوا : والمراد بهم هؤلاء القوم بنو خزاعة الذين غدر بهم بنو بكر بمساعدة قريش .

والأولى أن تكون الجملة الكريمة عامة في كل من آذاهم المشركون :
 أما الفائدة الخامسة فقد بينها - سبحانه - في قوله ويذهب غيظ قلوبهم :
 أى : ويذهب غيظ قلوب هؤلاء القوم المؤمنين ويزيل كربها وغمها ، لأن الشخص الذى طال أذى خصمه له . ثم مكّنه الله منه على أحسن الوجوه فان هذا الشخص في هذه الحالة يعظم سروره ، ويفرح قلبه ، ويتحول غيظه السابق إلى غبطة وارتياح نفسى ..

قال الألوسى : « وظاهر العطف أن إذهاب الغيظ غير شفاء الصدور .
 ووجهه بأن الشفاء يكون بقتل الأعداء وخزيهم ، وإذهاب الغيظ يكون بالنصر عليهم ... وقيل : إذهاب الغيظ كالتأكيد لشفاء الصدر ، وقادته المبالغة في جعلهم مسرورين بما يمن الله به عليهم من تعذيبه لأعدائهم ، ونصرته لهم عليهم . ولعل إذهاب الغيظ من القلب أبلغ مما عطف عليه ،
 فيكون ذكره من باب الترقيى ١٠٠٠٠ » .

وقوله : تعالى - « ويتوب الله على من يشاء والله عليم حكيم » ، كلام مستأنف لبيان شمول قدرة الله - تعالى - ، وواسع رحمته ، وبالغ حكمته ..
 أى : ويتوب الله على من يشاء أن يتوب عليه من عباده فيوقفه للإيمان ، ويشرح صدره للإسلام ، والله - تعالى عليم بسائر شئون خلقه ، حكيم في كل أقواله وأفعاله وسائر تصرفاته ، فامثلوا أمره ، واجتنبوا نهيه ،
 لتنالوا السعادة في دنياكم وآخرتكم .

قال الإمام الرازى ما ملخصه : وهذه الآية تدل على كون الصحابة مؤمنين في علم الله - تعالى - إيماناً حقيقياً ؛ لأنها تدل على أن قلوبهم كانت مملوءة بالغضب وبالحمية من أجل الدين ، ومن أجل الرغبة الشديدة في علو دين الإسلام ، وهذه الأحوال لا تحصل إلا في قلوب المؤمنين الصادقين كما تدل على أنها من المعجزات ، لأنه - تعالى - أخبر عن حصول هذه الأحوال ، وقد وقعت كما أخبر فقد اقتصر المؤمنون ، واسلم من المشركين أناس كثيرون - فيكون ذلك إخباراً عن الغيب ، والإخبار عن الغيب معجزة ، (١) .

ثم ختم - سبحانه - هذه الآيات السكرية التي حرّضت المؤمنين على القتال أعظم تحريض ، ببيان بعض الحكم التي من أجلها شرع الجهاد في سبيل الله ، فقال - تعالى - :

أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَنَّةٍ وَاللَّهُ خَبِيرٌ
بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾

و . أم ، هنا للاستفهام الانكارى . وحسب - كما يقول الراغب - مصدره الحساب وهو أن يحكم الشخص لأحد النقيضين من غير أن يخطر الآخر بباله ، فيحسبه ويعقد عليه الأصابع ، ويكون بعرض أن يعتريه فيه شك . ويقارب ذلك الظن ، لكن الظن يخطر النقيضين بباله فيغلب أحدهما على الآخر (٢) .
والواو في قوله : ولما يعلم الله . . . ، حاله . و . لما ، للنفي مع توقع الحصول .

(١) تفسير الفخر الرازى ج ١٦ ص ٤ .

(٢) المفردات في غريب القرآن ص ١١٧ للراغب الأصفهاني .

ونفى العلم هنا مجاز عن نفي التبيين والاظهار والتمييز .

وقوله : « وليجة » أى ، بطانة ومداخلة . من الولوج فى الشئ . أى الدخول فيه .

يقال : واج يلج ولوجا إذا دخل . وكل شئ أدخلته فى شئ . ولم يكن منه فهو وليجة .

والمراد بالوليجة هنا : البطانة من المشركين الذين يطلعون على أسرار المؤمنين ويدخلونهم فى أمورهم .

قال ابن جرير : قوله : « وليجة » هو الشئ يدخل فى آخر غيره . يقال منه : ولج فلان فى كذا يلجه فهو وليجة . وإنما عنى بها فى هذا الموضع : البطانة من المشركين . نهى الله المؤمنين أن يتخذوا من عدوهم من المشركين أولياء يفشون إليهم أسرارهم (١) .

والمعنى : أحسبتم — أيها المؤمنون — أن تتركوا دون أن تؤمروا بقتال المشركين ، والحال إن الله — تعالى — لم يظهر الذين جاهدوا منكم بإخلاص ولم يتخذوا بطانة من أعدائكم . . . ممن جاهدوا منكم بدون إخلاص ؟

لا أيها المؤمنون ، إن كنتم حسبتم ذلك فهو حسابان باطل ، لأن سنة الله قد اقتضت أن يميز المخلص فى جهاده من غيره ، وأن يجعل من حكم مشروعية الجهاد الامتحان والتمحيص .

قال ابن كثير : والحاصل أنه — تعالى — لما شرع الجهاد لعباده ، بين أن له فيه حكمة وهو اختبار عبده من يطيعه ممن يعصيه ، وهو — تعالى — العالم بما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف كان يكون ، فيعلم الشئ قبل كونه

جميع كونه على ما هو عليه ، لا إله إلا هو ولا رب سواه ، ولا راد لما قدره وأمضاه ، (١) .

وقوله تعالى . « والله خير بما تعملون » بيان لشمول علمه - سبحانه - لجميع شئون خلقه .

أى : والله - تعالى - خير بجميع أعمالكم ، مطلع على نياتكم ، فاخلصوا له العمل والطاعة ، لتنالوا ثوابه ورضاه وعونه .

وبذلك نرى السورة الكريمة من أولها إلى هنا قد أعلنت براءة الله ورسوله من عهود المشركين ، وأعطتهم مهلة يتدبرون خلالها أمرهم ، وأمرت المؤمنين بعد هذه المهلة - أن يقتلوا المشركين حيث وجدوهم ... ثم سافت الأسباب التي تدعو إلى مجاهدتهم . والفوائد التي تقرتب على هذه المجاهدة ، والحكم التي من أجلها شرعت هذه المجاهدة .

ثم أخذت السورة بعد ذلك في إعلان حكم آخر يتعلق بتعمير مساجد الله ، فبينت أنه يحرم على المشركين أن يعمرُوا مساجد الله ، وأن المستحقين لذلك هم المؤمنون الصادقون ، فقال - تعالى - :

مَا كَانَ

لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِم بِالْكَفْرِ
أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ
مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى
الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾

قال الجمل : وسبب نزول هذه الآية أن جماعة من رؤساء قريش أسروا يوم بدر ، منهم العباس بن عبد المطلب ، فأقبل عليهم نفر من أصحاب رسول

(١) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٣٤ .

ﷺ يعيرهم بالشرك ، وجعل على بن أبي طالب يوبخ العباس بسبب قتال رسول الله - ﷺ وقطبة الرحم .

فقال العباس : ما لكم تذكرون مساوئنا وتسكتون محاسننا؟ فقل له : وهل لكم محاسن؟ قال : نعم . ونحن أفضل منكم . إنا لنعمر المسجد الحرام ، ونحجب الكعبة - أى نخدمها - ، ونسقى الحجيج ، ونفك العاني - أى الأسير فنزلت هذه الآية (١) .

وقال صاحب المنار : والمراد أن هذه الآية تتضمن الرد على ذلك القول الذى كان يقوله ويفخر به العباس وغيره من كبراء المشركين ، لا أنها نزلت عندما قال ذلك القول لأجل الرد عليه فى أيام بدر من السنة الثانية من الهجرة ، بل نزلت فى ضمن السورة بعد الرجوع من غزوة تبوك كما تقدم (٢) . وقوله : « يعمروا » من العمارة التى هى نقيض الخراب . يقال : عمر فلان أرضه يعمرها عمارة إذا تعهد بها بالخدمة والإصلاح والزراعة .

والمراد بعمارة المساجد ، هنا : ما يشمل إقامة العبادة فيها ، وإصلاح بنائها وخدمتها ، ونظافتها ، واحترامها ، وصيانتها عن كل مالا يتناسب مع الغرض الذى بنيت من أجله .

وقوله : « مساجد الله » ، قرأ أبو عمرو وابن كثير ، مسجد الله ، بالإفراد ، فىكون المراد به المسجد الحرام : لأنه أشرف المساجد فى الأرض ، ولأنه قبلة المساجد كلها ... فلا يجوز للمشر كين دخوله أو الخدمة فيه .

وقرأ الجمهور « مساجد الله » ، بالجمع ، فىكون المراد من المساجد جميعها لأنها جمع مضاف فى سياق النفي فيعم سائر المساجد ، ويدخل فيها المسجد الحرام دخولا أولياً ، لأن تعميره مناط افتخارهم ، وأهم مقاصدهم ...

(١) حاشية الجمل على الخلائين ج ٢ ص ١٧٠ (٢) تفسير المنار ج ١ ص ٢٤٩١

وهذه القراءة آكد في النفي، لأن نفي الجمع يدل على النفي عن كل فرد،
 فيلزم نفيه عن الفرد المعين بطريق الكناية، كما لو قلت : قلت : فلان لا يقرأ
 كتب الله ، فإن قولك هذا أنفي لقراءته القرآن من تصريحك بذلك .
 وقوله : « شاهد ين على أنفسهم بالكفر » حان من الواو في قوله « يعمر » ،
 وفائدة المحي . هذه الجملة : الاشعار بأن كفرهم كفر صريح ، وأنهم
 يعترفون به اعترافاً لا يمكن أن يكون إنكاره ، ولا يسعهم إلا قراره .
 والمعنى : لا ينبغي ولا يصح للمشركون أن يعمرُوا مساجد الله التي
 بنيت لعبادته وحده - سبحانه . وذلك لأن هؤلاء المشركين قد شهدوا
 على أنفسهم بالكفر شهادة نطقت بها ألسنتهم ، وأيدتها أعمالهم .
 فهم لا ينطقون بكلمة التوحيد ، وإنما ينطقون بالكفر والاشراك .
 وهم لا يعملون أعمال المؤمنين ، وإنما يعملون الأعمال القبيحة التي تدل
 على إصرارهم على باطلهم كسجودهم للأصنام عقب الطواف بالكعبة .
 قال الفخر الرازي : وذكروا في تفسير هذه الشهادة وجوها : الأول -
 وهو الأصح : أنهم أقروا على أنفسهم بعبادة الأوثان ، وتكذيب القرآن ،
 وإنكار نبوة محمد عليه الصلاة والسلام : وكل ذلك كفر ؛ فمن يشهد على
 نفسه بكل هذه الأشياء فقد شهد على نفسه بما هو كفر في نفس الأمر .
 وليس المراد أنهم شهدوا على أنفسهم بأنهم كفرة . الثاني . قال السدي :
 شهادتهم على أنفسهم بالكفر هو أن يقول عابد الوثن أنا عابد الوثن ..
 الثالث : أنهم كانوا يطوفون عراة ؛ وكلما طافوا شوطاً سجدوا للأصنام .
 وكانوا يقولون : لبيك لا شريك لك إلا شريك هو الكعبة وما ملك (١)
 ثم بين . سبحانه : في ختام الآية سوء عاقبتهم فقال : أولئك حبطت
 أعمالهم وفي النار هم خالدون ، :
 أي : أولئك المشركون الشائدون على أنفسهم بالكفر قد فسدت
 أعمالهم التي كانوا يفتخرون بها مثل العمارة والحجابة والسقاية لأنهم مع الكفر

لا قيمة لها ، وفي النار هم خالدون ، يوم القيامة بسبب كفرهم وإصرارهم على باطلهم .

ثم بين . سبحانه . أن المؤمنين الصادقين هم الجديرون بعمارة مساجد الله ، فقال : « إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله » .

أى : ليس المشركون أهلاً لعمارة مساجد الله ؛ وإنما الذين هم أهل لذلك المؤمنون الصادقون الذين آمنوا بالله إيماناً حقاً ، وآمنوا باليوم الآخر وما فيه من ثواب وعقاب ، وآمنوا بما فرضه الله عليهم من فرائض فأدوها بالكيفية التى أرشدهم إليها نبيهم — ﷺ — فهم فى صلاتهم خاشعون ؛ والزكاة معطون بسخاء وإخلاص .

وهم بحجاب ذلك لا يخشون أحداً إلا الله فى تبليغ ما كلفوا بتبليغه من أمور الدين ؛ ولا يقصرون فى العمل بموجب أوامر الله ونواهيه . قال صاحب الكشف : فان قلت : هلا ذكر الإيمان برسول الله ﷺ قلت : لما علم وشهر أن الإيمان بالله قرينته الإيمان بالرسول . عليه الصلاة والسلام . لاشتغال كلمة الشهادة والأذان والإقامة وغيرها عليهما مقترنين كأنهما شيء واحد . انما قوى تحت ذكر الإيمان بالله . تعالى . الإيمان بالرسول ﷺ . فإن قلت : كيف قال : « ولم يخش إلا الله » والمؤمن يخشى المحاذير ولا يتمالك أن لا يخشاها .

قلت : هى الخشية والتقوى فى أبواب الدين ، وأن لا يختار على رضا الله رضا غيره لتوقع مخوف ؛ وإذا اعترض أمران : أحدهما حق الله والآخر حق نفسه ، آثر حق الله على حق نفسه (١) .

وقوله - تعالى - « فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين » ، تدل على قصد به حسن عاقبة المؤمنين الصادقين .

أى : فعسى أولئك المتصفون بتلك الصفات الجليلة من الإيمان بالله واليوم

(١) تفسير الكشف ج ٢ ص ٢٥٥ - بتصرف يسير .

الآخر . . . أن يكونوا من المهتدين إلى الجنة وما أعد فيها من خير عظيم ،
ورزق كبير .

قال الألوسي : وإيران اهتدائهم لذلك مع ما بهم من تلك الصفات الجميلة .
في معرض التوقيع ، لحسم أطماع الكافرين عن الوصول إلى مواقف الاهتداء
لأن هؤلاء المؤمنين . وهم من هم . إذا كان أمرهم دائراً بين لعل وعسى
فكيف يقطع المشركون . وهم بيت المخازي والقبايح . أنهم مهتدون ؟
وفيه قطع اتكال المؤمنين على أعمالهم ، وإرشادهم إلى ترجيح جانب
الخوف على جانب الرجاء (١) .

هذا ، ومن الأحكام والآداب التي أخذها العلماء من هاتين الآيتين ما يأتي :
١ - أن أعمال البر الصادرة عن المشركين . كإطعام الطعام ، وإكرام
الضيف . إلخ . لا وزن لها عند الله ، لا اقترانها بالكفر والإشراك به
- سبحانه -

قال . تعالى . : ووقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا (٢)
٢ - أن عمارة مساجد الله من حق المؤمنين وحدهم ، أما المشركون
فإنهم لا يصح منهم ذلك بسبب كفرهم ونجاستهم .

قال الجمل . لا يصح للمشركين أن يعمرُوا مساجد الله بدخولها والوقوف
فيها . فإذا دخل الكافر المسجد بغير إذن من مسلم عَزَّ ر ، وإن دخل بإذنه لم
يعزر لكن لا بد من حاجة . فيشترك للجواز الإذن والحاجة . ويدل على
جواز دخول الكافر المسجد بالإذن أن النبي ﷺ - شد ثمامة بن أثال
إلى سارية من سواري المسجد وهو كافر (٣) .

٣ - التنويه بشأن بناء المساجد ، والتعبد فيها ، وإصلاحها ، وخدمتها .

(١) تفسير الألوسي ج ١٠ ص ٥٩ - بتصرف وتلخيص .

(٢) سورة الفرقان الآية (٣) حاشية الجمل على الجلالين ج ٢ ص ٣٧٠

وتنظيفها ، والسعى إليها ، واحترامها ، وصيانتها عن كل ما يتنافى مع الغرض الذى بنيت من أجله ، وقد وردت أحاديث كثيرة فى هذا المعنى ، ومن ذلك : ما أخرجه الشيخان وغيرهما عن عثمان بن عفان . رضى الله عنه . قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من بنى لله مسجداً يبتغى به وجه الله بنى الله له بيتاً فى الجنة » .

وروى الشيخان . أيضاً . عن أبي هريرة . رضى الله عنه . قال قال رسول الله ﷺ . « من غدا إلى المسجد أو راح . أى سار قبل الزوال أو بعده لعبادة الله فى المسجد . أعد الله له نزلاً . أى مكاناً طيباً فى الجنة . كلما غدا أو راح .

وروى الترمذى عن أنس سعيده الجندى عن النبى ﷺ . قال : « إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد فاشهدوا له بالإيمان » قال الله . تعالى — : « إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر ... الآية » .

وروى أبو داود والترمذى عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ . أنهى عن الشراء والبيع فى المسجد ، وأن تنشده فيه ضالة ، أو ينشده فيه شعر ، . وروى مسلم فى صحيحه عن أنس أن رسول الله ﷺ قال : « إن هذه المساجد لا تصلح لشيء من هذا البول ولا القذر ، إنما هى للذكر . الله . تعالى . وقراءة القرآن (١) .

إلى غير ذلك من الأحاديث التى وردت بشأن المساجد .

ثم بين . سبحانه . بعد ذلك أنه لا يصلح أن يسوى بين هؤلاء المشركين — لمجرد سقائهم الحجاج وعمارهم المسجد الحرام . وبين المؤمنين الصادقين المجاهدين فى سبيل الله لإعلاء كلمته . فقال . سبحانه :

(١) من كتاب رياض الصالحين ، للإمام النووى ص ٤١٨ ، ص ٤١٩ .

ص ٦١٤ ، ٦١٥ طبعة عيسى الحلبي .

أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ
وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ
لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا
فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ
هُمْ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ
لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ
أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾

ذكر المفسرون في سبب نزول هذه الآيات روايات منها : ما رواه
مسلم وأبو داود وابن جرير وابن المنذر عن النعمان بن بشير قال : كنت
عند منبر النبي ﷺ . في نفر من أصحابه فقال رجل : ما أبالي أن
لا أعمل عملاً بعد الإسلام إلا أن أسقى الحاج . وقال آخر : بل عمارة
المسجد الحرام وقال آخر بل الجهاد في سبيل الله خير مما قلتم ، فزجرهم
عمر وقال : لا ترفعوا أصواتكم عند منبر النبي ﷺ . وذلك يوم الجمعة
ولكن إذا صليتم الجمعة دخلت على رسول الله ﷺ . فاستفتيته فيما
اختلفتم فيه . فأنزل الله . تعالى . : د أجعلتم سقاية الحاج . . . الآية (١) .
وأخرج ابن جرير عن عبيد بن سليمان قال : سمعت الضحاك يقول
في قوله : د أجعلتم سقاية الحاج . . . : أقبل المسلمون على العباس
وأصحابه الذين أسروا يوم بدر يعيرونهم بالشرك . فقال العباس : أما والله
لقد كنا نعمر المسجد الحرام . ونفك العاني ، ونحجب البيت ، ونسقى الحاج
فأنزل الله . تعالى . : د أجعلتم سقاية الحاج . . . (٢) .

وقال صاحب المنار . بعد أن ساق عدداً من الروايات في سبب نزول هذه الآيات . : والمعتمد من هذه الروايات حديث النعمان لصحة سنده ، وموافقة متنه لما دلت عليه الآيات من كون موضوعهما في المفاضلة أو المساواة بين خدمة البيت وحجابه . من أعمال البر الهيئة المستلذة . وبين الإيمان والجهاد بالمال والنفس والهجرة وهي أشق العبادات البدنية والمالية (١) .

والسقاية والعمارة : مصدران من سقى وعمر . بتخفيف الميم . والمراد بسقاية الحاج ما كانت قريش تسقيه للحجاج من الزبيب المنبوذ في الماء ، وكان العباس . رضى الله عنه . وهو الذى يتولى إدارة هذا العمل . قال الجمل : السقاية هى المحل الذى يتخذ فيه الشراب في الموسم . كان يشتري الزبيب فينبذ في ماء زمزم ويسقى للناس ، وكان يليم العباس جاهلية وإسلاماً ، وأقرها النبى ﷺ له . . . ويظهر أن المراد بها هنا المصدر . أى : إسقاء الحاج وإعطاء الماء لهم (٢) .

والمراد بعمارة المسجد الحرام : ما يشمل العبادة فيه ، وإصلاح بنائه ، وخدمته ، ونظيفه . . كما سبق أن بينا .

والهمزة في قوله . : أجمعتم . للاستفهام الإنكارى المتضمن معنى النهى . والكلام على حذف مضاف ، لأن العمارة والسقاية مصدران ولا يتصور تشبيههما بالأعيان ، فلا بد من تقدير مضاف في أحدا الجانبين حتى يتأتى التشبيه والمعنى . أجمعتم أهل سقاية الحاج وأهل عمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر ، وجاهد في سبيل الله ؟ ويؤيده قراءة : أجمعتم سقاة الحاج . بضم السين . جمع ساق . وعمرة المسجد الحرام . بفتح العين والميم جمع عامر .

وعلى هذا المعنى يكون التقدير في جانب الصفة ، ويجوز أن يكون التقدير في جانب الذات فيكون المعنى . أجمعتموهما . أى السقاية والعمارة . كإيمان من آمن وجهاد من جاهد ؟

والخطاب يشمل بعض المؤمنين الذين آثروا السقاية والعمارة على الجهاد

(١) تفسير المنار ج ١٠ ص ٢٥٩ . (٢) حاشية الجمل على الجلالين ج ٢ ص ٢٧١ .

- كما جاء في حديث النعمان . كما يشمل المشركين الذين كانوا يتفاخرون .
بأنهم سقاة الحجيج ، وعمار المسجد الحرام .

والمقصود من الجملة الكريمة إنكار النسوية بين العاملين وبين الفريقين .

وفد جاء هذا الإنكار صريحاً في قوله تعالى . . لا يستوون عند الله . .

أى : لا يساوى الفريق الأول الفريق الثانى فى حكم الله ، إذ أن الفريق

الثانى له بفضل إيمانه الصادق . وجهاده الخالص لأجر الجزيل عند الله .

فالجملة الكريمة مستأنفة لتقرير الإنكار المذكور وتأكيده ثم ختم -

سبحانه . الآية الكريمة بقوله . . والله لا يهدى القوم الظالمين . .

أى . والله تعالى . لا يوفق القوم الظالمين إلى معرفة الحق ، وتمييزه

من الباطل ، لأنهم قد آثروا الشر على الخير ، والضلالة على الهداية .

وقوله . . الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم

وأنفسهم أعظم درجة عند الله . . . استئناف لبيان مراتب فضلهم زيادة

فى الرد ، وتكميلاً له .

أى . . الذين آمنوا ، بالله . تعالى . إيماناً حقاً ، ، وهاجروا ، من دار

الكفر إلى دار الإيمان فراراً بدينهم ، ، وجاهدوا فى سبيل ، لإعلاء كلمة الله

و بأموالهم وأنفسهم ، هؤلاء الذين توفرت فيهم هذه الصفات الجميلة وأعظم

درجة عند الله ، أى . أعلى مقاماً وأشرف منزلة فى حكم الله وتقديره من أهل

سقاية الحاج ، وعمار المسجد الحرام ، ومن كل من لم يتصف بهذه الصفات

الأربعة الكريمة وهى . الإيمان ، والهجرة ، والجهاد بالمال ، والجهاد بالنفس .

قال الفخر الرازى . فان قيل لما أخبرتم أن هذه الصفات كانت بين

المسلمين والكافرين . كما جاء فى بعض روايات أسباب النور . فكيف

قال فى وصفهم أعظم درجة مع أنه ليس للكفار درجة .

قلنا . الجواب عنه من وجوه . الأول أن هذا ورد على حسب ما كانوا

يقدرون لأنفسهم من الدرجة والفضيلة عند الله . ونظيره قوله . سبحانه ، والله -

خير أما يشركون ، (١) .

الثانى : أن يكون المراد أن أولئك أعظم درجة من كل من لم يكن موصوفاً بهذه الصفات ، تنبيهاً على أنهم لما كانوا أفضل من المؤمنين الذين ما كانوا موصوفين بهذه الصفات ، فبأن لا يقاسوا إلى الكفار أولى :

الثالث : أن يكون المراد أن المؤمن المجاهد المهاجر أفضل من على السقاية والعمارة . والمراد منه ترجيح تلك الأعمال . ولا شك أن السقاية والعمارة من أعمال الخير ، وإنما بطل ثوابها في حق الكفار بسبب كفرهم (١) .

وقوله : . وأولئك هم الفائزون ، أى : وأولئك الموصوفون بتلك الصفات الكريمة ، هم الفائزون ، بثواب الله الأعظم ، وبرضائه الأسمى الذى لا يصل إليه سواهم ممن لم يفعل فعلهم .

ثم فصل . سبحانه . هذا الفوز فقال : د يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنت لهم فيها نعيم مقيم . خالدين فيها أبداً إن الله عنده أجر عظيم ، أى يبشرهم ربهم ، على لسان نبيهم ﷺ . فى الدنيا وعلى لسان الملائكة عند الموت د برحمة منه ، أى : برحمة واسعة منه . سبحانه . وبرضائه التام عنهم ، ووجنت عالية لهم فيها نعيم عظيم لا يزول ولا يبيد .

د خالدين فيها أبداً ، أى : ما كثرين فى تلك الجنات مكثاً أبدياً .

د وإن الله عند أجر عظيم ، لا يقادر قدره هؤلاء الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم .

قال الألوسى : ذكر أبو حيان أنه . تعالى لما وصف المؤمنين بثلاث صفات الإيمان والهجرة ، والجهاد بالنفس والمال ، قابلهم على ذلك بالتبشير بثلاث : الرحمة ، والرضوان والجنة .

وبداً — سبحانه — بالرحمة فى مقابلة الإيمان لتوقفها عليه ، ولأنها أعم النعم وأسبقها كما أن الإيمان هو السابق .

وثنى — سبحانه — بالرضوان الذى هو نهاية الإحسان فى مقابلة الجهاد الذى هو بذل النفس والأموال .

(١) تفسير الفخر الرازى ١٦ ص ١٤ وتلخيص — يسير .

وثلث بالجنات في مقابلة الهجرة وترك الأوطان ، إشارة إلى أنهم لما
 آثروا تركها - في سبيله أعطاهم بدلها دار عظيمة دائمة وهي الجنات .
 وفي الحديث الصحيح يقول الله سبحانه - : يا أهل الجنة هل رضيتم ؟
 فيقولون كيف لا نرضى وقد باعدتنا عن نارك وأدخلتنا جنتك ؟ فيقول -
 سبحانه - : لكم عندي أفضل من ذلك فيقولون وما أفضل من ذلك ؟ فيقول
 جل شأنه أحل لكم رضائي فلا أسخط عليكم بعده أبدا ، (١) .
 وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة قد بينت أنه لا تصح المساواة بين
 المؤمنين الصادقين الذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ،
 وبين وغيرهم ممن لم يفعل فعلهم . ولم يجاهدو جهادهم . . .
 وبعد أن بين - سبحانه - ما أعده من عطاء عظيم للمؤمنين الصادقين ، الذين
 هاجروا وجاهدوا في سبيله بأموالهم وأنفسهم . . . أتبع ذلك بتوجيه نداء
 إليهم ، حضهم فيه على أن يجردوا أنفسهم لاعتقيدتهم ، وأن يقاتعوا أعداءهم
 في الدين مهما بلغت درجة قرباتهم منهم ، وأن يؤثروا حب الله ورسوله
 على كل شيء من زينة الحياة ، فقال - تعالى :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ءَابَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ
 أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ مِنكُمْ فَأُولَٰئِكَ
 هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١٣﴾ قُلْ إِن كَانَ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ
 وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا
 وَمَسْكَنٌ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِّنْ آلِهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ
 فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ؕ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾

تفسير سورة التوبة

والمعنى : ديارها الذين آمنوا، إيماننا حقاً ولا تتخذوا آباءكم وإخوانكم،
المشركين د أولياء ، وأصدقاء تفشون إليهم أسراركم ، وتطلعونهم على ما لا
يجوز إطلاعهم عليه من شئونكم ، وتلقون إليهم بالمودعة . . . فإن ذلك
يتنافى مع الإيمان الحق ، ومع الإخلاص للعقيدة : إظهارها على كل ما سواها
من زينة الحياة .

والمراد النهى لكل فرد من أفراد المخاطبين عن موالاة أى فرد من أفراد
المشركين ، لأن لجمع إذا قبول بالجمع يوزع الفرد على الفرد ، كما فى قوله
تعالى - وما للظالمين من أنصار (١) - .

قال القرطبى : وخص . سبحانه . الآباء والإخوة إذ لا قرابة أقرب
منها . فتنى الموالاة بينهم ليبين أن القرب قرب الأديان لا قرب الأبدان .

ولم يذكر الأبناء فى هذه الآية ، إذ الأغلب من البشر أن الأبناء هم
التبع للآباء والاحسان والهيبة مستثناه من الولاية . قالت أسماء : يا رسول الله
إن أُمى قدمت على رغبة وهى مشركة أناصلها ؟ قال نعم . صلى ملك (١) .

وقوله . سبحانه . : إن استحبوا الكفر على الإيمان ، قيد فى النهى عن
اتخاذهم أولياء والاستحباب : طلب المحبة : يقال : استحب له بمعنى أحبه كأنه
طلب محبة .

أى : لا تتخذوهم أولياء إن اختاروا الكفر على الإيمان وأصروا على
شركهم وباطلهم ... أما إذا ألقوا عن ذلك ودخلوا فى دينكم ، فلا حرج
عليكم من اتخاذهم أولياء وأصفياء .

الجزء العاشر

وقوله : « من يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون » ، تذييل قصده الوعيد والتهديد لمن يفعل ذلك .

أى : ومن يتولهم منكم فى حال استحبابهم الكفر على الايمان ، فأولئك الموالون لهم هم الظالمون لأنفسهم ، لأنهم وضعوا المولاة فى غير موضعها ، وتجاوزوا حدود الله التى نهاهم عن تجاوزها ، وسيجازيهم . سبحانه . على ذلك بما يستحقونه من عقاب .

ثم أمر . سبحانه . رسوله . ﷺ . أن يعلن للناس هذه الحقيقة : وهى أن محبة الله ورسوله يجب أن تفوق كل محبة لغيرهما فقال — . تعالى . : « قل يا محمد لمن اتبعك من المؤمنين . إن كان آباؤكم ، الذين أنتم بضعة منهم ، « وأبنائكم ، الذين هم قطعة منكم » وإخوانكم ، الذين تربطكم بهم وشيجة الرحم « وأزواجكم ، اللاتى جعل الله بينكم وبينهن مودة ورحمة » وعسيرة .كم « أى : أفاربكم الأدنون الذين تربطكم بهم رابطة المعاشرة والعصبة » وأموال اقترفتموها ، أى : اكتسبتموها فهى عزيزة عليكم .

وأصل القرف والاقتراف : قشر اللحاء عن الشجر ، والجلدة عن الجرح ثم أستعير الاقتراف للاكتساب مطلقاً :

« وتجارة تخشون كسادها ، أى : تخافون بوارها وعدم رواجها بسبب اشتغالكم بغيرها من متطلبات الايمان .

يقال : كسد الشيء . من باب نصر وكرم . كساداً وكسوداً ، إذا قل رواجه وربحه . « ومسا كن ترضونها ، أى : وهنازل تعجبكم الإقامة فيها :

قل لهم يا محمد : إن كان كل ذلك — من الآباء والاخوان والأزواج والعشيرة ، والأموال ، والتجارة ، والمساكن — « أحب اليكم من الله

تفسير سورة التوبة

ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره :

أى : إن كانت هذه الأشياء أحسن في نفوسكم وأقرب إلى قلوبكم من طاعة الله وطاعة رسوله ومن الجهاد في سبيل إعلاء كلمة الحق ، فانظروا حتى يحكم الله بحكمه فيكم ، وهو العذاب العاجل أو العقاب الآجل :

فالجملة السكرية تهديد وتخويف لمن آثر محبة الآباء والأبناء ... على محبة الله ورسوله ، وعلى الجهاد من أجل إعلاء كلمة الدين .

وقوله : « والله لا يهدي القوم الفاسقين » تذييل قصده قائل التهديد السابق أى : والله - تعالى - قد اقتضت حكمته أن لا يوفق القوم الخارجين عن حدود دينه وشريعته إلى ما فيه مشوبته ورضاه .

هذا ، ومن الأحكام والآداب التي أخذها العلماء من هاتين الآيتين ما يأتي :

(١) تحريم موالاة الكافرين مهما بلغت درجة قرابتهم ، واعتبار هذه الموالاة من الكبائر ، لوصف فاعلها بالظلم : قال تعالى : « ومن يتولهم منهم فأولئك هم الظالمون » :

(٢) قوة إيمان الصحابة ، وسرعة امتثالهم لأوامر الله ، فانهم في سبيل عقيدتهم قاطعوا أقرب الناس إليهم ممن خالفوهم في الدين ، بل وحاربوهم وقتلوهم .

قال ابن كثير : روى الحافظ البيهقي من حديث عبد الله بن شاذب قال : جعل أبو أبي عبيدة بن الجراح ينعته له الآلهة يوم بدرو جعل أبو عبيدة يحيد عنه . فلما أكثر الجراح ، قصده ابنه أبو عبيدة فقتله ، فأنزل الله فيه هذه الآية - التي بآخر سورة المجادلة - لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ؛ ولو كانوا آباءهم ، أو أبناءهم ،

أو إخوانهم ، أو عشيرتهم ، أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ، ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ، رضى الله عنهم ورضوا عنه ، أولئك حزب الله ، ألا إن حزب الله هم المفلحون ، (١) .

(٣) إن المؤمن لا يتم إيمانه إلا إذا كانت محبته لله ورسوله مقدمة على كل محبوب ، وقد وردت عدة أحاديث في هذه المعنى ، ومن ذلك ما أخرجه البخارى والامام أحمد عن أبى عقيل زهرة بن معبد أنه سمع جده عبد الله ابن هشام قال : كنا مع رسول الله ﷺ - وهو آخذ بيد عمر ابن الخطاب فقال : يا رسول الله لآنت أحب إلى من كل شيء إلا من نفسى . فقال رسول الله ﷺ - : لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه ، فقال عمر : فأنت والله أحب إلى من نفسى . فقال رسول الله ﷺ : الآن يا عمر ، (٢) .

(٤) فى الآية الثانية دليل على أنه إذا تعارضت مصلحة من مصالح الدين مع مهمات الدنيا ، وجب ترجيح جانب الدين على الدنيا ليبقى الدين سليماً ، وهذا عمل لا يستطيعه إلا الأتقياء . . ولذا قال الإمام الزمخشري : وهذه آية شديدة لا ترى أشد منها . كأنها تمنع على الناس ما هم عليه من رخاوة عقد الدين واضطراب حبل اليقين . فلينصف أروع الناس وأتقاهم من نفسه ، هل يجد عنده من التصالب فى ذات الله والشبات على دينه ، ما يستحب له دينه على الآباء والأبناء والأخوات والعشائر والمال والمساكن وجميع حظوظ الدنيا ويتجرد منها لأجله ؟ أم يزوى الله عنه أحقر شيء منها لمصلحته ، فلا يدرى أى طرفيه أطول ؟ وينويه الشيطان عن أجل حظ من حظوظ الدين ، فلا يبالى كأنما وقع على أنفه ذباب فطيره ؟ (٣) .

(٥) قال بعض العلماء : وليس المطلوب . من قولة تعالى . قل إن كان آباؤكم . . . الخ . أن ينقطع المسلم عن الأهل والعشيرة والزوج والولد

(١) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٣٤٢ (٢) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٢٤٣

(٣) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٢٥٧ .

والمال والعمل والمتاع واللذة ، ولا أن يترهبين ويزهد في طيبات الحياة . . .
كلا إنما تريد هذه العقيدة أن يخلف لها القلب ، ويخلص لها الحب ، وأن
تكون هي المسيطرة الحاكمة ، وهي الحركة الدافعة . فإذا تم لها هذا فلا
حرج عندئذ أن يستمتع المسلم بكل طيبات الحياة ، على أن يكون مسعداً
لنفسها كلها في اللحظة التي تتعارض مع مطالب العقيدة .

ومفروق الطريق هو أن تسيطر العقيدة أو يسيطر المتاع ، وأن تكون
الكلمة الأولى للعقيدة أو اعرض من أعراض هذه الحياة ؟ فإذا اطمأن المسلم
إلى أن قلبه خالص لعقيدته فلا عليه بعد هذا أن يستمتع بالأبناء والآخوة
والعشيرة والزوج . . . ولا عليه أن يتخذ الأموال والمتاجر والمساكن .
ولا عليه أن يستمتع بزيينة الله والطيبات من الرزق . في غير سرف ولا مخيلة
بل إن المتاع حينئذ لمسحوب ، باعتباره لوناً من ألوان الشكر لله الذي
أنعم بها ليتمتع بها عباده . وهم يذكرون أنه الرازق المنعم الوهاب .

ثم انتقلت السورة الكريمة من نهى المؤمنين عن موالاة المشركين ههنا
بلغت درجة قرابتهم ، وعن إظهارهم محبة الآباء والأبناء على محبة الله . . .
انتقلت من ذلك إلى تكبيرهم بجانب من نعم الله عليهم . حيث نفردهم سبحانه
في حنين بعد أن ولوا مدبرين دون أن تنفعهم كثرتهم وقوتهم فقال تعالى

لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ
فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ
وَلَّيْتُمُ مُدَبِّرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى
الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ
جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ
وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٧﴾

الجزء العاشر

قال ابن كثير . هذه أول آية نزلت من برامة يذكركم - تعالى - المؤمنين فضله عليهم وإحسانه لديهم في نصره إياهم في مواطن كثيرة من غزواتهم مع رسوله ، وأن ذلك من عنده تعالى : وبتأييده وتقديره لا بعددهم ولا بعددهم ، ونبيهم إلى أن النصر من عنده سواء قل الجمع أم كثر ، فإياهم يوم حنين أعجبتهم كثرتهم ومع هذا ما أجدى ذلك عنهم شيئاً فولوا مدبرين إلا القليل منهم . . . ثم أنزل الله نصره على رسوله والمؤمنين .

وقد كانت واقعة حنين بعد فتح مكة في شوال سنة ثمان من الهجرة : وذلك أنه لما فرغ - ﷺ من فتح مكة ، وتمهدت أمورها ، وأسلم عامة أهلها ، وأطلقهم رسول الله ﷺ - بلغه أن هوازن جمعوا له ليقا تلوه ، ومعهم ثقيف بكما لها وبنو سعد بن بكر :

فخرج إليهم رسول الله ﷺ - في جيشه الذي جاء للفتح وهو عشرة آلاف من المهاجرين والأنصار وقبائل العرب ، ومعهم الذين أسلموا من أهل مكة وهم الطلقاء في ألفين . فسار بهم رسول - الله ﷺ - إلى العدو ، فالتقوا بواد بين مكة والطائف يقال له حنين ، فكانت فيه الموقعة في أول النهار في غلس الصبح .

انحدروا في الوادي وقد كمننت فيه هوازن ، فلما تواجهوا لم يشعر المسلمون إلا بهم قد بادروهم ، ورشقوا بالنبال ، وأصلتوا السيوف ، وحملوا حملة رجل واحد . . فعند ذلك ولي المسلمون الأدبار ، وثبت رسول الله ﷺ وثبت معه من أصحابه قريب من مائة .

ثم أمر - ﷺ - عمه العباس - وكان جهمير الصوت - أن ينادى بأعلى صوته يا أصحاب الشجرة - أي شجرة بيعة الرضوان التي بايعه المسلمون تحتها على أن لا يفروا عنه فجعل ينادى بهم . . . فجعلوا يقولون لبيك لبيك .

وانعطف الناس فتراجعوا . . فأمرهم رسول الله - ﷺ - أن يصدقوا الحملة ، وأخذ قبضة من تراب ثم ردى بها القوم ، فما بقى لإنسان

تفسير سورة التوبة

عنهم إلا أصابه منها في عينيه وفه ما شغله عن القتال، ثم انهم موافقون للمسلمون أقفاءهم يقتلون ويأسرون، وما تراجع بقية الناس إلا والأسرى مجندلة بين يدي رسول الله ﷺ ف (١) :

هذه خلاصة لغزوة حنين التي اجتمع فيها للمسلمين - للمرة الأولى - جيش تعداده اثنا عشر ألفاً، فلما أعجبتهم هذه الكثرة والقوة .. أصيبوا بالهزيمة في أول معركة .. ليعلموا أن كثرتهم لن تغني عنهم شيئاً إذا لم يكن عون الله معهم .

فقوله . تعالى : د لقد نصركم الله في موطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً : . تذكر للمؤمنين ببعض نعم الله الله عليهم ؛ حتى يداوموا على طاعته ومحبته . وحتى لا يغتروا بقوتهم مهما كثرت .

والمواطن : جمع موطن . وهو المكان الذي يقيم فيه الإنسان . يقال : استوطن فلان مكاناً كذا ، إذا جعله وطناً له .

والمراد بالمواطن هنا : الأماكن التي حدثت فيها الحروب بين المسلمين وأعدائهم .

قال الألوسي : وقوله : ويوم حنين ، معطوف على محل موطن وعطف ظرف الزمان على ظرف المكان وعكسه جائز . . . وأوجب الزمخشري كون «يوم» منصوباً بفعل مضمر والعطف من قبيل عطف الجملة على الجملة .
أي : ونصركم يوم حنين . . (١)

وقوله : د إذ أعجبتكم كثرتكم ، بدل من يوم حنين ، أو عطف له .

(١) تفسير ابن كثير . بتصرف وتلخيص . ج ٢ ص ٣٤٠ . وراجع تفاصيل هذه الغزوة في السيرة النبوية لابن هشام ج ٤ ص ٨٠ . إلى ص ١٤٣ . طبعة الحلبي . ١٩٣٦ تحقيق مصطفى السقا وزميليه .

. (١) تفسير الألوسي ج ١٠ ص ٦٥ - بتصرف وتلخيص :

الجزء العاشر

وأعجبكم : من الإعجاب بمعنى السرور بما يتعجب منه . وسبب هذا الإعجاب أن عدد المسلمين كان اثنا عشر ألفاً ، وعدد أعدائهم كان أربعة آلاف . وقوله : فلم تغن عنكم شيئا ، بيان الأثر السيء الذى أعقب الإعجاب بالكثرة ، وأن سرورهم بهذه الكثرة لم يدم طويلا ، بل تبعه الحزن والهزيمة . وقوله : تغن ، من الغناء بمعنى النفع . تقول : ما يغنى عنك هذا الشيء . أى : ما يجزى عنك وما ينفعك .

وقوله : وضائق عليكم الأرض بما رحبت ، بيان لشدة خوفهم وفزعهم . قال القرطبي : والرحب - بضم الراء - السعة . تقول منه : فلان رحب الصدر .

والرحب - بالفتح - الواسع . تقول منه : بلد رحب وأرض رحبة . وقيل : الباء بمعنى مع ، أى : وضائق عليكم الأرض مع رحبها . وقيل بمعنى على . أى : على رحبها . وقيل المعنى برحبها فتكون ماء مصدرية (٢) والمعنى : أذكروا - أيها المؤمنون - نعم الله عليكم ، وحافظوا عليها بالشكر وحسن المطاعة ، ومن مظاهر هذه النعم أنه سبحانه قد نصركم على أعدائكم مع قلةكم . فى مواقف حروب كثيرة ؛ كغزوة بدر وغزوة بنى قينقاع والنضير . . . كما نصركم . أيضا . فى يوم غزوة حنين ، وهو اليوم الذى راقبكم فيه فكثرتكم فاعتمدتم عليها حتى قال بعضكم : لن نغلب اليوم من قلة . . .

ولكن هذه الكثرة التى أعجبتكم بها لم تنفعكم شيئا من النفع فى أمر العدو بل انهزمت أمامه فى أول الأمر ، وضائق فى وجوهكم الأرض مع رحابتها وسعتها بسبب شدة خوفكم ، فكنتم كما قال الشاعر :

كان بلاد الله وهى عريضة على الخائف المطلب كفة حابل (١)
وقوله : ثم وليتم مدبرين ، تذييل مؤكد لما قبله وهو شدة خوفهم .

(١) تفسير القرطبي ج ١٠ ص ١٠١ .

(٢) الكفة . بالكسر . حبال الصائد . والحابل : الذى ينصب الحالة .

أى : ثم وليتم الكفار ظهوركم منهم زمين لاتلوون على شيء .

تصويرا بديعا معجزا . . فهي تنتقل من تصوير سرورهم بالكثرة، إلى تصوير عدم فقههم بهذه الكثرة، إلى تصوير شدة خوفهم حتى لمكان الأرض على سعتها تضيق بهم وتقفل في وجوههم ، إلى تصوير حركاتهم الحسية المتمثلة في توليه الآبار ، والنكوص على الأعقاب .

في غزوة حنين، يحمي نصر الله الذي عبر عنه . سبحانه . بقوله : . ثم
أنزل الله مكينته على رسوله وعلى المؤمنين . . .

والسكينة: الطمأنينة والرحمة والأمانة وهي فعيلة من السكون: وهو ثبوت الشيء بعد التحرك. أو من السكن وهو كل ما سكنت إليه واطمأننت به من أهل وغيرهم:

أَمْ : ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ . تَعَالَى . عَلَى رَسُولِهِ . ﷺ . وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ رَحْمَةً
الَّتِي تَسْكُنُ إِلَيْهَا الْقُلُوبُ ، وَتَطْمَئِنُّ بِهَا أَلْمَتَانَا يَسْتَتِيعُ النَّصْرَ الْقَرِيبَ .

وقد كان الرسول ﷺ في حاجة إلى هذه السكينة ؛ لأنه مع شجاعته وثباته ووقوفه في وجه الأعداء كالطود الأشم . أصابه الحزن والأسى لفرار هذا العدد الكبير من أصحابه عنه .

وكان المؤمنون الذين ثبتوا من حوله في حاجة إلى هذه السكينة ،
ليزدادوا ثباتا على ثباتهم ، وإيماننا على إيمانهم .

وكان الذين فروا في حاجة إلى هذه السكينة ، ليعود إليهم ثباتهم ،
فجاءوا على قتال أعدائهم بعد أن دعاهم رسولهم ﷺ إلى ذلك .

و قوله : و أنزل جنودا لم تروها ، بيان لنعمة أخرى سوى إزال السكينة .
 أى : و أنزل مع هذه السكينة جنودا من الملائكة لم تروها بأبصاركم ،
 سوا كنكم و جزتم

Made searchable using ScribeTools.com

وقوله : « وعذب الذين كفروا ، بيان لنعمة ثالثة سوى السابقتين .
 أى : أنزل سكينة وأنزل جنودا لم تروها ، وعذب الذين كفروا بأن
 سلاطكم عليهم فقتلتم منهم من قتلتم ، وأسرتهم من أسرتهم .
 وقوله « وذلك جزاء الكافرين ، أى وذلك الذى نزل بهؤلاء الكافرين
 من التعذيب جزاء لهم على كفرهم ، وصددهم عن سبيل الله . .
 ثم بين - سبحانه - بعض مظاهر قدرته ورحمته بعباده فقال - تعالى -
 « ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء والله غفور رحيم » .
 أى : ثم يتوب الله - تعالى - من بعد هذا التعذيب الذى كفروا فى
 الدنيا ، على من يشاء أن يتوب عليه منهم ، بأن يوفقه للدخول فى الإسلام ،
 والله - تعالى - واسع المغفرة ، عظيم الرحمة ، لا يحاسب الكافرين . بعد
 إيمانهم على ما حصل منهم من كفر .
 قال - تعالى - : « قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف ،
 وإن يعودوا فقد مضت سنة الأولين » (١) .

قال ابن كثير : وقوله : « ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء... » قد تاب
 الله على بقية هوازن فأسلموا ، وقدموا عليه مسلمين ، ولحقوه وقد قارب مكة
 عند الجعرانة ، وذلك بعد الواقعة بقریب من عشرين يوماً فعند ذلك خيرهم
 بين سيدهم وبين أموالهم فأختاروا سيدهم ، وكانوا ستة آلاف أسير ، ما بين
 صى وامرأة فرده عليهم : وقسم الأموال بين الغانمين ، ونفل أناسا من الطلقاء
 لىكى يتألف قلوبهم على الإسلام فاعطاهم مائة مائة من الإبل ، وكان جملة
 من أعطاهم مائة من الإبل مالك بن عوف النصري واستعمله على قومه (٢)
 وبذلك نرى هذه الآيات الكريمة قد ذكرت المؤمنين بحاف من نعم الله
 عليهم . ومن رحمته بهم ، وأرشدتهم إلى أن النصر لا يتأنى لمن أعجبوا
 بكفرتهم فانشغلوا بها عن الاعتماد عليه - سبحانه - . وإنما النصر يتأنى لمن
 أخلصوا لله سرائرهم وعلايتهم ، وباشروا الأسباب التى شرعها - سبحانه -
 للوصول إلى الفوز والظفر .

قال ابن القيم : افتتح الله - تعالى - غزوات العرب بغزوة بدر ، وختم غزوه
 بغزوة حنين ، لهذا يقرن بين هاتين بالذكر ، فقال بدر وحنين وإن كان بينهما

سبع سنين . . . وبها تبن الغزوتين طفئت جمرة العرب لغزو رسول الله ﷺ والمسلمين . فالأولى خوفتهم وكسرت من حديدتهم ، والثانية استفرغت قواهم ، واستنفدت سهامهم ، وأذلت جمعهم ، حتى لم يجدوا بدا من الدخول في دين الله (١) .

وبعد هذا التذكير والتوجيه من الله تعالى - لعباده المؤمنين ... وجه سبحانه - إليهم فداء أمرهم فيه يمنع المشركين من قربان المسجد الحرام ، ووعدهم بالعطاء الذي يغنيهم ، فقال :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا
يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ ءَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ
يُغْنِيَكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ءَ إِن شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾

وقوله : نجس ، بالتحريك - مصدر نجس الشيء . ينجس فهو نجس إذا كان قدرا غير نظيف وفعله من باب د تعب ، وفي لغة من باب د قتل ، . قال صاحب الكشاف : النجس : مصدر . يقال نجس نجسا وقدرا ، لأن معهم الشرك الذي هو بمنزلة النجس ، ولأنهم لا يتطهرون ولا يغتسلون ولا يجتنبون النجاسات فهي ملازمة لهم . أو جعلوا كأنهم النجاسة بعينها ، مبالغة في وصفهم بها (٢) .

قيل : وجوز أن يكون لفظ نجس ، صفة مشبهة - وإليه ذهب الجوهري ولا بد حينئذ من تقدير موصوف مفرد لفظاً بجمع معنى ، ليصح الإخبار به عن الجمع . أي جنس نجس ونحوه (٣) .

وقوله : إنما المشركون نجس ، فيه ما فيه من التعبير البديع المصور المجسم لهم ، حتى كأنهم بأرواحهم وماهيتهم وكيانهم . . . النجس يمشى على الأرض فيتحاشاه المتطهرون ، ويتحاماه الأتقياء من الناس .

(١) تفسير القاسمي ج ١٠ ص ٩٩ (٢) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٢٦١

(٣) تفسير الألوسي ج ١ ص ٦٨

تفسير سورة التوبة

وقوله : فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا ، تفريع على نجاستهم والمراد النهى عن الدخول إلا أنه عبر عنه بالنهى عن القرب مبالغة في إبعادهم عن المسجد الحرام .

والنهي وإن كان موجهاً إلى المشركين ، إلا أن المقصود منه نهى المؤمنين عن تمكينهم من ذلك ، والمراد بقوله : بعد عامهم هذا العام الذى حصل فيه النداء بالبراءة من المشركين ، وبعدم طوافهم بالمسجد الحرام . . . وهو العام التاسع من الهجرة .

قال ابن كثير : أمر الله عباد المؤمنين الظاهرين ديناً وذاً بنفى المشركين الذين هم نجس دنياً - عن المسجد الحرام ، وأن لا يقربوه بعد نزول هذه الآية . وكان نزولها فى سنة تسع . ولهذا بعث رسول الله ﷺ - علياً صحبة أبى بكر رضى الله عنهما - عامئذ ، وأمره أن ينادى فى المشركين : أن لا يهج بعد هذا العام مشرك ولا يظوف بالبيت عريان . فأثم الله ذلك وحكم به شرعاً وقدرأ (١) .

وقوله : . وإن خفتن عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء ، بشارة من الله تعالى للمؤمنين بأن سيعطيهم من فضله ما يغنيهم عن المشركين .

والعيلة : الفقر والفاقة : يقال : عال الرجل يعيل عيلة فهو عائل إذا افتقر ، ومنه قول الشاعر :

وما يدرى الفقير متى غناه وما يدرى الغنى متى يقيـل

وقرىء ، عائلة ، بمعنى المصدر كالعافية : اسم فاعل صفة لموصوف مؤنث مقدر أى : حالاً عائلة .

قال ابن جرير - بعد أن ساق روايات فى سبب نزول الآية - :

سبب
التفسير
بالرب

عن عناية العوفي قال : لما قيل : ولا يحج بعد العام مشرك ، قالوا : قد كنا نصيب من بياعاتهم في الموسم ، قال فنزلت ديارها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا ، وإن خفتهم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله . . . الآية (١) .

والمعنى : لا تمكثوا أيها المؤمنون . المشركين من دخول المسجد الحرام بعد هذه السنة ؛ لأنهم نجس . . ولا تخشوا الفقر والفاقة بسبب عدم تمكينهم ؛ حيث إنكم تبادلون معهم التجارات والمبايعات . . لأن الله تعالى قد وعدكم أن يغنيكم من فضله بالعمايا والخيرات التي تكفيكم أمر معاشكم . . . وقد أنجز الله تعالى لهم وعده ، فأرسل السماء عليهم مدرارا ، وفتح لهم البلاد ، فكثرت بين أيديهم الغنائم وألوان الخيرات ، ودخل في دين الله من هم أيسر حالا وأغنى مالا من هؤلاء المشركين . . .

قال صاحب الكشف : قوله : فسوف يغنيكم الله من فضله أي : من عطاءه أو من تفضله بوجه آخر ؛ فأرسل عليهم السماء عليهم مدرارا ، فأغزر بها خيرهم ، وأكثر مسيرهم . وأسلم أهل تبالة (٢) وجرس فحملوا إلى مكة الطعام وما يعاش به ؛ فكان أعود عليهم مما خافوا العيلة لفواته . (٣)

والتقييد بالمشيئة في قوله : إن شاء ، ليس للتردد ، بل هو لتعليم المؤمنين رعاية الأدب مع الله تعالى . كما في قوله : لتدخلن المسجد الحرام أن شاء الله آمنين . . وليمان أن هذا الإغناء بإرادته . سبحانه . وحده ، فعليهم أن يجعلوا اعتمادهم عليه ، وتضرعهم إليه لا إلى غيره ، وللتنبية على أن عطاءه . سبحانه . هو من باب التفضل لا الوجوب ؛ لأنه لو كان واجبا ما قيدته المشيئة .

(١) تفسير ابن جرير ج ١٠ ص ١٠٧

(٢) تبالة : بلد باليمن خصبة ومثلها جرس

(٣) تفسير الكشف ج ٢ ص ٢٦٠

ولما كانت مشيئته - سبحانه - تجري حسب مقتضى علمه وحكمته ،
فقد ختم الآية بقوله : « إن الله عليم حكيم » .
أى : إن الله عليم بأحوالكم ومصالحكم ، وبما يكون عليه أمر
حاضرکم ومستقبلکم حکيم فيما شرعه لكم . فاستجيبوا له لتنالوا السعادة
في دنياكم وآخرتكم .

هذا ، ومن الأحكام والآداب التي استنبطها العلماء من هذه الآية ما يأتي :
أن المراد بالمشرکين في الآية ما يتناول عبدة الأوثان وغيرهم من أهل
الكتاب ، كما هو مقتضى ظاهر اللفظ ، وكما يدل عليه قوله - تعالى - « إن
الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء .. » (١)
أى : لا يغفر أن يشرك به بأى لون من ألوان الشرك .

ويرى كثير من الفقهاء أن المراد بالمشرکين هنا عبدة الأوثان فحسب ،
لأن الحديث خاص بهم من أول السورة إلى هنا .

٢ - يرى جمهور الفقهاء أن نجاسة المشرکين مرجعها إلى خبث
بواطنهم لعبادتهم سوى الله - تعالى - ، أما أبدانهم فطاهرة .
وقد بسط صاحب المنار القول في هذه المسألة فقال ما ملخصه : وقال بعضهم
بنجاسة أعيان المشرکين ، ووجوب تطهير ما تصيبه أبدانهم مع البلل .

حكى هذا القول عن ابن عباس والحسن البصري .. وجمهور الظاهرية ..
ويرى جمهور السلف والخلف وأصحاب المذاهب الأربعة أن أعيانهم
طاهرة . لأنه من المعلوم أن المسلمين كانوا يعاشر المشرکين ويخاطبونهم ..
ومع هذا فالنبي - ﷺ - لم يأمر بغسل شيء مما أصابته أبدانهم ..
بل الثابت أنه - ﷺ - توضأ من مزادة مشرکة ، وأكل من طعام

بالحكمة

بالحكمة
المع

اليهود ... وأطعمهم هو وأصحابه وفدأ من الكفار ولم يأمر بغسل الأواني التي
أكلوا وشربوا فيها ...

وروى الإمام أحمد وأبو داود من حديث عبد الله بن مسعود قال كنا نغزو
مع رسول الله ، فنصيب من آنية المشركين وأسقيتهم فنستمتع بها ولا يعيب
ذلك علينا ... (١)

٣- اختلف الفقهاء في المراد بالمسجد الحرام في قوله - تعالى - فلا
يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا ...

فقال ابن عباس وابن جبير ومجاهد وعطاء : المراد به الحرم كله فيشمل
المسجد الحرام ومكة ، لأن المسجد الحرام حيث أطلق في القرآن
فالمراد به الحرم كله . وعليه قال الكافر يمنع من دخول الحرم كله ..

ويرى الشافعي أن المراد بالمسجد الحرام بخصوصه أخذا بظاهر اللفظ .
قال القرطبي : وقال الشافعي : الآية عامة في سائر المشركين ، خاصة في
المسجد الحرام ، ولا يمنعون من دخول غيره ، فأباح دخول اليهودي
والنصراني في سائر المساجد ، (٢) .

ويرى الإمام مالك أن المراد بالمسجد الحرام بالنصر وبقية المساجد .
تقاس عليه ، لأن العلة - وهي النجاسة - موجودة في المشركين ، والحرمة
موجودة في كل مسجد ،

وعليه فلا يجوز تمكثهم لا من المسجد الحرام ولا من غيره من المساجد .
ويرى الأحناف أن المراد بالمسجد الحرام الحرم كله ، إلا أن النهي هنا
ليس منصبا على دخوله وإنما هو منصب على المنع من الحج والعمرة . ومن
الحج إليه أي : لا تمكثوا - أيها المؤمنون - المشركين من الطواف بالمسجد
الحرام بعد عامهم هذا .

قال الألوسي : ويؤيده قوله - تعالى - بعد عامهم هذا ، فإن

(١) راجع تفسير المنار ج ١٠ ص ٣٢٢ وما بعدها .

(٢) تفسير القرطبي ج ١٠ ص ١٠٥ .

تقييد النهى يدل على اختصاص المنهى عنه بوقت من أوقات العام. أى: لا يحجوا ولا يعتمرُوا بعد حج عامهم هذا وهو عام تسعة من الهجرة... ويدل عليه نداء على - كرم الله وجهه - يوم نادى ببراءة ألا لا يحج بعد عامنا هذا مشرك، وكذا قوله - سبحانه - «وإن خفتم عبلة، أى: فقراً بسبب منعهم، لما أبهم كانوا يأتون فى الموسم بالمتاجر، فإنه إنما يكون إذا منعوا من دخول الحرم كما لا يخفى» (١)

ثم قال: والحاصل أن الإمام الأعظم يقول بالمنع عن الحج والعمرة ويحمل النهى عليه، ولا يمنعون عنه من دخول المسجد الحرام ومن دخول سائر المساجد، (٢).

٤ - قال القرطبي: فى هذه الآية دليل على أن تعلق القلب بالأسباب فى الرزق جائز، وليس ذلك بمناف للتوكل، وإن كان الرزق مقدرًا، ولكنه علقه بالأسباب لتظهر القلوب التى تتعلق بالأسباب، من القلوب التى تنوكل على رب الأرباب وقد تقدم أن السبب لا ينافى التوكل، فى الحديث الذى أخرجه البخارى أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - قال: «لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خفاصًا وتروح بطانًا» (٣) - أى: تغدو صباحًا وهى جياع، وتعود عشية وهى ممتلئة البطون - .

هذا، وبتدبر آيات السورة الكريمة - من أولها إلى هنا - زاهًا قد وضحت العلاقات النهائية بين المسلمين وبين المشركين عبدة الأوثان، وفعلت كثيرا من الأحكام التى تخص الفريقين، ومن ذلك أنها قررت:

١ - براءة الله ورسوله من عهود المشركين الذين مردوا على نقض

المواثيق .

(١) تفسير الألوسى ج ١٠ ص ٦٨ .

(٢) تفهيم القرطبي ج ١٠ ص ١٠٧ - بتصرف يسير -

٢ - إعطاؤهم مهلة مقدارها أربعة أشهر يتدبرون خلالها أمرهم ، دون أن يتعرض المسلمون لهم بسوء .

٣ - إعلان الناس جميعاً يوم الحج الأكبر بهذه البراءة . . .

٤ - أمر المؤمنين بإتمام مدة العهد لمن حافظ من المشركين على عهده .

٥ - بيان ما يجب على المؤمنين فعله إذا ما انقضت أشهر الأمان التي أعطيت للمشركين .

٦ - إرشاد المؤمنين إلى أن من الواجب عليهم تأمين المشرك المستجير بهم حتى يسمع كلام الله ، ويطلع على حقيقة الإسلام . . . ثم توصيله إلى موضع أمنه إن لم يسلم .

٧ - بيان الأسباب التي تدعو إلى قتال المشركين ، وإلى وجوب البراءة منهم .

٨ - بيان بعض الحكم والأسرار التي من أجلها شرع الجهاد في الإسلام .

٩ - بيان أن المشركين ليسوا أهلاً لعبارة مساجد الله . . . وأن الذين هم أهل لذلك : المؤمنون الصادقون .

١٠ - توجيه المؤمنين إلى أن إيمانهم يحتم عليهم أن يؤثروا بحبة الله ورسوله على أي شيء آخر ، من الآباء والأبناء والإخوان .

١١ - تذكيرهم بجانب من نعم الله عليهم حيث نصرهم في مواطن كثيرة ونصرهم يوم غزوة حنين ، بعد أن هزموا في أول المعركة دون أن تنفعهم كثرتهم التي أعجبوا بها .

١٢ - نهيمهم عن تمسك المشركين من قربان المسجد الحرام ، وإزالة الوسوس التي قد تخطر ببالهم بسبب هذا النهي ، بأن وعدهم سبحانه . بأنه سيعطيهم من فضله ما يغنيهم عن المكاسب التي تأتيهم عن طريق تبادل المنافع مع المشركين في موسم الحج .

هذه أهم الموضوعات التي تعرضت لها سورة التوبة. في ثمان وعشرين آية من أولها إلى هنا . وهي موضوعات وضحت . كما أسلفنا . الأحكام النهائية في علاقات المسلمين بالمشر كين عبدة الأوثان .

ثم سافت السورة الكريمة بعد ذلك سبع آيات بينت فيها ما يجب أن يكون عليه موقف المسلمين من المنحرفين من أهل الكتاب ، كما حكمت بعض أفواهم الذميمة ، وأفعالهم القبيحة ، ، التي تدعو المسلمين إلى قتالهم حتى يخضعوا لسلطان الإسلام ، وقد بدئت هذه الآيات بقوله . تعالى .

قَاتِلُوا

الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٢٩﴾

قال الإمام الرازي : أعلم أنه لما ذكر . سبحانه . حكم المشركين في إظهار البراءة من عهدهم ، وفي إظهار البراءة عنهم في أنفسهم ، وفي وجوب مقاتلتهم ، وفي تبعيدهم عن المسجد الحرام . . . ذكر بعده حكم أهل الكتاب ، وهو أن يقاتلوا إلى أن يعطوا الجزية فحينئذ يقرون على ما هم عليه بشرائط ، ويكونوا عند ذلك من أهل الذمة والعهد (١) .

وقال ابن كثير ما ملخصه : هذه الآية أول أمر نزل بقتال أهل الكتاب - اليهود والنصارى . وكان ذلك في سنة تسع ، ولهذا تجوز رسول الله ﷺ - لقتال الروم ، ودعا الناس إلى ذلك ، وأظهره لهم ، وبعث إلى أحياء العرب حول المدينة ، فندبهم فأرعبوا معه ، واجتمع من المقاتلة نحو من ثلاثين ألفا ، وتخلف بعض الناس من أهل المدينة .

ومن حولها من المنافقين وغيرهم ، وكان ذلك في عام جدد ، ووا
 حقيقظ وحر . وخرج رسول الله ﷺ . يريد الشام لقتال الروم ، ف
 تبوك ، ونزل بها ، وأقام بها قريباً من عشرين يوماً ، ثم استخار الله
 الرجوع ، فرجع عامه ذلك لضيق الحال ، وضعف الناس (١) .

وقوله : « قاتلوا الذين » أمر منه . سبحانه . للمؤمنين بقتال
 الكتاب ، وبيان للأسباب التي انتضت هذا الأمر ، وهي أنهم :

أولاً : « لا يؤمنون بالله ، لأنهم لو كانوا مؤمنين به إيماناً صحيحاً
 لاتبعوا رسوله محمداً ﷺ ، ولأن منهم من قال : « عزيز ابن الله »
 ومنهم من قال : « المسيح ابن الله » .

وقولهم هذا كفر صريح ، لأنه . سبحانه . منزه عما يقولون .
 قال . تعالى . : « قل هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد .
 يكن له كفواً أحد » .

وثانياً : أنهم « لا يؤمنون باليوم الآخر » على الوجه الذي أدركه . تعا .
 به ، ومن كان كذلك كان إيمانه . على فرض وجوده . كلاً إيماناً .
 قال الجمل ما ملخصه : فان قلت : اليهود والنصارى يزعمون أنهم يؤمنون
 بالله واليوم الآخر فكيف نفى الله عنهم ذلك ؟

قلت : إن إيمانهم بهما باطل لا يفيد ، بدليل أنهم لم يؤمنوا بالنبي ﷺ
 فلما لم يؤمنوا به كان إيمانهم بالله واليوم الآخر كالعدم فصح نفيه في ال
 ولأن إيمانهم بالله ليس كإيمان المؤمنين ، وذلك أن اليهود يعتقدون
 التجسيم والتشبيه ، والنصارى يعتقدون الحلول ، ومن اعتقد ذلك فليد
 بمؤمن بالله بل هو مشرك بالله .

وأيضاً فإن إيمانهم باليوم الآخر ليس كإيمان المؤمنين ، وذلك لأنهم يعتقدون بعث الأرواح دون الأجساد ، وأن أهل الجنة لا يأكلون فيها ولا يشربون ولا ينكحون - أى أنهم يرون نعيم الجنة وعذاب النار يتعلقان بالروح فقط ولا شأن للجسد بذلك . ومن اعتقد ذلك فليس لإيمانه كإيمان المؤمنين وإن زعم أنه مؤمن (١) .

وثالثاً : أنهم لا يحرمون ما حرم الله ورسوله ، أى : أنهم لا يحرمون ما حرمه الله ورسوله محمد ﷺ . فى القرآن والسنة ، وفضلاً عن ذلك فهم لا يلتزمون ما حرّمته شريعتهم على السنة رسالهم ، وإنما غيروا وبدلوا فيها على حسب ما تمليه عليهم أهواؤهم .

أى أنهم لا يحرمون ما حرّمه الله لا فى شريعتنا ولا فى شريعتهم .
فاليهود - بجانب كفرهم بشريعتنا - لم يطيعوا شريعتهم ، بدليل أنهم استحلوا أكل أموال الناس بالباطل مع أنها . أى شريعتهم . فتهتم عن ذلك .
قال - تعالى - : « وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكاهم أموال الناس بالباطل . . . » (٢) .

والنصارى - بجانب كفرهم - أيضاً - بشريعتنا - لم يطيعوا شريعتهم . بدليل أنهم استحلوا الرهبانية مع أن شريعتهم لم تشرع لهم ذلك .
قال - تعالى - : « ثم قفينا على آثارهم برسلنا ، وقفينا بعيسى ابن مريم وآتيناه الإنجيل ، وجعلنا فى قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فإرحموا حق رعايتهم . » (٣) -

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٣ ص ٣٧٥ .

(٢) سورة النساء . الآية ١٦ .

(٣) سورة الحديد .

ورابعاً : « لا يدينون دين الحق » .

وقوله : « يدينون » بمعنى يعتقدون ويطيعون . يقال : فلان يدين .
بكذا إذا اتخذ دينه ومعتقده وأطاع أوامره ونواهيه .

والمراد بدين الحق : دين الإسلام الناسخ لغيره من الأديان .
أى : أنهم لا يتخذون دين الإسلام ديناً لهم ، مع أنه الدين الذى
ارتضاه الله لعباده ، والذى لا يقبل - سبحانه - ديناً سواه .
قال - تعالى - : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى
ورضيت لكم الإسلام ديناً » (١) .

وقال - تعالى - : « ومن يفتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه ، وهو فى
الآخرة من الخاسرين » (٢) .

وبصح أن يكون المراد بدين الحق . ما يشمل دين الإسلام وغيره من
الأديان السماوية التى جاء بها الأنبياء السابقون .

أى : ولا يدينون بدين من الأديان التى أنزلها الله على أنبيائه ، وشرعها
لعباده ، وإنما هم يتبعون أحبارهم ورهبانهم فيما يحلون لهم ويحرمونه عليهم .
وعبر عنهم فى قوله . « قاتلوا الذين لا يؤمنون .. » بالاسم الموصول
للإيدان بعلمية ما فى حين الصلة للأمر بالقتال

أى أن العلة فى الأمر بقتالهم ، كونهم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ،
ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ، ولا يدينون دين الحق .

وقوله . « من الذين أوتوا الكتاب » ، بيان للمتصفين بهذه الصفات الأربعة .
وهم اليهود والنصارى ؛ لأن الحديث عنهم ، وعن الأسباب التى توجب قتالهم .

« (٢) سورة المائدة . الآية ٣ . (٢) سورة آل عمران الآية ٨٥ .

والمراد بالكتاب : جنسه الشامل للتوراة والانجيل .

أى : قاتلوا من هذه صفاتهم ، وهم اليهود والنصارى الذين أعطاهم الله التوراة والانجيل - عن طريق موسى وعيسى - عليهما السلام - وليكنهم لم يعملوا بتعاليمهما وإنما عملوا بما تمليه عليهم أهوائهم وشهواتهم . والمنصود بقوله . من الذين أوتوا الكتاب ، تميزهم عن المشر كين عبد الأوثان فى الحكم ، لأن حكم هؤلاء قتالهم حتى يسلّموا ، أما حكم أهل الكتاب فهو القتال ، أو الاسلام ، أو الجزية :

وقوله : « حتى يعطوا الجزية عن يدوهم صاغرون » ، غاية لانتهاء القتال أى . قاتلوا من هذه صفاتهم من أهل الكتاب ، حتى يعطوا الجزية عن طوع وإتقياد ، فإن فعلوا ذلك فأنزكو قتالهم .

والجزية . ضرب من الخراج يدفعه أهل الكتاب للمسلمين وهى - كما يقول القرطبى : - من جزى بجزى - مجازاة - إذا كافأ أسدى إليه . فكانهم أعطوها للمسلمين جزاء ما منحوا من الأمن ، وهى كالقعدة والجلسة ، ومن هذا المعنى قول الشاعر :

يجزبك أو يشنى عليك وإن من أننى عليك بما فعلت فقد جزى (١)
والمراد بإعطائها فى قوله : « حتى يعطوا الجزية » . التزام دفعها وإن لم يجىء الوقت المحدد لذلك .

واليد هنا : يحتمل أن تكون كناية عن الاستسلام والانتقياد . أى : حتى يعطوا الجزية عن خضوع وإتقياد .

ويحتمل أن تكون كناية عن الدفع نقداً بدون تأجيل . أى : حتى يعطوها نقداً بدون تسويق أو تأخير .

ويحتمل أن تكون على معناها الحقيقية ، وعن بمعنى الباء أى : حتى يعطوها بيدهم إلى المسلمين لا أن يعيشوا بها بيد أحد سواهم . وهذه المادى للبد إنما تتأق إذا أريد بها يد المعطى . أى : يد الكتابى .

أما إذا أردنا بها اليد الآخذة - وهي يد الحاكم المسلم - ففي هذه الحالة يكون معناها القوة والقهر والغلبة .

أى : حتى يعطوها عن يد غالبية قوية لا قبل لهم بالوقوف أمامها .
ورحم الله صاحب الكشف فقد قال قوله : د عن يد ، إما أن يراد يد المعطى أو الآخذ فعناه على إرادته يد المعطى حتى يعطوها عن يده ، أى عن يد مؤاتيه غير متمنعه ؛ إذ أن من أبى وأمتنع لم يعط يده ، بخلاف المطيع المنقاد ، ولذلك قالوا : أعطى بيده ، إذا أنقاد وأصبح - أى : سهل بعد صعوبة - ألا ترى إلى قولهم : نزع يده عن الطاعة ، كما يقال : خلع ربة الطاعة عن عنقه .

أو المعنى : حتى يعطوها عن يد إلى يد نقدا غير نسيئة ، لأمبعوثا بها على يد أحد ، ولكن يد المعطى إلى يد الآخذ .

ومعناه على إرادة يد الآخذ : حتى يعطوها عن يد قاهرة مستولية - وهي يد المسلمين - أو حتى يعطوها عن إنعام عليهم ، لأن قبول الجزية منهم ، وترك أرواحهم لهم ، نعمة عظيمة عليهم ، (١)

وقوله : د وهم صاغرون ، من الصغار بمعنى الذل والهوان . يقال : صغر فلان يصغر صغراً صغاراً إذا ذل وهان وخضع لغيره .

والمعنى : قاتلوا من هذه صفاتهم من أهل الكتاب حتى يدفعوا لهم الجزية عن طوعية وأنفياد . وهم أذلاء خاضعون لو لا يتسكن عليهم ... فإن الدين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، ولا يجرمون ما حرمه الله ورسوله . ولا يتخذون الدين الحق ديناً لهم . يستحقون هذا الهوان فى الدنيا ، أما فى الآخرة فعذابهم أشد وأبقى هذا .

ومن الأحكام التى أخذها العلماء من هذه الآية ما يأتى :

١ - إن هذه الآية أصل في مشروعية الجزية ، وأنها لا تؤخذ إلا من أهل الكتاب عند كثير من الفقهاء - لأن أهل الكتاب هم الذين يخيرون بين الإسلام أو القتال أو الجزية ، أما غيرهم من مشركى العرب فلا يخيرون إلا بين الإسلام أو القتال .

قال القرطبي ما ملخصه : وقد اختلف العلماء فيمن تؤخذ منه الجزية فقال الشافعى : لا تقبل الجزية إلا من أهل الكتاب خاصة ، عربا كانوا أو عجماء لهذه الآية : فإنهم هم الذين خصوا بالذكر فتوجه الحكم إليهم دون من سواهم ، لقوله تعالى . فى شأن المشركين - : فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ، ولم يقل : حتى يعطوا الجزية كما قال فى أهل الكتاب . وقال الشافعى : وتقبل من المجوس لحديث : سنوا بهم سنة أهل الكتاب ، أى : فى أخذ الجزية منهم .

وبه قال أحمد وأبو ثور . وهو مذهب الثورى وأبى حنيفة وأصحابه وقال الأوزاعى : تؤخذ الجزية من كل عابدين أو نار أو جاحد أو مكذوب وكذلك مذهب مالك : فإنه يرى أن الجزية تؤخذ من جميع أجناس الشرك والجدد ، عربيا أو عجميا تغلبيا أو قرشيا ؛ كائنا من كان إلا المرتد . . . (١) ٢ - أن أخذ الجزية منهم إنما هو نظير ما ينالهم د وكفنا عن قتالهم ، ومساهمة منهم فى رفع شأن الدولة الإسلامية التى أمنتهم وأموالهم وأعراضهم ومعتقداتهم ، ومقدساتهم . . . وإقرار منهم بالخضوع لتعاليم هذه الدولة وأنهم متى التزموا بدفعها وجب علينا حمايتهم ، ورعايتهم ، ومعاملتهم بالعدل والرفق والرحمة . . .

وفى تاريخ الإسلام كثير من الأمثلة التى تؤيد هذا المعنى ، ومن ذلك ، ما جاء فى كتاب الخراج لأبى يوسف أنه قال فى خطابه لهارون الرشيد : وينبغى يا أمير المؤمنين - أيدك الله - أن تتقدم فى الرفق بأهل ذمة نبيك

(١) تفسير القرطبي ج ٨ ص ١١٠ طبعة دار الكتب المصرية

سنة ١٣٨٥ ١٩٦١ م

هو ابن عمك محمد ﷺ - والتنفد لهم حتى لا يظلموا ولا يؤذوا ولا يكلفوا فوق طاقتهم ، ولا يؤخذ شيء من أموالهم إلا بحق يجب عليهم ؛ فقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . أنه قال : من ظلم من أمتي معاهداً أو كلفه فوق طاقتة فأنا حجيجه .

وكان فيما تسكلم عمر بن الخطاب عند وفاته : أوصى الخليفة من بعدى بزمة رسول الله صلى الله عليه وسلم . أن يوفى لهم بعهدهم ، وأن يقاتل من ورائهم ولا يكلفوهم فوق طاقتهم ، (١) .

وجاء في كتاب « أشهر مشاهير الإسلام » ، وأن جيوش التتار ، لما اكتسحت بلاد الإسلام من حدود الصين إلى الشام ، ووقع في أسرهم من وقع من المسلمين والنصارى ثم خضد المسلمون شوكة ، التتار ودان ملوكهم بالإسلام ، خاطب شيخ الإسلام ابن تيميه ، أمير التتار بإطلاق الأسرى فسمح له بالمسلمين وأبى أن يسمح بأهل الذمة ، فقال له شيخ الإسلام : لا بد من إطلاق جميع من معك من اليهود والنصارى الذين هم أهل ذمتنا ولا ندع أسيراً إلا من أهل الملة ، ولا من أهل الذمة ، فأطلقهم له ، (٢) .
وجاء في كتاب « الإسلام والنصرانية » ، الأستاذ الإمام محمد عبده ما ملخصه :
« . . . الإسلام كان يكتفي من الفتح بادخال الأرض المفتوحة تحت سلطانه ، ثم يترك الناس وما كانوا عليه من دين . ثم يكلفهم بحرية يدفعونها لتكون عوناً على صيانتهم والمحافظة على أمنهم في ديارهم ، وهم في عقائدهم ومعاييدهم وعاداتهم بعد ذلك أحراراً ، لا يضايقون في عمل ، ولا يضامون في معاملة .

خلفاء المسلمين كانوا يوصون قوادهم باحترام العباد الذين انقطوا عن العامة في الصوامع والأديرة للعبادة ، كما كانوا يوصونهم باحترام دماء النساء والأطفال وكل من لم يعن على القتال .

(١) كتاب الخراج لأبي يوسف ص ١٤

(٢) تفسير القاسمي ج ٨ ص ٣١٢

جاءت السنة بالنهي عن إيذاء أهل الذمة، وبتقرير ما لهم من الحقوق على المسلمين ، « لهم مالنا وعليهم ما علينا ، و « من آذى ذميا فليس منا » .
واستمر العمل على ذلك ما استمرت قوة الإسلام . ولست أبالي إذا انحرف بعض المسلمين عن هذه الأحكام عندما بدأ الضعف في أبناء الإسلام فضيق الصدر من طبع الضعيف .

ثم قال : أما المسيحية فترى لها حق القيام على كل دين يدخل تحت سلطانها تراقب أعمال أهله، وتخصم دون الناس بضروب من المعاملة لا يحتملها الصبر مهما عظم ، حتى إذا تمت لها القدرة على طردهم - بعد العجز عن إخراجهم من دينهم - طردهم عن ديارهم، وغسلت الديار من آثارهم، كما حصل ويحصل في كل أرض استولت عليها أمة مسيحية استيلاء حقيقيا .
ولا يمنع غير المسيحي من تعدى المسيحي إلا كثرة العدد أو شدة العصد ، كما شاهد التاريخ ، وكما يشهد كذبوه .

ثم قال : فأنت ترى الإسلام يكتفي من الأمم والطوائف التي يغلب على أرضها ، بشيء من المال ، أقل مما كانوا يؤدونه من قبل تغلبه عليهم ، وبأن يعيشوا في هدوءه ، لا يعكرون معه صفو الدولة ، ولا يخلون بنظام السلطة العامة ، ثم يرخص لهم بعد ذلك عنان الاختيار في شئونهم الخاصة بهم ، لا رقيب عليهم فيها سوى ضمائرهم (١) .

وقال الشيخ القاسمي ماملخصة : قال السيوطي : استدل بقوله . تعالى .
« وهم صاغرون » ، من قال إنها تؤخذ بإهانة، بأن يجلس الآخذ ويقوم الذي
ويطأ رأسه ، ويحنى ظهره ، ويقبض الآخذ لحيته . . . الخ .

وقد رد الإمام ابن القيم على هذا اللقائل بقوله : هذا كله مما لا دليل عليه ، ولا هو من مضمضى الآية ، ولا نقل عن رسول الله - ﷺ - ولا عن أصحابه .

والصواب في الآية ، أن الصغار : هو التزامهم بجرىان أحكام الله عليهم ، وإعطاء الجزية ، فإن ذلك هو الصغار ، وبه قال الشافعي (١) .
والذي نراه أن ما قاله الإمام ابن القيم في رده هو عين الصواب ، وأن ما نقله السيوطي عن بعضهم . . . يتنافى مع سماحة الإسلام وعدله ورحمته بالناس هذا ، وهناك أحكام أخرى تتعلق بالجزية لا مجال لذكرها هنا ، فليرجع إليها من شاء في بعض كتب الفقه والتفسير (٢) .
وبعد أن بين - سبحانه - بعض رذائل أهل الكتاب على سبيل الإجمال ، أتبع ذلك بتفصيل هذه الرذائل ، فحكى أقوالهم الباطلة ، وأفعالهم الذميمة ، ونواياهم السيئة فقال - تعالى - :

وَقَالَتِ الْيَهُودُ عِزِّي
أَبْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصْرَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ
يَضَعُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَتَلْنَاهُمْ اللَّهُ أَلَمْ يُوَفِّكُمْ
أَتَّخِذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ
وَمَا أَمْرُوهُ إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَنَهُ عَمَّا
يُشْرِكُونَ (٣١) يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا
أَنْ يَتِمَّ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٣٢) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى
وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٣٣)

(١) تفسير القاسمي ج ٨ ص ٣١٠٨ . (٢) راجع على سبيل المثال تفسير

القرطبي ج ٨ ص ١٠٩ . وتفسير المنار ج ١٠ ص ٣٣١ . وتفسير القاسمي ج ٨ ص ٣١٠٥ .

أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : أتى رسول الله - ﷺ -
سلام بن مشكم ، ونعمان بن أوفى . وشاس بن قيس ، ومالك بن الصيف فقالوا :
كيف فتبعك - يا محمد - وقد تركت قبلتنا ، وأنت لا تزعم أن عزير ابن الله ،
فأنزل الله في ذلك : ، وقالت اليهود عزير ابن الله ، وقالت النصارى المسيح
ابن الله . . . الآية (١) ، .

و ، عزير ، كاهن يهودى سكن بابل سنة ٤٥٧ ق م تقريبا ، ومن أعماله
أنه جمع أسفار التوراة ، وأدخل الأحرف السكندانية عوضا عن العبرانية
القديمة ، وألف أسفار : الأيام ، وعزرا ، ونحميا .
وقد قدسه اليهود من أجل نشره لكثير من علوم الشريعة ، وأطلقوا
عليه لقب « ابن الله » .

قال البيضاوى : وإنما قالوا ذلك - أى : عزير ابن الله - لأنه لم يبق فهم
بعد وقعة « مختصر » - س ٥٨٦ ق م - من يحفظ التوراة . وهو لما أحياه الله
بعد مائة عام أملى عليهم التوراة حفظا فتعجبوا من ذلك وقالوا : ما هذا
إلا لأنه ابن الله (٢) ، .

وقال صاحب المنار ما ملخصه : جاء في دائرة المعارف اليهودية الانكليزية
- طبعة ١٩٠٣ - أن عصر عزرا هو ربيع التاريخ الملى لليهودية الذى
فتحت فيه أزهاره ، وعبق شذا ورده . وأنه جدير بأن يكون هو ناشر
الشريعة . . . (٣) ، .

(١) تفسير ابن جرير ج ١٠ ص ١١٠ .

(٢) تفسير البيضاوى ص ٢٢٣ .

(٣) راجع تفسير المنار ص ٣٧٧ وما بعدها فقيه كلام مفيد عن عقيدة
اليهود والنصارى .

وفد ذكر المفسرون هنا أقوالاً متعددة في الأسباب التي حملت اليهود على أن يقولوا «عزير ابن الله» وأغلب هذه الأقوال لا يؤيدها عقل أو فقل ، ولذا فقد ضربنا عنها «مفحاً» (١).

وقد نسب «سبحانه» القول إلى جميع اليهود مع أن القائل بعضهم ، لأن الذين لم يقولوا ذلك لم ينكروا على غيرهم قولهم ، فكافوا مشاركين لهم في الإثم والضلال ، وفيما يترتب على ذلك من عقاب .

وأما قول النصارى «المسيح ابن الله» فهو شائع مشهور ، ومن أسبابه أن الله تعالى قد خلق عيسى بدون أب على خلاف ما جرت به سنته في التوالد والتناسل ، فقالوا عنه «ابن الله» .

وقد حاجهم «سبحانه» في سورة آل عمران بأن آدم قد خلقه الله من غير أب أو أم ، فكان أولى بنسبة البنوة إليه ، لسكنهم لم ينسبوا إليه ذلك ، فينبغي أن يكون عيسى كآدم .

قال تعالى : «إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون» . الحق من ربك فلا تكن من الممترين . وقوله : «ذلك قولهم بأفواههم» ، ذم لهم على ما نطقوا به من سوء محجة العقل السليم ، والفكر القويم .

أى : ذلك الذى قالوا فى شأن «عزير والمسيح» ، قول تلوكة ألسنتهم فى أقوالهم بدون تعقل ، ولا مستند لهم فيما زعموه سوى افتراءهم واختلاقهم ، فهو من الألفاظ الساقطة التى لا وزن لها ولا قيمة ، فقد قامت الأدلة السمعية والعقلية على استحالة أن يكون لله ولد أو والد أو صاحبة أو شريك .

(١) راجع - على سبيل المثال - تفسير ابن جرير ج ١٠ ص ١١١ -

- وتفسير الألوسى ج ١٠ ص ٧٢ -

قال . تعالى . « إن كل من في السموات والأرض إلا آت الرحمن عبدا »
 لقد أحصاهم وعدهم عدا . وكلهم آتية يوم القيامة فردا ، (١)
 ولقد أنذر . سبحانه . الذين نسبوا إليه الولد بالعقاب الشديد فقال :
 « وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا . ما لهم به من علم ولا لآبائهم ، كبرت
 كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كفا (٢) .

وأسند . سبحانه . القول إلى الأفواه مع أنه لا يكون إلا بها ، لاستحضار
 الصورة الحسية الواقعية ، حتى لا كأنها مسموعة مرئية وليبان أن هذا
 القول لا وجود له في عالم الحقيقة والواقع ، وإنما هو قول لغوي
 ساقط وليد الخيالات والأوهام ، ولزيادة التأكيد في نسبة هذا القول إليهم ،
 أي : أنه قول صادر منهم وليس محكي عنهم .

قال صاحب الكشف . فإن قلت : كل القول يقال بالفم فما معنى
 قوله . ذلك قولهم بأفواههم ؟

قلت : فيه وجهان : أحدهما - أن يراد أنه قول لا يعضده برهان ، فها هو
 إلا لفظ يفوهون به ، فارغ من أي معنى تحته ، كالألفاظ الماهمة التي هي
 أجراس ونغم ، لا تدل على معان . وذلك أن القول الدال على معنى ، لفظه
 مقول بالفم ، ومعناه مؤثر في القلب ، وما لا معنى له مقول بالفم لا غير .
 والثاني - أن يراد بالقول المذاهب ، كقولهم « قول أبي حنيفة » يريدون
 مذهبه وما يقول به . كأنه قيل : ذلك مذهبهم ودينهم بأفواههم لا بقلوبهم ،
 لأنه لا حجة معه ولا شبهة ، حتى يؤثر في القلوب ، وذلك أنهم إذا اعترفوا
 أنه لا صاحبة له لم تبق شبهة في انتفاء الولد ، (٣) .

وقوله : « يضاهئون قول الذين كفروا من قبل ، ذم آخر لهم على
 تقليدهم لمن سبقوهم بدون تعقل أو تدبر .

(١) سورة مريم الآيات ٥٩ ، ٦٠ (٢) سورة الكهف الآية ٥ ، ٦ -

(٣) تفسير الكشف ج ٢ ص ٢٦٤

قال الجمل ما ملخصه قرأ العامة « يضاؤون » بضم الظاء بعدها واو .
 وقرأ عاصم « يضاؤون » — بهاء مكسورة بعدها همزة مضمومة — فقليل
 هما بمعنى واحد وهو المشابهة . وفيه لغتان : ضاهأت وضاهيت . . . (١) .
 والمراد بالذين كفروا من قبل . قيل . أهل مكة وأمثالهم من المشركين
 السابقين الذين قالوا . الملائكة بنات الله وقيل . المراد بهم قدماء أهل
 الكتاب . أى . أن اليهود والنصارى المعاصرين للنبي ﷺ — يشابه
 قولهم في العزيز وعيسى قول آبائهم الأقدمين ، — أى المعاصرون للعهد
 النبوى — قد ورثوا الكفر كابرا عن كابر .

والأولى من هذين الوجهين أن يكون المراد بالذين كفروا من قبل .
 جميع الأمم التى ضلت وانحرفت عن الحق ، وأشركت مع الله فى العبادة
 آلهة أخرى .

قال صاحب المنار . وقد علمنا من تاريخ قدماء الوثنيين فى الشرق والغرب
 أن عقيدة الابن لله والحلول والتثليث . كانت معروفة عند البراهمة فى الهند
 وفى الصين واليابان وقدماء المصريين وقدماء الفرس .

وهذه الحقيقة التاريخية — التى بينها القرآن فى هذه الآية — من معجزاته
 لأنه لم يكن يعرفها أحد من العرب ولا من حولهم ، بل لم تظهر إلا فى
 هذا الزمان ، (٢) .

والمعنى . أن هؤلاء الضالين الذين قال بعضهم ، عزير ابن الله . وقال البعض
 الآخر ، المسيح ابن الله ، ليس لهم على قولهم الباطل هذا دليل ولا برهان ،
 ولكنهم يشابهون ويتابعون فيه قول الذين كفروا من قبلهم من الأمم ، فهم
 على آثارهم بهرعون ، (٣) .

(١) حاشية الجمل على الجلايين ج ٢ ص ٢٧٧ .

(٢) تفسير المنار - بتصرف وتلخيص ج ١ ص ٣٩٩ وراجع تفسير فى ظلال

القرآن ج ١ ص ٢٠٠ (٣) سورة الصافات . الآية ٧٠ .

وقوله . د قاتلهم الله ، تعجيب من شناعة قوتهم ، ودعاء عليهم بالهلاك .
فان من قاتلة الله لا بد أن يقتل . ومن غالبية لا بد أن يغلب .

وعن ابن عباس ، أن معنى د قاتلهم الله ، لعنهم الله وكل شئ في القرآن
قتل فهو لعن (١) .

وقوله : . أى يؤفكون ، تعجيب آخر من انصرافهم الشديد عن الحق
الواضح إلى الباطل المظلم المعقد .

ودأى ، بمعنى كيف . ودأؤفكون ، من الأفك بمعنى الانصراف عن
الشئ . والابتعاد عنه . يقال . أفكته عن الشئ . يأفكه أفكاً . أى ، صرفه عنه
وقلبه . ويقال . أفكت الأرض أفكاً . أى : صرف عنها المطر .

والمعنى : قاتل الله هؤلاء الذين قالوا دعير ابن الله ، والذين قالوا المسيح
ابن الله ، لأنهم بقولهم هذا محل مقت العقلاء وعجبهم ، إذ كيف يصرفون عن
الحق إلى الباطل ، بعد وضوح الدليل على استحالة أن يكون له — تعالى —
ولد أو والد أو صاحبة أو شريك . ١٩٠٠ .

إن ما قالوه ظاهر البطلان وهو محل عجب العقلاء واستنكارهم
وغضبهم .

وقوله . سبحانه . د اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله
والمسيح ابن مريم ، بيان للون آخر من ألوان انحراف اليهود والنصارى
عن الحق إلى الباطل ، وتقرير لما سبقت حكايته عنهم من أقوال فاسدة ،
وأفعال ذميمة .

والضمير في قوله د اتخذوا ، يعود إلى الفريقين الذين حكمت الآية
السابقة ما قالوه من باطل وهتان .

والأحبار علماء اليهود جمع حبر . بكسر الحاء وفتحها - وهو الذى

يحسن القول ويتقنه ، مأخوذ من التحبير بمعنى التحسين والتزيين ، ومنة ثوب مجبر أى جمع الزينة والحسن . والرهبان : علماء النصارى جمع راهب وهو الزاهد فى متع الدنيا ، المنعزل عن الناس مأخوذ من الرهبة بمعنى الخشية والخوف من الله - تعالى .

والمراد باتخاذهم لأحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ، أنهم أطاعوهم فيما أحلوه لهم ، وفيما حرموه عليهم ، ولو كان هذا التحليل والتحرير مخالفاً لشرع الله .

وهذا التفسير مأثور عن رسول الله - ﷺ . فقد روى الامام أحمد والترمذى وابن جرير من طرق عن عدى بن حاتم أنه لما بلغته دعوة رسول الله - ﷺ . فر إلى الشام : وكان قد تنصر فى الجاهلية . فأسرت أخته وجماعة من قومها ، ثم من رسول الله - ﷺ . على أخته وأعطاهما . فرجعت إلى أخيها ، فرغبته فى الاسلام وفى القدوم على رسول الله - ﷺ . فقدم عدى المدينة . وكان رئيساً فى قومه طيء . وأبودحاتم الطائى المشهور بالكرم فنحدث الناس بقدومه ، فدخل على رسول الله - ﷺ . وفى عنق عدى صليب من فضة ، وكان الرسول يقرأ هذه الآية : أنخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله

قال عدى : فقلت . إنهم لم يعبدوهم . فقال . بلى . إنهم حرموا عليهم الحلال ، وأحلوا لهم الحرام ، فأتبعوهم ، فذلك عبادتهم إياهم .

قال ابن كثير : وهكذا قال حذيفة بن اليمان وابن عباس وغيرهما فى تفسير هذه الآية : أنهم أتبعوهم فيما حللوا وحرموا .

وقال السدى : استنصحووا الرجال ، ونبذوا كتاب الله ورا. ظمورهم^(١)

وقال الألوسي : وقيل اتخذهم أرباباً بالسجود لهم ونحوه مما لا يصلح
إلا لله تعالى ، ، وحينئذ فلا مجاز ، إلا أنه لا مقال لأحد بعد صحة
الخبر عن رسول الله ﷺ .

والآية ناعية على كثير من الفرق الضالة الذين تركوا كتاب الله وسنة
رسوله ، لكلام علمائهم ورؤسائهم ، والحق أحق بالاتباع ، فتن ظهر الحق فعلى
المسلم اتباعه وإن أخطأه اجتهد مقلده ، (١) .

وقوله : « والمسيح ابن مريم ، معطوف على قوله ، أحبارهم ، والمفعول
الثاني بالنسبة إليه محذوف أى : اتخذوه رباً وإلهاً .

قال صاحب المنار ما ملخصه : جمع - سبحانه - بين اليهود والنصارى
في اتخاذ رجال دينهم أرباباً بأن أعطوهم حق التشريع فيهم . . . وذكر بعد
ذلك ما انفرد به النصارى دون اليهود من اتخاذهم المسيح رباً وإلهاً يعبدونه
واليهود لم يعبدوا عزيزاً ، ولم يؤثروا عن قال منهم إنه ابن الله ، أنهم عنوا ما يعنيه
النصارى من قولهم في المسيح : إنه هو الله الخالق المدبر لأموال العباد ، « ٢ » ،
وقوله : « وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو . . . » ، جملة
حالية أى : اتخذ هؤلاء المفترون على الله الكذب من اليهود والنصارى
أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ، بأن أطاعوهم فيما يحلون لهم وفيما
يحرمونه عليهم ولو كان ذلك مخالفاً لشرع الله ؛ وكذلك اتخذ النصارى
المسيح ابن مريم رباً وإلهاً .

والحال أنهم جميعاً ما أمروا على السنة رسلمهم إلا بعبادة الله وحده ،
فهم المعبود الذى لا تعنوا الوجوه لإلاله ، ولا يكون الاعتماد لإلاله . .
وكل ما سواه فهو مخلوق له .

وقوله : « لا إله إلا هو ، صفة ثانية لقوله « إله » . أو هو استئناف
مبين لتعليل الأمر بعبادة الله وحده ، وأنه - سبحانه - هو المستحق لذلك
شرعا وعقلا .

وقوله : « سبحانه عما يشركون » تهذيب له عن الشرك والشركاء إثر
الأمر بإخلاص العبادة له .

أى : تنزه الله - عز وجل - وتقدس عن الشركاء والنظراء والأعوان
والأضداد والأولاد ، فهو رب العالمين ، وخالق الخلائق أجمعين . .

قال صاحب الظلال عند تفسيره لهذه الآية ما ملخصه : ومن النص
القرآنى الواضح الدلالة ، ومن تفسير رسول الله ﷺ - للآية وهو فصل
الخطاب ، ثم من مفهومات المفسرين الأوائل والمتأخرين ، تخلص لنا حقائق
فى العقيدة والدين ذات أهمية بالغة نشير إليها هنا بغاية الاختصار وهى :

أن العبادة هى الاتباع فى الشرائع بنص القرآن وتفسير الرسول -
ﷺ . فاليهود والنصارى لم يتخذوا الأحبار والرهبان أربابا بمعنى
الاعتقاد فى ألوهيتهم ، أو تقديم الشعائر التعبدية إليهم ... ومع هذا فقد حكم
الله . سبحانه . عليهم بالشرك فى هذه الآية ، وبالكفر فى آية تالية فى
السياق لمجرد أنهم تلقوا منهم الشرائع فأطاعوها واتبعوها - فهذا وحده دون
الاعتقاد والشعائر يكفى لاعتبار من يفعله مشركا بالله ، الشرك الذى يخرج
من عداد المؤمنين ، ويدخله فى عداد الكافرين .

أن النص القرآنى يسرى فى الوصف بالشرك واتخاذ الأرباب من دون
الله ، بين اليهود الذين قبلوا التشريع من أحبارهم وأطاعوه واتبعوه ، وبين
النصارى الذين قالوا بألوهية المسيح اعتقادا وقدموا إليه الشعائر فى العبادة^(١)

(١) راجع تفسير « فى ظلال القرآن » ، ج ١٠ ص ٢٠٣ للأستاذ سيد
قطب . طبعة دار إحياء التراث العربى الطبعة الخامسة .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك ما يهدف إليه أهل الكتاب من وراء أقوالهم الكاذبة ، ودعواهم الباطلة فقال : يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون .

والمراد بنور الله : دين الإسلام الذي ارتضاه . سبحانه . لعباده ديناً ، وبعث به رسوله - ﷺ - ، وأعطاه من المعجزات والبراهين الدالة على صدقه ، وعلى صحته ما جاء به مما يهدى القلوب ، ويشفى النفوس ، ويجعلها لا تدين بالعبادة والطاعة إلا لله الواحد القهار .

وقيل المراد بنور الله : حججه الدالة على وحدانيته - سبحانه - . وقيل المراد به . القرآن . وقيل المراد به : نبوة النبي - ﷺ - وكلها معانٍ مقاربة .

والمراد بإطفاء نور الله : محاولة طمسه وإبطاله والقضاء عليه ، بكل وسيلة يستطيعها أعداؤه ، كإثباتهم للشبهات من حول تعاليمه ، وكتحريضهم لاتباعهم وأشباعهم على الوقوف في وجهه ، وعلى محاربته .

والمراد بأفواههم . أقوالهم الباطلة الخارجة عن تلك الأفواه التي تنطق بما لا وزن له ولا قيمة . .

والمعنى : يريد هؤلاء الكافرون بالحق من أهل الكتاب أن يقضوا على دين الإسلام ، وأن يطمسوا تعاليمه السامية التي جاء بها نبيه - ﷺ - عن طريق أقوالهم الباطلة الصادرة عن أفواههم من غير أن يكون لها مصداق من الواقع تنطبق عليه ، أو أصل تستند إليه . وإنما هي أقوال من قبيل اللغو الساقط المهمل الذي لا وزن له ولا قيمة . . .

قال الألوسي ما ملخصه : في الكلام استعارة تمثيلية ، حيث شبه سبحانه حال أهل الكتاب في محاولة أبطال نبوة النبي - ﷺ - عن طريق تكذيبهم له ، بحال من يريد أن ينفخ في نور عظيم مثبت في الأفق ليطفئه بنفخة . -

وروعى فى كل من المشبه والمشبه به معنى الإفراط والتفريط ، حيث شبه الإبطال والتكذيب بالإطفاء بالقلم ، ونسب النور إلى الله - تعالى - للعظيم الشأن .

ومن شأن النور المضاف إليه - سبحانه - أن يكون عظيماً . فكيف يطفأ بنفخ القلم (١) . . ١١٩

وقوله : « ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون » ، بشارة منه - سبحانه - للمؤمنين ، وتقرير لسنته التى لا تتغير ولا تتبدل فى جعل العاقبة للحق وأتباعه .

والفعل « يأبى » هنا بمعنى لا يريد أولاً يرضى . أى : أنه جار مجرى النفي ، ولذا صح الاستثناء منه .

قال أبو السعود : وإنما صح الاستثناء المفرغ - وهو قوله « إلا أن يتم نوره » . من الموجب . وهو قوله « ويأبى الله » - لكونه بمعنى النفي ، ولوقوعه فى مقابلة قوله : « يريدون » ، وفيه من المبالغة والدلالة على الامتناع ما ليس فى نفي الإرادة ، أى : لا يريد شيئاً من الأشياء إلا إتمام نوره فيندرج فى المستثنى منه بقاؤه على ما كان عليه ، فضلاً عن الإطفاء .

وفى إظهار « النور » فى مقام الإضمار مضافاً إلى ضميره . سبحانه . زيادة اعتناء بشأنه ، وتشريف له على تشريف ، وإشعار بعاة الحكم (٢) . وجواب « لو » فى قوله « ولو كره الكافرون » ، محذوف لدلالة ما قبله عليه .

والمعنى : يريد أعداء الله أن يطفئوا نور الله بأفواههم ، والحال أن الله

(١) تفسير الآلوسى ج ١٠ ص ٧٦ - بتصرف وتلخيص .

(٢) تفسير أبى السعود ج ٢ ص ٢٦٧ . طبعة صبيح .

- تعالى - لا يريد إلا إتمام هذا النور ، ولو كره الكافرون هذا الإتمام
لأتمه . سبحانه . دون أن يقيم لكرهاتهم وزنا .

فآية الكريمة وعد من الله . تعالى . للمؤمنين باظهار دينهم وإعلاء
كلمتهم لكي يعضوا قدماً إلى تنفيذ ما كلفهم الله به بدون إبطاء أو تناقل ، وهى
فى الوقت نفسة تتضمن فى ثناياها الوعيد لهؤلاء الفضالين وأمثالهم .

- ثم أكد . سبحانه . وعده بإتمام نوره ، وبين كيفية هذا الإتمام
فقال : « هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله
ولو كره المشركون » .

والمراد بالهدى : القرآن الكريم المشتمل على الإرشادات السامية ،
والتوجيهات القويمية ، والأخبار الصادقة ، والتشريعات الحكيمية . .

والمراد بدين الحق : دين الإسلام الذى هو خاتم الأديان .

وقوله « ليظهره على الدين كله » من الإظهار بمعنى الإعلاء والغلبة
بالحجة والبرهان ، والسيادة والسلطان .

والجمله تعليلية لبيان سبب هذا الإرسال والغاية منه .

والضمير فى « ليظهره » يعود على الدين الحق أو الرسول - صلى الله
عليه وسلم - . والمعنى : هو الله . سبحانه . الذى أرسل رسوله محمداً -
ﷺ . بالقرآن الهادى للبنى هي أقوم ، وبالدين الحق الثابت الذى لا ينسخه
دين آخر . وكان هذا الإرسال لإظهار هذا الدين الحق على سائر الأديان
بالحجة والغلبة . . وإظهار رسوله . ﷺ . على أهل الأديان كلها ، بما
أوحى إليه . سبحانه . من هدايات ، وعبادات ، وتشريعات ، وآداب...
فى أتباعها سعادة الدنيا والآخرة .

وختم - سبحانه - هذه الآية بقوله : « ولو كره المشركون » ، وختم التى

قبلها بقوله : « ولو كره الكافرون » ، للاشعار بأن هؤلاء الذين قالوا :
« عزيز ابن الله والمسيح ابن الله » قد جمعوا بسبب قولهم الباطل هذا ،
بين رذيلتي الكفر والشرك ، وأنه . سبحانه . سيظهر أهل دينه على جميع
أهل الأديان الأخرى .

هذا ، وقد ساق الإمام ابن كثير بعض الأحاديث التي تؤيد ذلك ، منها :
ما ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ . أنه قال : « إن الله زوى لى
الأرض مشارقها ومغاربها ، وسيبلغ ملك أمتى ما زوى لى منها » .

وروى الإمام أحمد عن مسعود بن قبيصة أو قبيصة بن مسعود يقول :
« صلى هذا الحى من محارب الصبح ، فلما صلوا قال شاب منهم : سمعت
رسول الله ﷺ . يقول : إنه ستفتح لكم مشارق الأرض ومغاربها ،
وإن عمالها فى النار ، إلا من اتقى الله وأدى الأمانة » .

وروى أيضا عن تميم الدارى قال : سمعت رسول الله ﷺ . يقول :
« ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار . ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر
إلا أدخله هذا الدين . يعز عزيزا ويذل ذليلا ، عزأ يعز الله به الإسلام ،
وذلا يذل الله به الكفر . وكان تميم الدارى يقول : قد عرفت ذلك فى أهل
بيتى . لقد أصاب من أسلم منهم الشرف والخير والعز ، ولقد أصاب من كان
كافرا منهم الذل والصغار والجزية » .

وأخرج أيضا عن عدى بن حاتم قال : دخلت على رسول الله ﷺ . صلى
الله عليه وسلم . فقال : « يا عدى أسلم تسلم » . فقلت يا رسول الله : إني من أهل
دين . قال : « أنا أعلم بدينك منك » . فقلت : أنت أعلم بدينى منى ؟ قال نعم ،
أأست من الركوسية ^(١) . وأنت تأكل من باع قومك ، ^(٢) ؟

(١) الركوسية : بفتح الراء المشددة ، قوم لهم دين بين النصارى والصابئين .

(٢) المربع بمعنى الربع ، كالمعشار بمعنى العشر . وكان الناس فى الجاهلية يعطون =

قلت : بلى ، قال : فإن هذا لا يحل لك في دينك ، .

ثم قال - ﷺ - : « أما إنى أعلم ما الذى يمنعك من الإسلام تقول : إنما اتبعه ضعفة الناس ، ومن لا قوة له ، ومن رمتهم العرب . أتعرف الحيرة ، ؟

قلت : لم أرها وقد سمعت بها .

قال : « فو الذى نفسى بيده ليتعن الله هذا الأمر ، حتى تخرج الطعينة من الحيرة ، حتى تطوف بالبيت من غير جوار أحد . ولتفتحن كنوز كسرى ابن هرمز ، .

قلت : كسرى بن هرمز ؟ قال : « نعم . كسرى بن هرمز . وليبذلن المال حتى لا يقبله أحد ، .

قال عدى بن حاتم : فهذه الطعينة تخرج من الحيرة ، فتطوف بالبيت من غير جوار أحد . ولقد كنت فيمن فتح كنوز كسرى بن هرمز . والذى نفسى بيده لتكونن الثالثة ، لأن رسول الله - ﷺ - قد قالها (١) .

وإلى هنا نرى أن هذه الآيات السكرية قد كذبت أهل الكتاب في قولهم « عزيز ابن الله والمسيح ابن الله ، ، وأرشدتهم إلى الطريق الحق الواضح المستقيم ليسيروا عليه ، ووبختهم على تشبههم في هذه الأقوال الباطلة بمن سبقهم من الضالين ، وعلى انقيادهم لأخبارهم ورهباتهم بدون تعقل أو تدبر ، وبشرت المؤمنين بظهور دينهم الذى ارتضاه الله لهم على الأديان كلها . ثم ختم - سبحانه - الحديث عن أهل الكتاب بتوجيه نداء إلى المؤمنين

= رئيسهم ربع ما يغمونه خالصا له دون أن يشاركه فيه أحد . وكان عدى رئيسا لقومه .

بين لهم فيه بعض الرذائل التي انغمس فيها الأحرار والرهبان ، وكيف جمعوا بين ضلال أنفسهم وإضلال أتباعهم ، حيث أمروا هؤلاء الأتباع بالانقياد لهم فيما يأتون ويذرون . . . فقال - تعالى - :

يَتَأْتِيهَا

الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ
النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ
وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾
يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فُتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ
هَٰذَا مَا كُنْتُمْ لَأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾

قال الفخرى الرازى : اعلم أنه - تعالى - لما وصف رؤساء اليهود والنصارى بالتكبر والتجبر وادعاء الربوبية والترفع على الخلق ، وصفهم في هذه الآية بالطمع والحرص على أخذ أموال الناس ، قنبيها على أن المقصود من إظهار تلك الربوبية والتجبر والفخر ، أخذ أموال الناس بالباطل .
ولعمري من تأمل أحوال أهل الناموس والتزوير في زماننا وجد هذه الآيات كأنها ما أنزلت إلا في شأنهم . وفي شرح أحوالهم ، فبرى الواحد منهم يدعى أنه لا يلتفت إلى الدنيا ، ولا يتعلق خاطره بجميع المخلوقات ، وأنه في الطهارة والعصمة مثل الملائكة المقربين ؛ حتى إذا آل الأمر إلى الرغيف الواحد تراه يتهالك عليه ؛ ويتحمل نهاية الذل والدناءة في تحصيله (١) .
والمراد بالأكل في قوله ؛ « لَيَأْكُلُونَ » ، مطلق الأخذ والانتفاع .
وعبر عن ذلك بالأكل ، لأنه المقصود الأعظم من جمع الأموال ، فسمى الشيء باسم ما هو أعظم مقاصده ، على سبيل المجاز المرسل ، بعلاقة العلية .
والعلة لـ . . . أكلها . . .

سفلتهم عن طريق الرشوة والتدليس أو التحايل أو الفتاوى الباطلة . كما يتناول ما سوى ذلك مما كانوا يأخذونه بغير وجه حق .

وأسند - سبحانه - هذه الجريمة - وهى أكل أموال الناس بالباطل - إلى كثير من الأحناف والرهبان ولم يسندها إلى جميعهم ، إحصافاً للعدد القليل منهم الذى لم يفعل ذلك ، فإن كل طائفة أو جماعة لا تخلو من وجود أفراد من بينها يتعففون عن الحرام ، ويقيدون أنفسهم بالحلال . قال صاحب المنار : وإسناد هذه الجريمة المزرية إلى الكثيرين منهم دون جميعهم من دقائق تحرى الحق فى عبارات الكتاب العزيز ، فهو لا يحكم على الأمة الكبيرة بفساد جميع أفرادها أو فسقهم أو ظلمهم ، بل يسند ذلك إلى الكثير أو الأكثر ، أو يطالع اللفظ العام ثم يستثنى منه .

فمن الأول قوله - تعالى - فى اليهود : وترى كثيراً منهم يسارعون فى الإثم والعدوان وأكلمهم السحت لبئس ما كانوا يعملون . لولا ينهاتهم الربانيون والأحناف عن قولهم الإثم وأكلمهم السحت لبئس ما كانوا يصنعون (١) . ومن الثانى قوله - تعالى - فى اليهود أيضاً : دقل يا أهل الكتاب هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل وأن أكثركم فاسقون (٢) . ومن الثالث قوله - سبحانه - فى شأن المحرفين للكلم الطاعنين فى الإسلام من اليهود - أيضاً - : ومن الذين هادوا يجرئون الكلام عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا ، واسمع غير مسمع ، وراعنا لئلا بالسنتهم وطعننا فى الدين ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا لكان خيراً لهم وأقوم ، ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً (٣) .

وقد فہنا فى تفسير هذه الآيات وأمثالها على العدل الدقيق فى أحكام القرآن على البشر وإنما نكرره لعظم شأنه . . . (٤) .

(١) سورة المائدة الآيتان ٦٢ ، ٦٣ (٢) سورة المائدة الآية ٥٩ :

(٣) سورة النساء الآية ٤٦ (٤) تفسير المنار ج ١٠ ص ٤٦٢ - بتصرف يسير

وقوله : « ويصدون عن سبيل الله » جريمة من جرائمهم الكثيرة .
والصد : المنع والصرف عن الشيء .. وسبيل الله : دينه وشريعته .
أى ، أن هؤلاء الكثيرون من الأحرار والرهبان لا يكتفون بأكل أموال
الناس بالباطل ، بل إنهم يضيفون إلى ذلك جريمة ثافية من جرائمهم المتعددة
وهى إنهم ينصرفون عن الدين الحق وهو دين الإسلام انقياداً لأحكامهم
وشهواتهم ، ويصرفون أتباعهم عنه بشتى الوسائل ، كأن يصفوه لهم بأنه
دين باطل ، أو بأن رسوله — صلى الله عليه وسلم — ليس هو الرسول
الذى بشرت به الكتب السماوية السابقة إلى غير ذلك من وسائلهم
المتنوعة فى صرف الناس عن الحق .

والاسم الموصول فى قوله : « والذين يكتزون الذهب والفضة
ولا ينفقونها فى سبيل الله . . . » يرى بعضهم أن المراد به أولئك الأحرار
والرهبان ، لأن الكلام مسوق فى ذمهم ، وتكون هذه الجملة ذماً لهم على
رذيلة ثالثة هى الحرص والبخل ، بعد ذمهم على رذيلتى أكل أموال الناس
بالباطل والصد عن سبيل الله .

ويرى آخرون أن المراد بهم البخلاء من المسلمين ، وأن الجملة مستأنفة
لأن ما نعى الزكاة بقريظة قوله : « ولا ينفقونها فى سبيل الله » ويكون نظمهم
مع أهل السوء من الأحرار والرهبان من باب التحذير والوعيد والاشارة إلى
أن الأشحاء المانعين لحقوق الله ، مصيرهم كمصير الأحرار والرهبان فى
استحقاق والبشارة بالعذاب .

وترى طائفة ثالثة من العلماء أن المراد به كل من كثر المال ، ولم يخرج
الحقوق الواجبة فيه ، سواء أكان من المسلمين أم من غيرهم ، لأن اللفظ
مطلق ، فيجب إجرأؤه على إطلاقه وعمومه ، إذ لم يرد ما يقيد أو يخصه
وقوله : « يكتزون » من الكثر ، وأصله فى اللغة العربية — كما يقول
القرطبي — الضم والجمع ، ولا يختص ذلك بالذهب والفضة . ألا ترى قوله

— صلى الله عليه وسلم — « ألا أخبركم بخير ما يكتز المرء المرأة الصالحة »
 أى : بخير ما يضمه لنفسه ويجمعه ، وقال الشاعر :

لادر درى إن أطعمت جائعهم قرفُ الحق وعندى البر مكنوز
 وقرف الحنى : هو سويق المقل — والمقل ثمر شجر الدوم ينضج فيؤكل
 يقول : إنه نزل بقوم فكان قراه عندهم سويق المقل ، وهو الحنى ، فلما
 نزلوا به قال ما قال . . . (١) .

ويقال : كنزت التمر فى الوعاء إذا جمعته فيه . وكل شيء مجموع بعضه
 إلى بعض فى بطن الأرض أو على ظهرها فهو كنز ، وجمعه كنوز .
 وخص الذهب والفضة بالذكر ، لأنهما الأصل الغالب فى الأموال :
 ولأنهما هما اللذان يقصدان بالكنز أكثر من غيرهما ولا يكتزهما كما يقول
 الزمخشري — إلا من فضلا عن حاجته ، ومن كثر اعنده حتى يكتزهما لم يعد
 سائر أجناس المال ، فكان ذكر كنزهما دليلا على ما سواهما .

وقال الفخر الرازى ما ملخصه : ذكر — سبحانه — شيئين هما الذهب
 والفضة ثم قال : « ولا ينفقونها » - وكان الظاهر أن يقول « ولا ينفقونهما »
 والجواب من وجهين .

الأول : أن الضمير عائد إلى المعنى دون اللفظ ، لأن كل واحد منهما
 جملة وافية ؛ وعدة كثيرة ودنانير ودراهم . فهو كقوله — تعالى — « وإن
 طائفتان من المؤمنين اقتتلوا . . . » (٢) .

أو أن يكون التقدير : « والذين يكتزون السككوز ولا ينفقونها فى سبيل
 الله » فيكون الضمير عائد إلى السككوز المدلول عليها بالفعل « يكتزون » ،
 الثانى : أن يكون الضمير عائد إلى اللفظ ، ويكون ذكر أحدهما يغنى

(١) تفسير القرطبي ج ٨ ص ١٢٣ .

(٢) سورة الحجرات الآية ٩ .

- عن ذكر اليوم الآخر ، كقوله - تعالى - وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها (١) جعل الضمير للتجارة . . . (٢)

وقوله : « فبشرهم بعذاب أليم » خبر الموصول .
والتعبير بالبشارة من باب التذكير بهم ، والسخرية منهم ، فهو كقولهم :
تحية لهم الضرب ؛ ولم كرامهم الشتم .

وقوله : « يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم
وظهورهم . . . » تفصيل لهذا العذاب الأليم ، وبيان لميقاته ، حتى يقطع
البخلاء عن بخلهم ، والأشحاء عن شحهم . . .

والظرف « يوم » منصوب بقوله : « عذاب أليم » ؛ أو بفعل محذوف
يدل عليه هذا القول .

أى : يعذبون يوم يحمى عليها . أو بفعل مقدر ؛ أى : اذكري يوم يحمى عليها .
وقوله « يحمى » يجوز أن يكون من حميت وأحميت - ثلاثيا ورباعيا -
بقال : حميت الحديد وأحميتها ، أى : أوقدت عليها لتحمى .

وقوله : « عليها » جار ومجرور في موضع رفع لقيامه مقام الفاعل . ويجوز
أن يكون القائم مقام الفاعل مضمرا . أى : يحمى الوقود أو الحجر عليها .
قال الآلوسی : وأصله تحمى بالنار من قولك : حميت الميسم وأحميته
فجعل الإحماء للنار مبالغة ؛ لأن النار في ذاتها ذات حمى ، فإذا وصفت بأنها
تحمى دل على شدة توقدها . ثم حذفت النار ، وحول الإسناد إلى الجار
والمجرور تنبيها على المقصود بأنهم وجه فانتقل من صيغة التأنيث إلى التذكير

(١) سورة الجمعة الآية ١١

(٢) تفسير الفخر الرازي ج ١٦ ص ٤٧ - تصرف وتلخيص

(٩ - سورة التوبة)

كما تقول : رفعت القصة إلى الأمير . فإذا طرحت القصة وأسند الفعل إلى الجار والمجرور قلت : رفع إلى الأمير . وقرا ابن عامر د تحمى ، بالتاء . بإسناده إلى النار كأصله ، (١) .

والمعنى : بشر - يا محمد - أوامرك الذين يكتفزون الأموال في الدنيا ولا ينفقونها في سبيل الله ، بالعذاب الآليم يوم الحساب يوم تحمى النار المشتعلة على تلك الأموال التي لم يؤدوا حق الله فيها ، فتكوى بها جباههم أى : فتحرق بها جباههم التي كانوا يستقبلون بها الناس ، والتي طالما أرتفعت غرورا بالمال المكتنوز ، وتحرق بها - أيضا - د جنوبهم ، التي كثيرا ما انتفخت من شدة الدبع وغيرها جانح ، وتحرق بها كذلك د ظهورهم ، التي نبذت وراها حقوق الله بحجود وبطر . . .

قال صاحب الكشف : فإن قلت : لم خصت هذه الأعضاء بالكي ؟ قلت : لأنهم لم يطلبوا بأموالهم - حيث لم ينفقوها في سبيل الله - إلا الأغراض الدنيوية ، من وجاهة عند الناس ، وتقدم ، وأن يكون ماء وجوههم مصونا عندهم ، يتلقون بالجميل ويحيون بالإكرام ، ويبخلون ويحتشمون ومن أكل طيبات يتضامعون منها وينفخون جنوبهم ، ومن لبس ناعمة من الثياب يطرحوها على ظهورهم ، كما ترى أغنياء زمانك هذه . أغراضهم وطلباتهم من أموالهم ، لا يخطر عليهم قول رسول الله ﷺ . ذهب أهل الدثور بالأجر كله .

وقيل : لأنهم كانوا إذا أبصروا الفقير عبسوا ، وإذا ضمهم وإياه . مجلس أذكروا عنه ، وتولوا بأركانهم ، وولوه ظهورهم . (٢) .
وقوله : هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون ، مقول لقول . محذوف .

(١) تفسير الآاوسى : ج ١٠ ص ٧٨

(٢) تفسير الكشف ج ٢ ص ٢٦٨

والتقدير : تقول لهم ملائكة العذاب على سبيل التبكيت والتوبيخ، وهي تقول حرق جباههم وجنوبهم وظهورهم: هذا العذاب الأليم النازل بكم في الآخرة هو جزاء ما كنتم تكذبونه في الدنيا من مال لمنفعة أنفسكم دون أن تؤدوا حق الله فيه . فذوقوا رحدكم وبال كنزكم . وتجرعوا غصصه ، وتحملوا سوء عاقبته فأنتم الذين جنيتم على أنفسكم ، لأنكم لم تشكروا الله على بل استعملتموها في غير ما خلقت له .

هذا ، ومن الأحكام والآداب التي أخذها العلماء من هاتين الآيتين ما يأتي .

١ - التحذير من الانقياد لدعاة السوء، ومن تقليد هم في رذائلهم وفبايحهم ووجوب السير على حسب ما جاء به الإسلام من تعاليم وتشريعات . . . ولذا قال ابن كثير عند تفسيره للآية الأولى : والمقصود التحذير من علماء السوء ، وعباد الضلال . كما قال سفيان بن عيينه : من فسد من علمائنا كان فيه شبه من أحبار اليهود ، ومن فسد من عبادنا كان فيه شبه من رهبان النصارى .

وفي الحديث الصحيح : لتركبن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة، قالوا اليهود والنصارى ؟ قال : د فن ، ؟ وفي رواية : فارس والروم ؟ قال : د فن الناس إلا هؤلاء ، : والحاصل التحذير من التشبه بهم في أقوالهم وأحوالهم ، (١)

هذا ، ونص الحديث الصحيح الذي ذكره الإمام ابن كثير - كما رواه الشيخان - هكذا عن أبي سعيد الخدري أن النبي ﷺ . قال : د لتبعن سنن من قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع . حتى لو سلكوا جحر ضب لسلكتموه ، قلنا : يا رسول الله ، اليهود والنصارى ؟ قال : فن (٢)

(١) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٢٥٠

(٢) أخرجه الترمذي في باب ما ذكر عن بنى إسرائيل ، ج ٤ ص ٢٠٦

طبعة مصطفى الحلبي سنة ١٣٤٥ هـ

أما الحديث الذى جاء فيه حذو القذة بالقذة ، فقد أخرجه الإمام أحمد عن شداد بن أوس ونصه : « ليحملن شرار هذه الأمة على سنن الذين خلوا من قبلهم . أهل الكتاب . حذو القذة بالقذة » (١) .

٢ - يرى جمهور العلماء أن المقصود بالكنز فى قوله . تعالى . « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها . . الخ » المال الذى لم ترد زكاته . أما إذا أدبت زكاته فلا يسمى كنزا ، ولا يدخل صاحبه تحت الوعيد الذى اشتملت عليه الآية .

وقد وضع الإمام القرطبى هذه المسألة فقال : « واختلف العلماء فى المال الذى أدبت زكاته هل يسمى كنزا أولا ؟ »

فقال قوم : نعم . رواه أبو الضحا عن جعدة بن هبيرة عن علي قال : أربعة آلاف فما دونها نفقة ، وما أكثر فهو كنز وإن أدبت زكاته ، ولا يصح . وقال قوم : ما أدبت زكاته مثله أو من غيره عنه فليس بكنز قال ابن عمر ما أدبت زكاته فليس بكنز وإن كان تحت سبع أرضين . وكل ما لم تؤذ زكاته فهو كنز وإن كان فوق الأرض . ومثله عن جابر ، وهو الصحيح .

وروى البخارى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله - ﷺ - من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته ، مثل له يوم القيامة شجاعا أقرع له زيبتان يطوقه يوم القيامة ، ثم يأخذ بلهزمتيه - يعنى شدقيه - ثم يقول : أنا مالك أنا كنزك . . .

وفيه أيضا عن أبى ذر قال : انتهيت إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - فقال : والذى نفسى بيده ، ما من رجل تكون له إبل أو بقرة أو غنم ، لا يؤدى حقها ، إلا أتى بها يوم القيامة أعظم ما تكون وأسمه ، تطوقه بأخفافها ، وتنطحه

(١) راجع المسند ج ٤ ص ١٢٥ . طبعة عيسى الحلبي . تحقيق الأستاذ أحمد شاكر .

بقرونها ، كلما جازت آخرها ردت عليه أولها حتى يقضى بين الناس ، .
فدل دليل خطاب هذين الحديثين على صحة ما ذكرنا . وقد بين ابن عمر
في صحيح البخارى هذا المعنى . قال له أعرابي : أخبرنى عن قول الله . تعالى :-
والذين يكنزون الذهب والفضة . . الآية ، فقال ابن عمر : من كنزها فلم
يؤد زكاتها فوبل له ، إنما كان هذا قبل أن تنزل الزكاة ، فلما أنزلت جعلها
الله طهراً للأموال .

وروى أبو داود عن ابن عباس قال : لما نزلت هذه الآية . والذين
يكنزون الذهب والفضة . . ، كبر ذلك على المسلمين . فقال عمر : أنا أفرج
عنكم . فانطلق فقال : يا نبي الله ، إنه كبر على أصحابك هذه الآية .
فقال - ﷺ - : . وإن الله لم يفرض الزكاة إلا ليطيب ما بقى من أموالكم ،
وإنما فرض الموارد لتكون لمن بعدكم ، قال : فكبر عمر . ثم قال له
رسول الله - ﷺ - : . ألا أخبرك بخير ما يكنز المرء ؟ المرأة الصالحة ،
إذا نظر إليها سرته ، وإذا أمرها أطاعته ، وإذا غاب عنها حفظته ، (١)

٣ - أخذ بعض الصحابة من هذه الآية تحريم اكتناز الأموال التى
تفيض عن حاجات الإنسان الضرورية .

قال ابن كثير : كان من مذهب أبي ذر - رضى الله عنه - تحريم ادخار
ما زاد على نفقة العيال ، وكان يفتى بذلك ، ويحثهم عليهم ويأمرهم به ،
ويغلظ فى خلافه . فتناه معارضة فلم ينته . فخشى أن يضر بالناس فى هذا ،
فكتب يشكوه إلى أمير المؤمنين عثمان ، وأن يأخذه إليه ، فاستقدمه عثمان
إلى المدينة وأنزله بالربذة - وهى بلدة قريبة من المدينة - وبها مات -
رضى الله عنه فى خلافه عثمان .

وروى البخارى فى تفسير هذه الآية عن زيد بن وهب قال : مرت

بالربذة ، فإذا بأبي ذر ، فقلت له : ما أنزلك بهذه الأرض ؟ قال : كنا بالشام فقرأت ، والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم ، . فقال معاوية : ما هذه فينا ما هذه إلا في أهل السكتاب . قال : قلت : إنما لفينا وفيهم . .

ثم قال ابن كثير : وفي الصحيح أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال لأبي ذر : ما يسرنى أن عندى مثل أحد ذهباً يمر على ثلاثة أيام وعندى منه شيء إلا دينار أرصده لدين ، فهذا - والله أعلم - هو الفى حدا أباذر على القول بهذا ،^(١)

وقال الشيخ القاسمى : قال ابن عبد البر : وردت عن أبي ذر آثار كثيرة تدل على أنه كان يذهب إلى أن كل مال مجموع يفضل عن القوت وسداد العيش ، فهو كنز يذم فاعله . وأن آية الوعيد نزلت في ذلك .

وخالفه جمهور الصحابة ومن بعدهم ، وحملوا الوعيد على مانع الزكاة ، وأصح ما تمسكوا به حديث طلحة وغيره في قصة الأعرابي حيث قال : هل على غيرها ؟ قال : لا ، إلا أن تطوع ،^(٢) .

وحديث طلحة الفى أشار إليه ابن عبد البر ، قد جاء في صحيح البخارى ونصه : عن طلحة بن عبيد الله قال : جاء رجل إلى رسول الله - ﷺ - من أهل نجد نائر الرأس يسمع دوى صوته ولا يفقه ما يقول حتى دنا فإذا هو يسأل عن الإسلام .

فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - خمس صلوات في اليوم والليلة ، فقال : هل على غيرها ؟ قال : لا . إلا أن تطوع ، قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وصيام رمضان ، قال : هل على غيره ؟ قال :

(١) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٣٤٢ - بتصرف وتليخى .

(٢) تفسير القاسمى ج ٨ ص ٣١٢٧

سألا إلا أن تطوع ، قال . وذكر له رسول الله ﷺ - الزكاة ، قال . هل على غيرها ؟ قال . لا إلا أن تطوع .

قال . فأدبر الرجل وهو يقول . والله لا أزيد على ذلك ولا أنقص . فقال رسول الله ﷺ - أفلح إن صدق ، (١) .

هذا ؛ ومما استدل به جمهور الصحابة ومن بعدهم من العلماء ، على عدم حرمة اقتناء الأموال التي تفيض عن الحاجة — مادام قد أدى حق الله فيها — ما يأتي .

(١) أن قواعد الشرع لا تحرم ذلك، وإلا لما شرع الله المواريث، لأنه لو وجب إنفاق كل ما زاد عن الحاجة ، لما كان لمشروعية المواريث فائدة .
(ب) ثبت في الحديث الصحيح أن سعد بن أبي وقاص عندما كان مريضاً ، وزاره رسول الله ﷺ - قال له . : يا رسول الله : أوصني بما لي كله ؟ قال . لا . قال سعد فالشطر ؟ قال لا . قال سعد . فالثلث ؟ فقال له - ﷺ = فالثلث والثلث كثير . إنك أن تدع ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس في أيديهم ، (٢) .

ولو كان جمع المال واقتناؤه محرماً ، لأمر النبي ﷺ - سعدا على التصديق بجميع ماله ، ولأمر المسلمين أن يحذوا حذو سعد ، وإسكته ﷺ - لم يفعل ذلك ، بل قال لسعد : إنك أن تدع ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس ، . . .

وقد كان في عهده - ﷺ - من الصحابة من يملكون الكثير من الأموال — كعثمان بن عفان ، وعبد الرحمن بن عوف وغيرهما — ومع هذا فلم يأمرهم بإنفاق كل ما زاد عن حاجتهم الضرورية .

(١) صحيح البخارى . ج ١ ص ١٨٨ باب : الزكاة من الاسلام . من كتاب الايمان .
(٢) صحيح البخارى ج ٣ ص ٣٨٠ باب : أن ترك ورثته أغنياء . من كتاب الوصايا

قال القرطبي : قرر الشَّعْ ضَبْطُ الْأَمْوَالِ وَأَدَاءُ حَقِّهَا . ولو كان ضَبْطُ -
الْمَالِ مَمْنُوعاً ، لَمَكَانَ حَقُّهُ أَنْ يُخْرَجَ كُلُّهُ ، وَلَيْسَ فِي الْأَمَةِ مِنْ يُلْزَمُ هَذَا .
وَحَسْبُكَ حَالُ الصَّخَابَةِ وَأَمْوَالِهِمْ - رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ - وَأَمَّا مَا ذَكَرَ عَنْ
أَبِي ذَرٍّ فَهُوَ مَذْهَبُ لَهُ (١) .

(ج) مَا وَرَدَ مِنْ آثَارٍ فِي ذَمِّ الْكَنْزِ وَالْكَانِزِينَ كَانَ قَبْلَ أَنْ تُفَرِّضَ -
الزَّكَاةُ أَوْ هُوَ فِي حَقِّ مَنْ أَمْتَنَعَ عَنْ أَدَاءِ حَقِّهِ فِي مَالِهِ .

قال صاحب الكشاف . فَنَ قَلْتُ فَمَا تَصْنَعُ فِي قَوْلِهِ - ﷺ = « مِنْهُ
تَرَكَ صَفَرَاءَ أَوْ بَيْضَاءَ كَوَيْبَهَا » .

قُلْتُ . كَانَ هَذَا قَبْلَ أَنْ تُفَرِّضَ الزَّكَاةَ ، فَأَمَّا بَعْدَ فَرَضِهَا ، فَاللَّهُ أَعْدَلَ
وَأَكْرَمَ مِنْ أَنْ يَجْمَعَ عَبْدُهُ مَا لَا مِنْ حَيْثُ أُذِنَ لَهُ فِيهِ ، وَيُودَى عَنْهُ مَا أَوْجِبَ
عَلَيْهِ فِيهِ ، ثُمَّ يَعْاقِبُهُ .

وَلَقَدْ كَانَ كَثِيرٌ مِنَ الصَّخَابَةِ كَعَبِيدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ وَطَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ
يَقْتَنُونَ الْأَمْوَالَ وَيَتَصَرَّفُونَ فِيهَا ، وَمَا عَابَهُمْ أَحَدٌ مِمَّنْ أَعْرَضَ عَنِ الْقَنِيَةِ
لِأَنَّ الْأَعْرَاضَ اخْتِيَارَ لِلْأَفْضَلِ ، وَالْاِقْتِنَاءَ مَبَاحَ مُوسِعٍ لَا يَذْمُ صَاحِبُهُ ،
وَلِكُلِّ شَيْءٍ حَدٌّ (٢) .

٤ - أَنْ الْإِسْلَامَ وَإِنْ كَانَ قَدْ أَبَاحَ لِلْمُسْلِمِ اِقْتِنَاءَ الْمَالِ - بَعْدَ أَدَاءِ حَقِّ
اللَّهِ فِيهِ - إِلَّا أَنَّهُ أَمَرَ أَتْبَاعَهُ أَنْ يَكُونُوا مُتَوَسِّطِينَ فِي حُبِّهِمْ لِهَذَا الْاِقْتِنَاءِ ،
حَتَّى لَا يَشْغَلَهُمْ حُبُّ الْمَالِ عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ .

وَرَحِمَ اللَّهُ الْإِمَامَ الرَّازِي ، فَقَدْ قَالَ عِنْدَ تَفْسِيرِهِ لِهَذِهِ الْآيَاتِ مَا مَخْصَصُهُ .
أَعْلَمُ أَنَّ الطَّرِيقَ الْحَقَّ أَنْ يَقَالَ . الْأَوَّلَى أَنْ لَا يَجْمَعَ الرَّجُلُ الطَّالِبُ لِلدِّينِ .

المال الكثير . إلا أنه لم يمنع عنه في ظاهر الشرع . فالأول محمول على التقوى والثاني على ظاهر الفتوى .

أما بيان أن الأولى الاحتراز عن طلب المال الكثير فبوجوه منها .

أن كثرة المال سبب لكثرة الحرص في الطلب، والحرص متعب للروح والنفس والقلب . . . والعافل هو الذي يحترز عما يتعب روحه ونفسه وقلبه . أن كسب المال شاق شديد ؛ وحفظه بعد حصوله أشد وأشق وأصعب . فيبقى الإنسان طول عمره تارة في طلب التحصيل؛ وأخرى في تعب الحفظ أن كثرة الجاه والمال تورث الطغيان ، كما قال — تعالى — «إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى» (١) .

هنا ، وقد ساق الإمام ابن كثير جملة من الأحاديث في ذم التكسر من الذهب والفضة ، ومن ذلك ما رواه الإمام أحمد عن حسان بن عطية قال : كان شداد بن أوس — رضى الله عنه — في سفر ، فنزل منزلاً فقال لغيره : أتينا بالسفرة فعبث بها ، فأنكرت عليه ذلك . فقال : ما تكلمت بكلمة منذ أسلمت إلا وأنا أحطمها وأزمها غير كلمتي هذه فلا تحفظوها عني واحفظوا ما أقول لكم : سمعت رسول الله — ﷺ — يقول : إذا كنز الناس الذهب والفضة ، فأكنز هؤلاء الكلمات : اللهم إني أسألك الثبات في الأمر ، والعزيمة على الرشد ؛ وأسألك شكر نعمتك ، وأسألك حسن عبادتك ، وأسألك قلباً سليماً ، وأسألك لساناً صادقاً ، وأسألك من خير ما تعلم ، وأعوذ بك من شر ما تعلم ، وأستغفر لك لما تعلم . إنك علام الغيوب (٢) .

وبعد : فهذه سبع آيات عن أهل الكتاب ، بدأت — بقوله تعالى وقاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر . . . وانتهت بقوله تعالى — : « فذوقوا ما كنتم تكفرون » .

١، تفسير الفخر الرازي ج ١٦ ص ٤٥

٢، تفسير ابن كثير ج ١ ص ١٠٠

وقد بينت هذه الآيات ما يجب أن يكون عليه موقف المؤمنين منهم ، وكشفت عن أقوالهم الباطلة ، وعن جحود رؤسائهم للحق ، وعن انقياد : عامتهم للضلال ، وعن استحلال كثير من أحبارهم ورجالهم لمحرّم الله . . . ثم عادت السورة بعد ذلك إلى تسكّلة الحديث عن أحوال المشركين السيئة ، وعن وجوب مقاتلتهم ، فقال تعالى :

إِنَّ عِدَّةَ

الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يَقْتُلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضِلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُطَاعُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْنٌ لَهُمْ سُوءٌ أَعْمَلِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٧﴾

قال صاحب المنار . هاتان الآيتان عود إلى الكلام في أحوال المشركين . وما بشرع من معاملاتهم بعد الفتح ، وسقوط عصبيّة الشرك ، وكان الكلام قبل هاتين الآيتين — في قتال أهل الكتاب وما يجب أن ينتهي به من إعطاء الجزية من قبيل الاستطراد ، اقتضاه ما ذكر قبله من أحكام قتال المشركين ومعاملتهم . وقد ختم الكلام في أهل الكتاب ببيان حال كثير من رجال الدين الذين أفسدت عليهم دينهم المطاعم المالية ، التي هي وسيلة العظمة الدنيوية والشهوات الحيوانية ، وإنذار من كانت هذه حالهم بالعذاب الشديد يوم القيامة وجعل هذا الإنذار موجهاً إلينا وإليهم جميعاً . . .

والعدة — في قوله . إن عدة الشهور — : على وزن فعلة من العدد وهي
بمعنى المعدود . قال الراغب : العدة : هي الشيء المعدود . قال — تعالى ،
وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة ، وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ،
أى : وما جعلنا عددهم إلا فتنة للذين كفروا

والشهور : جمع شهر . والمراد بها هنا : الشهور التي تتألف منها السنة
القمرية وهي شهور . المحرم ، وصفر ، وربيع الأول .
وهذه الشهور عليها مدار الأحكام الشرعية ، وبها يعتد المسلمون
في عبادتهم وأعيادهم وسائر أمورهم .

والمراد بقوله : د يوم خلق السموات والأرض ، : الوقت الذي خلقهما
فيه ، وهو ستة أيام كما جاء في كثير من الآيات ، ومن ذلك قوله — تعالى —
إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على
العرش

والمعنى : إن عدد الشهور د عند الله ، أى : في حكمه وقضائه د اثنا عشر
شهرأ هي الشهور القمرية التي عليها يدور فلك الأحكام الشرعية .
وقوله د في كتاب الله ، أى : في اللوح المحفوظ .

قال القرطبي : وأعاده بعد أن قال د عند الله د لأن كثيراً من الأشياء
يوصف بأنه عند الله ، ولا يقال إنه مكتوب في كتاب الله ، لقوله إن الله عنده
علم الساعة

وقيل معنى د في كتاب الله ، أى فيما كتبه — سبحانه — وأثبتته . وأوجب
على عباده العمل به منذ خلق السموات والأرض .

قال الجمل : وقوله . في كتاب الله ، صفة لاثني عشر ، وقوله : (يوم خلق السموات والأرض ، متعلق بما تعلق به الظروف قبله من معنى الثبوت والاستقرار . أو بالكتاب ، إن جعل مصدراً .

والمعنى : أن هذا أمر ثابت في نفس الأمر منذ خلق الله الأجرام والأزمنة ، أى : أن المقصود من هذه الآية السكينة ، بيان أن كون الشهود كذلك حكم أثبتته — سبحانه — في اللوح المحفوظ منذ أوجد هذا العالم ، وبينه لآبائنا على هذا الوضع . . فمن الواجب اتباع ترتيب الله لهذه الشهور ، والتزام أحكامها ونبذ ما كان يفعله أهل الجاهلية من تقديم بعض الشهور أو تأخيرها أو الزيادة عليها ، أو انتهاك حرمة المحرم منها .
وقوله : « منها أربعة حرم ، صفة لقوله (اثنا عشر) ،

وقوله . (حرم) جمع حرام — كسب جمع سحاب — مأخوذ من الحرمة وذلك لأن الله تعالى — أوجب على الناس احترام هذه الشهور ، ونهى على القتال فيها :

وقد أجمع العلماء على أن المراد بها ذى القعدة ، وذى الحجة ، والمحرم ، ورجب ، وبذلك تظاهرت الأخبار عن رسول الله — ﷺ — .

فقد أخرج البخاري عن أبي بكر عن النبي ﷺ — أنه قال في خطبة حجة الوداع — إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض . السنة اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم . ثلاث متواليات : ذوالقعدة

و ذوالحجة ، والمحرم ، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان ٢٤ .

وسماه — ﷺ — رجب مضر ، لأن بني ربيعة بن نزار كانوا يحرمون شهر رمضان ويسمونه رجباً وكانت قبيلة مضر تحرم رجباً نفسه ، لذا قال — ﷺ — فيه « ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان » .

قال ابن كثير . وإنما كانت الأشهر المحرمة أربعة : ثلاثة سرد . وواحد

١٤٠ ، حاشية الجمل ج ٢ ص ٢٨٠ .

٢٤ ، صحيح البخاري ج ٦ ص ٨١ — كتاب التفسير .

فرد لأجل أداء مناسك الحج والعمرة فخرم قبل أشهر الحج شهراً وهو ذو القعدة لأنهم يرفعون فيه الحج ، ويستغلون بأداء المناسك . وحرّم بعده شهر آخر هو المحرم ، ليرجعوا فيه إلى أقصى بلادهم آمنين . وحرّم رجب في وسط الحول لأجل زيارة البيت والاعتبار به لمن يقدم إليه من أقصى جزيرة العرب ، فيزوره ثم يعود إلى وطنه آمناً (١) .

واسم الإشارة في قوله : (ذلك الدين القيم) يعود إلى ما شرعه الله - تعالى من أن عدة الشهور اثنا عشر شهراً ومن أن منها أربعة حرم .

والقيم : القائم الثابت المستقيم الذي لا يتواء فيه ولا اعوجاج أى : ذلك الذي شرعناه لكم من كون عدة الشهور كذلك ، ومن كون منها أربعة حرم : هو الدين القويم ، والشرع الثابت الحكيم ، الذي لا يقبل التغيير أو التبديل .. لا ما شرعه أهل الجاهلية لأنفسهم من تقديم بعض الشهور وتأخير بعضها استجابة لأهوائهم وشهواتهم ، وإرضاء لزعمائهم وسادتهم .

والضمير المؤنث في قوله : فلا تظلموا فيهن أنفسكم ، يرى ابن عباس أنه يعود على جميع الشهور أى : فلا تظلموا في الشهور الاثني عشر أنفسكم ، بأن تفعلوا فيها شيئاً مما نهى الله عن فعله ، ويدخل في هذا النهى هتك حرمة الأشهر الأربعة الحرام دخولاً أولياً .

ويرى جمهور العلماء أن الضمير يعود إلى الأشهر الأربعة الحرم ، لأنه إليها أقرب ؛ لأن الله تعالى قد خص هذه الأربعة بمزيد من الاحترام تشریفاتها وقد رجح ابن جرير ما ذهب إليه الجمهور فقال ما ملخصه : وأولى الأقوال في ذلك عندى بالصواب قول من قال : فلا تظلموا في الأشهر الأربعة أنفسكم باستحلال حرامها ، فإن الله عظمها وعظم حرمتها .

وعن قتادة : إن الله اصطفى صفاء يامن خلقه ، اصطفى من الملائكة رسلاً ، ومن الناس رسلاً ، واصطفى من الكلام ذكره . واصطفى من الأرض المساجد واصطفى من الشهور رمضان والأشهر الحرم . واصطفى من الأيام يوم الجمعة

واصطفى من الليالى ليلة القدر . فعظموا ما عظم الله ، فإنما تعظم الأمور بما عظمها الله عند أهل الفهم . . فإن قال قائل : فإن كان الأمر على ما وصفت ، فقد يكون مباحا لنا ظلم أنفسنا في غير دن من سائر شهور السنة .

قيل : ليس ذلك كذلك . بل ذلك حرام علينا في كل وقت . ولكن الله عظم حرمة هؤلاء الأشهر وشرفهن على سائر شهور السنة ، فخص الذنب فيهن ، بالتعظيم كما خصهن بالتشريف ، وذلك نظير قوله - تعالى - « حافظوا على الصلوات والصلوة والوسطى » ، ولا شك أن الله قد أمرنا بالمحافظة على الصلوات المفروضة كلها بقوله : « حافظوا على الصلوات » . ولم يبح ترك المحافظة عليهن بأمره بالمحافظة على الصلاة الوسطى . ولكنه تعالى - زادها تعظيما ، وعلى المحافظة عليهما توكيذا ، وفي تضييعهما تشديدا ، فكذلك في قوله « منها أربعة حرم ذلك الدين القيم فلا تظلموا فيهن أنفسكم » .

وقد كانت الجاهلية تعظم هذه الأشهر الحرم وتحرم القتال فيهن ، حتى لو لقي الرجل منهم فيهن قاتل أبيه لم يجهده ، (١) .

وقال القرطبي : لا يقال كيف جعلت بعض الأزمنة أعظم حرمة من بعض فإننا نقول : للبارئ - تعالى - أن يفعل ما يشاء ، ويخص بالفضيلة ما يشاء . ليس لعمله علة ، ولا عليه حرج ، بل يفعل ما يريد بحكمته ، وقد تظهر فيه الحكمة وقد تخفى ، (٢) .

وقوله : « قاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة » تحريض للمؤمنين على قتال المشركين بقلوب مجتمعة ، وعزيمة صادقة .

وكلمه « كافة » ، مصدر في موضع الحال من ضمير الفاعل في « قاتلوا » ، أو من المفعول وهو لفظ المشركين . ومعناها : جميعا .

قالوا : وهذه الكلمة من الكلمات التي لا تشئ ولا تجمع ولا تدخلها أل ولا تعرب إلا حالا فهي ملتزمة للأفراد والتأنيث مثل : عامة وخاصة (٣) .

(١) تفسير ابن جرير ج ١٠ ص ١٢٧ (٢) تفسير القرطبي ج ٨ ص ١٣٦

(٣) راجع تفسير الألوسي ج ١٠ ص ٨٢ . وتفسير المنار ج ١٠ ص ٤٨٤ .

أى : قاتلوا أيها المؤمنون - المشركين جميعاً ، كما يقاتلونكم جميعاً ، بأن
تكونوا في قتالكم لهم مجتمعين متعاونين متناصرين ، لا مخلصين ولا متخاذلين
وقوله : واعلموا أن الله مع المتقين ، تفصيل قصد به إرشادهم إلى ما
ينفعهم في قتالهم لأعدائهم بعد أمرهم به .

أى : واعلموا - أيها المؤمنون أن الله تعالى - مع عباده المتقين بالعون
والنصر والتأييد ، ومن كان الله معه فلن يخلبه شيء فكونوا - أيها المؤمنون
من عبادة الله المتقين الذين صافوا أنفسهم عن كل ما نهى عنه ؛ لتتألوا عونه وتأيدوه
ثم نعى - سبحانه - على ما كانوا يفعلون من تحليل ونحرىم للشهور على
حسب أهوائهم . . . فقال تعالى - : إنما النسيء زيادة في الكفر . . .
والنسيء : مصدر بزنة فعيل مأخوذ من نساء الشيء إذا أخره . ومنه نساءت
الإبل عن الحوض إذا أخرتها عنه . ومنه : أنسا الله في أجل فلان ، أى أخره
والمراد به : تأخير حرمة شهر إلى شهر آخر .

وقد أشار صاحب الكشف إلى الأسباب التي جعلت المشركين يحلون
الأشهر الحرم فقال : وكانوا أصحاب حروب وغارات ، فإذا جاء الشهر
الحرام وهم محاربون شق عليهم ترك المحاربة ، فيحلونه ويحرمون مكانه
شهر آخر - وكان يشق عليهم أن يمسكوا ثلاثة أشهر لا يغيرون فيها -
حتى رفضوا تخصيص الأشهر الحرم بالتحريم ؛ فكانوا يحرمون من شق شهور
العام أربعة أشهر ، وذلك قوله ، ليوطئوا عدة ما حرم الله ، أى ليوافقوا العدة التي
هي الأربعة ولا يخالفوها وقد خالفوا التخصيص الذي هو أحد الواجبين (١)
والمعنى : إيمى النسيء الذي يفعله المشركون ، من تأخيرهم حرمة شهر
إلى آخر ، زيادة في الكفر ، أى : زيادة في كفرهم ؛ لأنهم قد ضموا
إلى كفرهم بالله كفراً آخر ، هو تحليلهم لما حرمه الله وتحريمهم لما أحله
وبذلك يكون قد جمعوا بين الكفر في العقيدة والكفر في التشريع .

قال القرطبي : وقوله : « زيادة في الكفر ، بيان لما فعلته العرب من جمعها أنواعاً من الكفر . فإنها أنكرت وجود الباري . - تعالى - فقالت : « وما الرحمن) في أصح الوجوه . وأنكرت البعث فقالت (من يحيى العظام وهي رميم » . وأنكرت بعثة الرسل فقالوا : (أبشر أمنا واحداً تتبعه) وزعمت أن التحليل والتحرير لإيها ، فابتدعته من ذاتها مقتفية لشهواتها فأحلت ما حرمه الله : ولا مبدل لكلماته ولو كره المشركون » ١٠ .

وقوله « يضل به الذين كفروا » قرأه الكوفيون بضم الياء وفتح الضاد بالبناء للفعول - .

أى : يوقع الذين كفروا بسبب ارتكابهم للنسيء في الضلال والموقع لهم في هذا الضلال كبرائهم وشياطينهم .

وقرأه أهل الحرمين وأبو عمرو « يضل » بفتح الياء وكسر الضاد بالبناء للفاعل .

أى : يضل الله الذين كفروا ، بأن يخلق فيهم الضلال بسبب مباشرتهم لما أدى إليه وهو ارتكابهم للنسيء .

ويصح أن يكون الفاعل هو الذين كفروا أى يضل الذين كفروا عن الحق بسبب إستعمالهم للنسيء الذى هو لون من ألوان إستحلال محارم الله .

وقوله : (يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ، بيان وتفسير كيفية ضلالهم والضمير المنصوب في (يحلونه ويحرمونه ، يعود إلى النسيء . أى : الشهر المؤخر عن مواعده .

والمعنى أن هؤلاء الكافرين من مظاهر ضلالهم ، أنهم يحلون الشهر المؤخر عن وقته عاماً من الأعوام ، ويحرمون مكانه شهراً آخر ليس من الأشهر الحرم ، وأنهم « يحرمونه » أى : يحافظون على حرمة الشهر الحرام عاماً آخر ، إذا كانت مصلحتهم في ذلك .

١٠ ، تفسير القرطبي ج ٨ ص ١٣٩ .

٢٠ ، تفسير الفخر الرازى ج ١٦ ص ٥٨ - بتصرف يسير .

والمواطأة : الموافقة . يقال : واطأت فلاناً على كذا إذا وافقته عليه .
يعبدون مخالفة .

والمعنى : فعل المشركون ما فعلوه من التحليل والتحریم للأشهر على حسب أهوائهم ، ليوافقوا بما فعلوه عدة الأشهر الحرم ، بحيث تكون أربعة في العدد وإن لم تكن عين الأشهر المحرمة في شريعة الله .

قال ابن عباس : ما أحل المشركون شهراً من الأشهر الحرم إلا حرموا مكانه شهراً من الأشهر الحلال . وما حرموا شهراً من الحلال إلا أحلوا مكانه شهر من الأشهر الحرام ، لكن يكون عدد الأشهر الحرم أربعة ١٠٠٠ .
وقوله : فيحلوا ما حرم الله ، تفريع على ما تقدم .

أى : فيحلوا بتغييرهم الشهور المحرمة ، ما حرمه الله في شرعه . فهم وإن كانوا وافقوا شريعة الله في عدد الشهور المحرمة ، إلا أنهم خالفوه في تخصيصها . فقد كانوا - مثلاً - يستحلون شهر المحرم ويحرمون بدله شهر صفر .
وقوله : زين لهم سوء أعمالهم ، ذم لهم على انتكاس بصائرهم ، وسوء تفكيرهم .

أى : زين لهم الشيطان سوء أعمالهم ، فجعلهم يرون العمل القبيح عملاً حسناً . وقوله : (والله لا يهدي القوم الكافرين ، تذييل قصد به التفسير والتوبيخ للكافرين .

أى : والله تعالى . اقتضت حكمته أن لا يهدي القوم الكافرين إلى طريقه القويم ، لأنهم بسبب سوء اختيارهم أستجبوا العمى على الهدى ، وآثروا طريق الغى على طريق الرشاد . . . فكان أمرهم فرطاً .
هذا ، ومن الأحكام والآداب التي أخذها العلماء من هاتين الآيتين ما يأتي

٢٠ ، تفسير الفخر الرازي ج ١٦ ص ٥٠ بتصرف وتلخيص :
(١٠ - سورة التوبة)

١ - أن السنة اثنا عشر شهراً ، وأن شهور السنة القمرية هي المعول عليها في الأحكام لا شهور السنة الشمسية . . .

قال الفخر الرازي ، أعلم أن السنة عند العرب عبارة عن اثني عشر شهراً من الشهور القمرية ، والدليل عليه هذا الآية - « إن عدة الشهور . . . الآية » . وقوله . تعالى . : « هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب . . . » فجعل تقدير القمر بالمنازل علة للسنين والحساب وذلك إنما يصح إذا كانت السنة معقدة بسير القمر . وأيضاً قوله . تعالى . (يسألونك عن الأهلة ، قل هي مواقيت للناس والحج . . .) .

ثم قال ، وأعلم أن مذهب العرب من الزمان الأول أن تكون السنة قمرية لا شمسية ، وهذا الحكم توارثوه عن إبراهيم وإسماعيل . عليهما السلام . فأما عند اليهود والنصارى ، فليس الأمر كذلك . . . (١) .
وقال الجمل : قوله (اثنا عشر شهراً) هذه شهور السنة القمرية التي هي مبنية على سير القمر في المنازل ، وهي شهور العرب التي يعتد بها المسلمون في صيامهم ومواقيت حجهم وأعيادهم وسائر أمورهم وأحكامهم . وأيام هذه الشهور ثلثمائة وخمسة وخمسون يوماً . والسنة الشمسية عبارة عن دوران الشمس في الفلك دورة تامة ، وهي ثلثمائة وخمسون وستون يوماً . وربع يوم . فتتقصر السنة الهلالية عن السنة الشمسية عشرة أيام ، فبسبب هذا النقصان تدور السنة الهلالية فيقع الصوم والحج تارة في الشتاء وتارة في الصيف (٢) .

هذا ، وقد تكلم بعض المفسرين عن الشهور القمرية ، وعن سبب تسميتها بما سميت به فارجع إليه إن شئت (٣) .
٢ - وجوب التقيد بما شرعه الله من أحكام بدون زيادة أو نقصان عليها .

(١) تفسير الفخر الرازي ج ٢٦ ص ٥٨ .

(٢) حاشية الجمل على الجلالين ج ٢ ص ٢٨ .

(٣) راجع تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٥٣٤ .

قال القرطبي ما ملخصه : وضع . سبحانه . هذه الشهور وسمها بأسمائها على ما رتبها عليه يوم خلق السموات والأرض ، وأنزل ذلك على أنبيائه في كتبه المنزلة ، وهو معنى قوله : (إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً . وحكمها باق على ما كانت عليه لم يزلها عن ترتيبها تغيير المشركين لأسمائها ، وتقديم المقدم في الإسم منها .

والمقصود من ذلك إتباع أمر الله فيها ، ورفض ما كان عليه أهل الجاهلية من تأخير أسماء الشهور وتقديمها .

ولذا قال . ﷺ . في خطبته في حجة الوداع : (إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض . . .) .

ثم قال القرطبي : كانوا يحرمون شهراً فشهرأ حتى لاستدار التحريم على السنة كلها . فقام الإسلام وقد رجع المحرم إلى موضعه الذي وضعه الله فيه . فهذا معنى قوله — ﷺ — . « إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ، (١) .

٣- أخذ بعضهم من قوله تعالى - « فلا تظلموا فيهن أنفسكم » ، أن تحريم القتال في الأشهر الحرم ثابت لم يبدل ، وأنه لا يصح القتال فيها إلا أن يكون دفاعاً .

قال ابن جريج : حلف بالله عطاء بن أبي رباح أنه ما يحل للناس أن يغزوا في الحرم ولا في الأشهر الحرم إلا أن يقاتلوا فيها .

وذهب جمهور العلماء إلى أن تحريم القتال في الأشهر الحرم قد نسخ ، بدليل أن الله - تعالى - بعد أن نهى المؤمنين عن أن يظلموا أنفسهم بالقتال فيها أمرهم بقتال المشركين من غير تقييد من فقال ، وقاتلو المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة . فدل ذلك على أن القتال في الأشهر الحرم مباح :

وبدليل أن النبي - ﷺ - حاصر أهل الطائف في شهر حرام وهو شهر ذي القعدة .

قال ابن كثير : ثبت في الصحيحين أن رسول الله - ﷺ -

خرج إلى هوازن في شوال ، فلما كسرهم ... لجأوا إلى الطائف ، فعمد
- ﷺ - إلى الطائف فحاصرها أربعين يوماً ، وانصرف ولم يفتحها
فثبت أنه حاصر في الشهر الحرام - أي . في شهر ذي القعدة .

ثم قال ما ملخصه : وأما قوله . تعالى - (وقاتلوا المشركين كافة كما
يقاتلونكم كافة) فيحتمل أنه منقطع عما قبله وأنه حكم مستأنف ، ويكون من
باب التهيج للمؤمنين على قتال أعدائهم ... ويحتمل أنه إذن للمؤمنين بقتال
أعدائهم في الشهر الحرام إذا كانت البداية منهم - أي من الأعداء :
كما قال : تعالى : (الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص ، وكما قاله
تعالى - ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم ،
وهكذا الجواب عن حصار رسول الله ﷺ . أهل الطائف واستصحباه
الحصار إلى أن دخل الشهر الحرام ، فانه من تمة قتال هوازن وأحلافها ،
فانهم الذين بدأوا القتال للمسلمين ... فعند ذلك قصدهم رسول الله ﷺ -
فلما تحصنوا بالطائف ذهب إليهم لينزلهم من حصونهم فقاتلوا من المسلمين ،
وقتلوا جماعة منهم ... واستمر حصار المسلمين لهم أربعين يوماً . وكان
ابتدأه في شهر حلال ، ودخل الشهر الحرام فاستمر فيه أياماً ثم قفل
عنهم ، لأنه يغتفر في الدوام مالا يغتفر في الابتداء ، وهذا أمر مقرر (١) :

ومن كلام ابن كثير . رحمه الله - نستنتج أنه يميل إلى القول بأن المنهى
عنه هو ابتداء القتال في الأشهر الحرم ، لا إتمام القتال فيها متى بدأ الأعداء
ذلك وهو قريب من قول القائل : لا يحل القتال فيها ولا في الحرم إلا أن
يكون دفاعاً .

وهذا القول هو الذي تطمئن إليه النفس ، لانه لم يثبت أن الرسول ﷺ
بدأ أعداءه القتال في الأشهر الحرم ، وإنما اثبت أن الأعداء هم الذين
أبتدؤا قتال المسلمين فيها ، فكان موقف المسلمين هو الدفاع عن أنفسهم :

٤ - ذكر المفسرون روايات في أول من آخر حرمة شهر إلى آخر ،
فمن مجاهد قال : كان رجل من بنى كنانة يأتى كل عام إلى الموسم على حمار له
فيقول . أيها الناس . إني لا أعاب ولا أخاب ولا مرد لما أقول . إنا قد
حرمنا المحرم وأخرنا صفر . ثم يجيء العام المقبل بعده فيقول مثل مقالته
ويقول : إنا قد حرمنا صفر وأخرنا المحرم . . .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : هذا رجل من بنى كنانة يقال له
« القلمس » ، وكان في الجاهلية . وكانوا في الجاهلية لا يغير بعضهم على بعض
في الشهر الحرام . يلقى الرجل قاتل أبيه فلا يمد إليه يده . فلما كان هو قال
لقومه : أخرجوا بنا - أى للقتال - . فقالوا له : هذا المحرم . قال : ننسئ
العام ، هى العام صفران . فإذا كان العام القابل قضينا . . جعلنا هما محرمين .
قال : ففعل ذلك . فلما كان عام قابل قال : لا تغزو فى صفر . حرموه
مع المحرم . هما محرمان ، (١) .

وقد كان بعض أهل الجاهلية يتفاخر بهذا النسيء ، ومن ذلك قول
شاعرهم :

ومنا ناسىء الشهر القلمس

قال آخر :

ألسنا الناسئين على معد شهر الحل تجعلها حراما
وقد أبطل الإسلام كل ذلك ، وأمر بترتيب الشهور على مراتبها -
سبحانه . عليه يوم خلق السموات والأرض .

وبعد : فهذه سبع وثلاثون آية من أول السورة إلى هنا ، نراها - فى
مجموعها كما سبق أن بينا - قد حددت العلاقات النهائية بين المسلمين وبين
أعدائهم من المشركون وأهل الكتاب ، كما نراها قد أبرزت الأسباب التى دعت إلى
هذا التحديد بأسلوب حكيم مؤثر ، يقنع العقول ، ويشبع العواطف .

ثم انتقلت السورة بعد ذلك إلى الحديث عن غزوة تبوك وما جرى فيها من أحداث متنوعة ... وقد استغرق هذا الحديث معظم آيات السورة ، لاسيما فيما يتعلق بهتك أستار المنافقين ، والتحذير منهم ... وقد بدأت السورة حديثها عن غزوة تبوك بتوجيه نداء إلى المؤمنين نعت فيه على المشاغلين عن الجهاد ، وحرصت عليه بشتى ألوان التحريض.. فقالت : قال تعالى :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَتَأْتَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ عَ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَمْحِزْنِ إِنَّ اللَّهَ مَعَنا فَانْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾

قال الإمام ابن كثير: هذا شروع في عتاب من تخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك ، حين طابت الثمار والظلال في شدة الحر ، وحمارة القيظ ، (١)

وتبوك : اسم لمكان معروف في أقصى بلاد الشام من ناحية الجنوب ، ويبعد عن المدينة من الجهة الشمالية بحوالى ستائة كيلو متر .

وكانت غزوة تبوك في شهر رجب من السنة التاسعة ، وهى آخر غزوة لرسول الله ﷺ .

وكان السبب فيها أن الرسول ﷺ بلغه أن الروم قد جمعوا له جموعاً كثيرة على أطراف الشام ، وأنهم يريدون أن يذهبوا إلى الجنوب لمهاجمة المدينة . فاستنفر ﷺ الناس إلى قتال الروم ، وكان - ﷺ - قلما يخرج إلى غزوة إلا ورى بغيرها حتى يبقى الأمر سرّاً . . .

واكتفى في هذه الغزوة صرح للمسلمين بوجهته وهى قتال الروم ، وذلك لبعده المسافة ، وضيق الحال ، وشدة الحر ، وكثرة العدو . . .

وقد لبى المؤمنون دعوة رسولهم ﷺ لقتال الروم ، وصبروا على الشدائد ، والمتاعب وبذلوا الكثير من أموالهم . ولم يتخلف منهم إلا القليل .

أما المنافقون وكثير من الأعراب ، فقد تخلفوا عنها ، وحرصوا غيرهم على ذلك ، وحكت السورة . في كثير من آياتها الآتية . ما كان منهم من جبن ومن تخذيل الناس عن القتال ، ومن تحريض لهم على القعود وعدم الخروج .

وبعد أن وصل الرسول ﷺ والمؤمنون إلى تبوك ، لم يجدوا جموعاً للروم . فأقاموا هناك بضع عشرة ليلة ، ثم عادوا إلى المدينة ، (١) . وقوله - سبحانه - : « انفروا ، من النفر وهو التنقل بسرعة من مكان إلى مكان لسبب من الأسباب الداعية لذلك .

يقال : نفر فلان إلى الحرب ينفر وينفر نفراً ونفراً ، إذا خرج بسرعة . ويقال : استنفر الإمام الناس ، إذا حرضهم على الخروج للجهاد . ومنه قوله

(١) لمعرفة تفاصيل غزوة تبوك : راجع « سيرة ابن هشام ، ج ٤

- ﷺ : « وإذا استنفرتم فانفروا ، أى : وإذا دعاكم الإمام إلى الخروج معه للجهاد فاخرجوا معه بدون تفاؤل .

واسم القوم الذين يخرجون للجهاد : النفير والنفرة والنفر .

ويقال : نفر فلان من الشيء ، إذا فرغ منه ، وأدبر عنه ، ومنه قوله تعالى - « وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده ، ولو أعلی أديارهم نفورا (١) » . وقوله : « اثنا قلتم ، بمن الثقل ضد الخفة . يقال : تفاؤل فلان عن الشيء ، إذا تباطأ عنه ولم يهتم به . . . ويقال : تفاؤل القوم : إذا لم ينهضوا لنجدة المستجير بهم . وأصل « اثنا قلتم ، تفاؤلت ، فأبدلت التاء ثاء ثم أدغمت فيهما ، ثم اجتمعت همزة الوصل من أجل التوصل للنطق بالسكون .

والمعنى : يا أيها الذين آمنوا بالله ورسوله ، « ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثنا قلتم إلى الأرض ، أى : ما الذى جعلكم تباطأتم عن الخروج إلى الجهاد ، حين دعاكم رسولكم - ﷺ - إلى قتال الروم ، وإلى النهوض لإعلاء كلمة الله ، ونصرة دينه ؟

وقد ناداهم . سبحانه . بصفة الإيمان ، لتحريك حرارة العقيدة في قلوبهم ، وقوجيه عقولهم إلى ما يستدعيه الإيمان الصادق من طاعة الله ورسوله .

والاستفهام فى قوله : « ما لكم ، لإنكار واستبعاد صدور هذا التفاؤل منهم ، مع أن هذا يتنافى مع الإيمان والطاعة .

قال الجمل : « ما ، مبتدأ ، و « لكم ، خبر . وقوله « اثنا قلتم ، حال . وقواه : « إذا قيل لكم ، ظرف لهذه الحال مقدم عليها .

والتقدير : أى شيء ثبت لكم من الأعذار . حال كونكم متشاغلين فى وقت قول الرسول لكم : انفروا فى سبيل الله ، (٢) .

(١) سورة الإسراء . الآية ٤٦

(٢) حاشية الجمل على الجلالين ج ٢ ص ٢٨٢

وقوله . : إلى الأرض ، متعلق بقوله : : أنا قلتم ، على تضمينه معنى الميل إلى الراحة ، والإخلاد إلى الأرض ، ولذا عدى بإلى .

أى : انا قلتم مائلين إلى الراحة وإلى شهوات الدنيا الفانية ، وإلى الإقامة بأرضكم ودياركم ، وكرهتم الجهاد مع أنه ذروة سنام الإسلام .

وإن التعبير بقوله ، سبحانه ، انا قلتم ، لفى أسمى درجات البلاغة ، وأعلى مراتب التصوير الصادق ، لأنه بلفظه وجسه يمثل الجسم المسترخى الثقيل الذى استقر على الأرض . . . والذى كلما حاول الرافعون أن يرفعوه عاد إليه ثقله فسقط من بين أيديهم ، وأخذ إلى الأرض .

وذلك لأن ما استولى عليه من حب للذائد الدنيا وشهواتها ، أثقل بكثير من حبه لنعيم الآخرة وخيراتها .

وقوله ، سبحانه ، : : أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة) إنكار آخر لتباطئهم عن الجهاد ، وتعجب من ركونهم إلى الدنيا مع أن إيمانهم يتنافى مع ذلك .

وقوله . (فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل ، بيان لحقارة متاع الدنيا بالنسبة لنعيم الآخرة الدائم :

والمعنى : أى شئ حال بينكم ، أيها المؤمنون ، وبين المسارعة إلى الجهاد عندما دعاكم رسوالكم ، ﷺ ، إليه . أرضيتم براحة الحياة الدنيا ولذائذها الناقصة .

إن كان أمركم كذاك ، فقد أخطأتم الصواب ، لأن متاع الحياة الدنيا مهما كثرة ، فهو قليل مستحققر بجانب متاع الآخرة الباقي ، ونعيمها الخالد .

قال الآلوسى ما ملخصه : (فى) من ، قوله ، فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة ، تسمى بنفى القياسية ، لأن المقيس يوضع فى جنب ما يقاس به . وفى ترشيح الحياة الدنيا بما يؤخذ بنفساستها ، ويستدعى الرغبة فيها ، وتحريده الآخرة عن ذلك مثل مبالغة فى

وقد أخرج أحمد ومسلم والنسائي وغيرهم عن المستورد، أخى بنى فهر، قال: قال رسول الله ﷺ، (ما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعل أحدكم إصبعه هذه في أليم، فليتنظر به ترجع^(١)).

وقال الفخرى الرازى: أعلم أن هذه الآية تدل على وجوب الجهاد في كل حال، لأنه، سبحانه، نص على أن تشاغلهم عن الجهاد أمر منكر. ولولم يكن الجهاد واجبا لما كان هذا التشاغل منكرا. وليس لقائل أن يقول: الجهاد إنما يجب في الوقت الذى يخاف هجوم الكفار فيه، لأنه عليه السلام، ما كان يخاف هجوم الروم عليه، ومع ذلك فقد أوجب الجهاد معهم. وأيضا هو واجب على الكفاية، فإذا قام به البعض سقط عن الباقين. والخطاب في الآية للمؤمنين الذين تقاعسوا في الخروج إلى غزوة تبوك مع رسول الله ﷺ،^(٢).

ثم هددهم، سبحانه، بالعذاب الأليم، إن لم ينفروا للجهاد في سبيله فقال: «إلا تنفروا يعذبكم عذابا أليما» ويستبدل قوما غيركم، ولا تضره شيئا. أى: «إلا تنفروا»، أيها المؤمنون، للجهاد كما أمركم رسولكم (يعذبكم الله عذابا أليما، في الدنيا بإزالة المصائب بكم، وفي الآخرة بنار جهنم). وقوله: «ويستبدل قوما غيركم» أى: ويستبدل بكم قوما يطيعون رسوله في العسر واليسر، والمنشط والمكره، كما قال: (وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم) .

قال صاحب المنار: قيل المراد بهؤلاء القوم: أهل اليمن، وقيل أهل فارس وليس في محله، فإن الكلام للتهديد، والله يعلم أنه لا يقع الشرط ولا جزاؤه.

(١) لآلوسى تفسير ج ١٠ ص ٨٥ .

(٢) تفسير الفخر الرازى - بتصرف وتلخيص - ج ٢٦ ص ٦٠ .

وإنما المراد يطيعونه ، سبحانه ، ويطيعون رسوله ، لأنه قد وده بالنصر ؛ وإظهار دينه ، فإن لم يكن هذا الإظهار بأيديكم . فلا بد أن يكون بأيدي غيركم ، ولن يخلف الله وعده .

وقد مضت سنته . تعالى ، بأنه لا بقاء للامم التي تتناقل عن الدفاع عن نفسها وحفظ حقيقتها وسيادتها . ولا تتم فائدة القوة الدفاعية والهجومية إلا بطاعة الامام ، فكيف إذا كان الامام والقائد هو النبي الموعود من ربه بالنصر . (١٠٠) (١) .

والضمير في قوله « ولا تضروه شيئاً » يعود إلى الله ، تعالى .
أى : إن تباطأتم ، أيها المؤمنون ، عن الجهاد ، يعذبكم الله عذاباً أليماً ، ويستبدل بكم قوماً سواكم لنصرة نبيه ، ولن تضروا الله شيئاً من الضرر بسبب تقاعسكم ، لأنكم أتم الفقراء إليه ، وهو ، سبحانه ، الغنى الحميد .
وقيل : الضمير يعود للرسول ، ﷺ . أى : ولا تضروا الرسول شيئاً مما من الضرر بسبب تناقلكم عن الجهاد ، لأن الله قد وعده بالنصر ووعده كائن لا محالة .

وقوله : « والله على كل شيء قدير » تذييل مؤكد لما قبله .
أى : والله ، تعالى ، على كل شيء . من الأشياء قدير ، ولا يعجزه أمر ، ولا يحول دون نفاذ مشيئته حائل ، فامثلوا أمره لتفوزوا برضوانه .
فأنت ترى أن هذه الآية وسابقتها قد اشتملتا على أقوى الأساليب التي ترغب في الجهاد ، وترهب من النكوص عنه ، وتبعث على الطاعة لله ورسوله .

ثم ذكرهم ، سبحانه ، بما يعرفونه من حال الرسول ، ﷺ ، حيث نصره الله ، تعالى ، على أعدائه بدون عون منهم ، وأيده بخمود لم يروها فقال « إلا تنصروه فقد نصره الله » .

قال ابن جرير . هذا إعلام من الله لأصحاب رسوله ، ﷺ ، أنه المتوكل بنصر رسوله على أعداء دينه ، وإظهاره عليهم دونهم ، أعانوه أو لم يعينوه ، وتذكير منه لهم فعل ذلك به ، وهو من العدد في قلة ، والعدو في كثرة فكيف به وهو من العدد في كثرة والعدو في قلة (١) .

والمعنى : إنا لكم ، أيها المؤمنون ، أن آثرتم القعود والراحة على الجهاد وشدائده ، ولم تنصروا رسولكم الذي استنفركم للخروج معه . فاعلموا أن الله سيمنصره بقدرته النافذة ، كما نصره ، وأنتم تعلمون ذلك ، وقت أن أخرجه الذين كفروا من مكة (ثاني اثنين) أي : أحد اثنين . والثاني : أبو بكر الصديق ، رضى الله عنه .

يقال . فلان ثالث ثلاثة ، أو رابع أربعة . . أي : هو واحد من الثلاثة أو من الأربعة .

فإذا قيل : فلان رابع ثلاثة أو خامس أربعة ، فعناه أنه صير الثلاثة أربعة بإضافة ذاته إليهم ، أو صير الأربعة خمسة .

وأسند ، سبحانه ، الإخراج إلى المشركين مع أن الرسول ، ﷺ ، قد خرج بنفسه بإذن من الله ، تعالى ، ، لأنهم السبب في هذا الخروج حيث اضطروه إلى ذلك ، بعد أن قَامُوا على قتله .

وجواب الشرط في قوله ، ألا تنصروه . ، محذوف وقوله فقد نصره الله ، تعليل لهذا المحذوف .

والتقدير : إلا تنصروه فسينصره الله في كل حال . ، فقد نصره ، سبحانه ، وقت أن أخرجه الكافرون من بلده ولم يكن معه سوى رجل واحد قال ص حب الكشاف : فإن قلت . كيف يكون قوله « فقد نصره الله » جواباً للشرط ؟

قلت . فيه وجهان ، أحدهما : إلا تنصروه فسينصروه من نصرة حين لم يكن معه إلا رجل واحد ، ولا أقل من الواحد ، فدل بقوله . « فقد نصره الله » على أنه ينصره في المستقبل كما نصره في ذلك الوقت .

والثاني . أنه أوجب له النصرة وجعله منصوراً في ذلك الوقت ، فلن يخذل من بعده ،^(١) .

وقوله . (ثاني اثنين) حال من الهاء في قوله (أخرجهم ، . أي . أخرجهم الذين كفروا حال كونه منفرداً عن جميع الناس إلا أبا بكر الصديق - رضي الله عنه .

وقوله . (إذ هما في الغار) بدل من قوله « إذ أخرجهم ، . والغار : النقب العظيم يكون في الجبل . والمراد به هنا : غار جبل ثور . وهو جبل في الجهة الجنوبية لمسكة ، وقد مكثا فيه ثلاثة أيام . وقوله . (إذ يقول لصاحبه لا تحزن إنه الله معنا » بدل ثان من قوله « إذ أخرجهم ، .

أي . إلا تنصروه فقد نصره الله وقت أن أخرجهم الذين كفروا من مكة ، ووقت أن كان هو وصاحبه أبو بكر في الغار ، ووقت أن كان - ﷺ - يقول لصاحبه الصديق . لا تحزن إن الله معنا بتأييده ونصره وحمايته . وذلك أن أبا بكر وهو مع النبي - ﷺ - في الغار ، أحس بحركة المشركين من فوق الغار ، فخاف خوفاً شديداً لا على حياته هو ، وإنما على حياة النبي - ﷺ - ، فلما رأى النبي - ﷺ - منه ذلك ، أخذ في تسكين روعه وجزعه وجعل يقول له . لا تحزن إن الله معنا .

أخرج الشيخان عن أبي بكر قال . نظرت إلى أقدام المشركين ونحن في الغار ، وهم على رؤوسنا ، فقلت . يا رسول الله ، لو أن أحدهم نظر إلى قدميه

لأبصرنا تحت قدميه . فقال . يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما ، لا تحزن . إن الله معنا ، (١) .

وقوله . « فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها . » بيان لما أحاط الله به نبيه - ﷺ - من مظاهر الحفظ والرعاية . .

والسكينة : من السكون ، وهو ثبوت الشيء بعد التحرك . أو من السكن - بالتحريك - وهو كل ما سكنت إليه نفسك ، واطمأنت به من أهل وغيرهم .

والمراد بها هنا : الطمأنينة التي استقرت في قلب النبي - ﷺ - فجعلته لا يبالي بجموع المشركين المحيطين بالغار ، لأنه واثق بأنهم لن يصلوا إليه .

والمراد بالجنود المؤيدين له . الملائكة الذين أرساهم - سبحانه - لهذا الغرض . والضمير في قوله : « عليه » يعود إلى النبي - ﷺ -

أي . « فأنزل الله سكينته وطمأنينته وأمنه على رسوله - ﷺ - وأيده وقواه بجنود من الملائكة لم تروها أنتم » ، كان من وظيفتهم حراسته وصرف أبصار المشركين عنه .

ويرى بعضهم أن الضمير في قوله (عليه) يعود إلى أبي بكر الصديق ، لأن الأصل في الضمير أن يعود إلى أقرب مذكور ، وأقرب مذكور هنا هو الصاحب ولأن الرسول لم يكن في حاجة إلى السكينة ، وإنما الذي كان في حاجة إليها هو أبو بكر ، بسبب ما اعقره من فزع وخوف .

وقد رد أصحاب الرأي الأول على ذلك بأن قوله « وأيده بجنود لم تروها » الضمير فيه لا يصح إلا للنبي - ﷺ - ، وهو معطوف على ما قبله فوجب أن يكون الضمير في قوله « عليه » عائداً إلى النبي - ﷺ - حتى لا يحصل تفكك في الكلام .

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة النوبة ج ٦ ص ٨٣ وأخرجه مسلم في كتاب فضائل الصحابة ج ٧ ص ١٠٨ .

أما نزول السكينة فلا يلزم منه أن يكون لدفع الفزع والخوف، بل يصح أن يكون لزيادة الاطمئنان، وللدلالة على علو شأنه — ﷺ —

قال ابن كثير . قوله (فأنزل الله سكينته عليه ، أى . تأييده ونصره عليه أى . على الرسول — ﷺ — فى أشهر القولين . وقيل . على أبى بكر

قالوا . لأن الرسول — ﷺ — لم تزل معه سكينة ، وهذا لا ينافى تجدد سكينة خاصة بتلك الحال ، ولهذا قال . وأيده . بجنود لم تروها ، أى : الملائكة ، ١٥ : .

وقوله . وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا ، بيان لما ترتب على إنزال السكينة والتأييد بالملائكة .

والمراد بكلمة الذين كفروا . كلمة الشرك ، أو كلمتهم التى اجتمعوا عليها فى دار الندوة وهى اتفاهم على قتل رسول الله — ﷺ — .

والمراد بكلمة الله : دينه الذى ارتضاه لعباده ، وهو دين الإسلام ، وما يترتب على اتباع هذا الدين من نصر وحسن عاقبة . أى : كانت نتيجة إنزال السكينة والتأييد بالملائكة ، أن جعل كلمة الشرك هى السفلى ، أى . المقهورة الذليلة . وكلمة الحق والتوحيد المتمثلة فى دين الإسلام هى العليا أى : هى الثابتة الغالبة النافذة .

وقراءة الجمهور برفع . كلمة ، على الابتداء . وقوله . هى (مبتدأ ثانياً : وقوله : العليا ، خبرها . والجملة خبر المبتدأ الأول .

ويجوز أن يكون الضمير . هى ، ضمير فصل ، وقوله . العليا ، هو الخبر وقرأ الأعمش ويعقوب . وكلمة الله ، بالنصب عطفاً على مفعول جعل وهو (كلمة الذين كفروا) .

أى : وجعل كلمة الذين كفروا السفلى ، وجعل كلمة الله هى العليا .

قالوا: وقراءة الرفع أبلغ وأوجه ، لأن الجملة الاسمية تدل على الدوام والثبوت ، ولأن الجعل لم يتطرق إلى الجملة الثانية وهى قوله . دو كلمة الله هى العليا) لأنها فى ذاتها عالية ثابتة ، بدون جعلها كذلك فى حادثة معينة .

بمخلاف علو غيرها فهو غير ذاتى ، وإنما هو علو مؤقت فى حالة معينة ، ثم مصيرها إلى الزوال والخذلان بعد ذلك .

وقوله : « والله عزيز حكيم ، تذييل مقرر لمضمون ما قبله .

أى : والله — تعالى — (عزيز) لا يغلبه غالب ، ولا يقهره قاهر ، ولا ينصر من عاقبه ناصر ، « حكيم » فى تصرفه شأن خلقه ، لا قصور فى تدبيره ، ولا نقص فى أفعاله .

هذا ، ومن الأحكام التى أخذها العلماء من هذه الآية : الدلالة على فضل أبى بكر الصديق — رضى الله عنه — وعلى علو منزلته ، وقوة إيمانه ، وشدة إخلاصه لله — تعالى — ولرسوله — ﷺ — .

ومما يشهد لذلك ، أن الرسول — ﷺ — عندما أذن الله له بالهجرة ، لم يخبر أحدا غيره لصحبته فى طريق هجرته إلى المدينة .

ولقد أظهر الصديق — رضى الله عنه — خلال مصاحبته الرسول ﷺ الكثير من ألوان الوفاء والإخلاص وصدق العقيدة (١) .

قال الآلوسى ما ملخصه : واستدل بالآية على فضل أبى بكر فانها خرجت مخرج العنايب للمؤمنين ما عدا أبا بكر . . . فعن الحسن قال : عاتب الله جميع أهل الأرض غير أبى بكر فقال : « لا تنصروه فقد نصره الله . الآية) . ولأن فيها النص على صحبته للرسول — ﷺ — ولم يثبت ذلك لأحد من الصحابة : لأنه هو المراد بالصاحب فى قوله « إذ يقول لصاحبه » وهذا مما وقع عليه الإجماع .

(١) راجع قصة الهجرة فى كتاب « السيرة النبوية » لابن هشام ج ٢

ومن هنا قالوا : من أنكر صحبة أبي بكر فقد كفر ، لأنكار كلام الله ،
وليس ذلك لسائر الصحابة ، (٢٠) .

وقد ساق الإمام الرازي ، والشيخ رشيد رضا ، عند تفسيرهما لهذه الآية
إثني عشر وجهاً في فضل أبي بكر الصديق — رضي الله عنه — ، فارجع
إليهما إن شئت (٢١) .

وبعد هذا التذكير للمؤمنين بما كان منه — سبحانه — من تأييد لرسوله
عند هجرته ، أمرهم — جل شأنه — بالنفير في كل حال فقال : انفروا
خفافاً وثقالاً . وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ، ذلكم خير لكم
إن كنتم تعلمون .

قال الفخر الرازي ما ملخصه : أعلم أنه — تعالى — لما توعد من لا ينفر
مع الرسول ، وضرب له من الأمثال ما وصفنا ، اتبعه بهذا الأمر الجازم
فقال : « انفروا خفافاً وثقالاً » .

والمراد : انفروا سواء أ كنتم على الصفة التي يخف عليكم الجهاد فيها ،
أو على الصفة التي يشقل . وهذا الوصف يدخل تحته أقسام كثيرة .
منها : « خفافاً » في النذور لنشاطكم له ، و « ثقلاً » عنه لمشقته عليكم .
ومنها : « خفافاً » لقلة عيالككم ، و « ثقلاً » لكثرتها .
وسنها : « خفافاً » من السلاح ، و « ثقلاً » منه .

والصحيح ما ذكرنا ، إذ الكل داخل فيه ، لأن الوصف المذكور وصف
كلى يدخل فيه كل هذه الجزئيات (٢٢) .

والمعنى : « انفروا » — أي المؤمنون ، « خفافاً وثقالاً » أي : في حال
سهولة النفر عليكم . وفي حال صعوبته ومشقته .

(١) راجع تفسير الآلوسی ج ١٠ ص ٨٩ .

(٢) تفسير الفخر الرازي ج ١٦ ص ٦٣ . تفسير المنار ج ١٠ ص ٤١٧ .

(٣) تفسير القرطبي ج ١٦ ص ٦٩ .

سورة التوبة .

« وجاهدوا ، أعداءكم ببذل أموالكم . وببذل أنفسكم » في سبيل الله .
 أى : في سبيل إعلاء كلمة الله ونصرة دينه ورسوله - ﷺ - .
 فمن استطاع منكم الجهاد بالمال والنفس وجب عليه الجهاد بهما . ومن
 قدر على أحدهما دون الآخر ، وجب عليه ما كان في قدرته منهما .
 قال القرطبي روى أبو داود عن أنس أن رسول الله - ﷺ -
 قال : « جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم » .
 وهذا وصف لأكمل ما يكون الجهاد وأنفعه عند الله - تعالى - فقد حضر
 - سبحانه - على كمال الأوصاف .

وقد الأموال في الذكر ، إذ هي أول مصرف وقت التجهيز ، فرتبة
 الأمر كما هو في نفسه " .
 واسم الإشارة في قوله : « ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون » ، يعود إلى
 المذكور من الأمرين السابقين وهما : النفور والجهاد .
 أى : ذلكم الذي أمرتم به من النفور والجهاد في سبيل الله ، خير لكم
 في دنياكم وفي آخرتكم من الثناقل عنهما ، إن كنتم من أهل العلم بحقيقة ما بين
 لكم خالفكم ومربيكم على لسان رسوله - ﷺ - .
 ولقد أدرك المؤمنون الصادقون هذا الخير . فامتثلوا أمر ربهم ، ونفروا
 للجهاد في سبيله خفافاً وثقالاً ، بدون تباطؤ أو تقاعس .
 وقد ساق المفسرون عند تفسيرهم لهذه الآية كثيراً من الأمثلة التي قدل
 على محبة الساف الصالح للجهاد في سبيل الله ، ومن ذلك .

ما جاء عن أنس أن أبا طلحة قرأ سورة براءة ، فأتى على هذه الآية :
 « انفروا خفافاً وثقالاً » فقال : أى بنى ، جهزوني جهزوني . فقال بنوه .
 برحمتك الله !! لقد غزوت مع النبي - ﷺ - حتى مات ، ومع
 أبي بكر حتى مات . ومع عمر حتى مات . فتنحن نغزو عنك . فقال : لا ،

جهزوني . فغزوا في البحر فمات في البحر ، فلم يجدوا له جزيرة يدفنونه فيها إلا بعد سبعة أيام فدفنوه فيها ، ولم يتغير — رضى الله عنه — .

وقال الزهري : خرج سعيد بن المسيب إلى الغزو وقد ذهبت إحدى عينيه فقيل له : إنك عليل . فقال : استنفر الله الخفيف والثقيل ، فإن لم يمكنني الحرب كثرت السواد وحفظت المتاع (١) .

وأخرج ابن جرير عن حبان بن زيد الشرعبي قال : نفرنا مع صفوان ابن عمرو ، وكان والياً على حمص ، فلقيت شيخاً كبيراً هرماً ، على راحلته فيمن نفر ، فأقبلت عليه فقلت : يا عماه لقد أعذر الله إليك .

قال : فرفع حاجبيه فقال . يا ابن أخي ، استنفرنا الله خفافاً وثقالاً ، من يحبه الله يبتليه ، ثم يعيده فيبقىه ، وإنما يبتلى الله من عباده من شكر وصبر وذكر ، ولم يعبد إلا الله (٢) .

وعن أبي راشد الخبراني قال . وافيت المقداد بن الأسود ، فارس رسول الله ﷺ — جالساً على تابوت من ثوابيد الصيافه بحمص ، وهو يريد الغزو — وقد تقدمت به السن — فقلت له : لقد أعذر الله إليك .

فقال : أبت علينا سورة البعوث ذلك . يعني هذه الآية : «انفروا خفافاً وثقالاً» (٣) .

هذا ، ومن العلماء من يرى أن هذه الآية قد نسخت بآيات أخرى . قال الجمل ما ملخصه : فإن قلت هذه الآية تجعل الجهاد على الجميع حتى المريض والزمن والفقير ... وليس الأمر كذلك ، فما معنى هذا الأمر ؟

(١) تفسير القرطبي ج ٨ ص ١٥١ .

(٢) تفسير ابن جرير ص ١٠٠ - ١٤٠ - بتصرف يسير —

(٣) تفسير الألوسي ج ١ ص ٩٣ - بتصرف يسير —

قلت . من العلماء من حمّله على الوجوب ثم إنه نسخ بقوله - تعالى -
(ليس على الضعفاء ولا على المرضى ...) (سورة التوبة . الآية ٩١) .
ومنهم من حمل هذا الأمر على الندب .

والصحيح أنها منسوخة . لأن الجهاد من فروض الكفاية ، ويدل عليه
أن هذه الآيات نزلت في غزوة تبوك ، وأن النبي - ﷺ - خلف في المدينة
في تلك الغزوة النساء وبعض الرجال ، فدل ذلك على أن الجهاد من فروض
الكفايات ، وأنه ليس على الأعيان (١)

ويرى بعض العلماء أن الآية ليست منسوخة ، فقد قال الإمام القرطبي
- ما ملخصه - واختلف في هذه الآية ، فقليل إنما منسوخة بقوله - تعالى -
(ليس على الضعفاء ولا على المرضى ...)
والصحيح أنها ليست بمنسوخة .

روى ابن عباس عن أبي طلحة في قوله - تعالى - : « أنفروا خفافاً وثقالاً »
قال . شباناً وكهولاً . ما سمع الله عذر أحد . فخرج إلى الشام فجاهد حتى مات
ثم قال - بعد أن ساق نماذج متعددة لمن خرجوا للجهاد خفافاً وثقالاً -
فلماذا وما كان مثله مما روى عن الصحابة والتابعين قلنا . إن النسخ لا يصح .
فقد تكون هناك حالة يجب فيها نفير الكل ، وذلك إذا تعين الجهاد لغلبة
العدو على قطر من الأقطار الإسلامية ، أو بحلوله في العقر ، ففي هذه الحالة
يجب على جميع أهل الدار أن ينفروا ويخرجوا إليه خفافاً وثقالاً ؛ شباناً
وشيوخاً ، كل على قدر طاقته ... ولا يتخلف أحد بقدر على الخروج .
فإن عجز أهل تلك البلدة عن صد عدوهم ؛ كان على من قاربهم أن يخرجوا
مهم لصد العدو ، وكذلك الشأن بالنسبة لكل من علم بضعفهم عن عدوهم
فالملامون كلهم يد على من سواهم .

حتى إذا قام بدفع العدو أهل الناحية التي نزل العدو عليها، سقط الفرض عن الآخرين ...

ثم قال - رحمه الله - : ومن الجهاد أيضاً ما هو نافلة، وهو إخراج الإمام طائفة ... لإظهار القوة ، وإعزاز دين الله .

ثم قال : وقال ابن العربي ، (ولقد نزل بنا العدو - قصمة الله . سنة سبع وعشرين وخمس مائة . فجاس ديارنا ف وأسر خيرتنا ، وتوسط بلادنا . . فقلت للوالى والمولى عليه . عدو الله قد حصل في الشرك والشبكة ، فلتكن عندكم بركة . ولتظهر منكم إلى نصرة الدين المعينة عليكم حرمة ، فليخرج إليه جميع الناس ... فيحاط به فيهلك .

فغلبت الذنوب ، ورجفت القلوب بالمعاصي ، وصار كل أحد من الناس ثعلباً يأوى إلى وجاره (١) ، وإن رأى المكيذة بجاره .

فإن الله وإن إليه راجعون ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، (٢) .
والذى نراه . أن ما ذهب إليه الإمام القرطبي ، من أن الآية الكريمة ليست منسوخة ، أولى بالإتباع .

لأن الجهاد قد يكون فرض كفاية في بعض الحالات، وقد يكون فرض عين في حالات أخرى .

والآية الكريمة التي معنا تدعو المؤمنين إلى النفير العام في تلك الحالات الأخرى التي يكون الجهاد فيها فرض عين .

وبذلك يمكن الجمع بين الآيات التي تدعو إلى النفير العام، والآيات التي تعني بعض الناس من مشاقه ومتاعبه :

(١) الوجار بكسر الواو وفتحها - بيت الثعلب .

(٢) تفسير القرطبي ج ٨ ص ١٥٠ .

ومن كل ما تقدم يتبين لنا أن هذه الآيات الأربع قد عاقبت المؤمنين الذين تخلفوا عن الجهاد في غزوة تبوك عتاً بأشدّ بدءاً، وأنذرتهم بالعذاب الأليم إن لم ينفروا...، وذكرتهم بما كان من نصر الله لنبيه حين أخرجه الذين كفروا ثانياً اثنين...، وأمرتهم بالنفور إلى الجهاد خوفاً وثقلاً. وبمجاهدة المشركين بأموالهم وأنفسهم، فذلك هو الخير لهم في عاجلتهم وآجلتهم. ثم أخذت السورة الكريمة في بيان قبائح المنافقين، ومعاذيرهم الواهية، ومسالكتهم الخبيثة. وأيمانهم الفاجرة... فقال - تعالى - :

لَوْ

كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَا تَبْعُوكَ وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾

قال الفخر الرازي. هذه الآية نزلت في المنافقين الذين تخلفوا عن غزوة تبوك (١)، والعرض. ما يعرض للانسان من منافع الدنيا وشهواتها. والسفر القاصد: هو السفر القريب السهل الذي لا يصاحبه ما يؤدي إلى التعب الشديد. من القصد بمعنى التوسط والاعتدال في الشيء. والشقة: المسافة التي لا تقطع إلا بعد تكبد المشقة والتعب، فهي مأخوذة من المشقة وشدة العناء.

قال القرطبي: حكى أبو عبيدة وغيره أن الشقة: السفر إلى أرض بعيدة. يقال: منه شقة شاقة. والمراد بذلك كله غزوة تبوك... (٢). والمعنى: لو كان الذي دعوتهم إليه يا محمد، متاعاً من متع الحياة الدنيا،

(١)، تفسير الفخر الرازي ج ٤ ص ٤٤٢ - المطبعة الشرقية سنة ١٢٢٤ هـ - الطبعة الثانية

(٢)، تفسير القرطبي ج ٨ ص ١٥٤ - طبعة دار الكاتب العربي سنة ١٩٤٧

موسفراً سهلاً قريباً ، لا تبعوك فيمادعونهم اليه ، لأنه يوافق أهواءهم ، ويشبع رغباتهم ، واسكنهم حين عرفوا أن ما دعوتهم اليه هو الجهاد في سبيل الله وما يصحبه من أسفار شاقة ، وتضحيات جسيمة فغللوا لك بالمعاديير الكاذبة ، وتخلفوا عن الخروج معك ، جنباً منهم ، وحباً للراحة والسلامة .

وشديه بهذه الآية من حيث المعنى ، قول الرسول - ﷺ - في شأن المتخلفين عن صلاة الجماعة . « لو يعلم أحدكم أنه يحد عظاماً سمياً ، أو مر ماتين (١) ، حسنتين لشهد العشاء .

أى : لو يعلم أحد هؤلاء المتخلفين عن صلاة العشاء في جماعة ، أنه يجد عند حضور صلاتها في جماعة شيئاً من اللحم لحضرها .

ثم حكى - سبحانه - ما سيقوله هؤلاء المنافقون بعد عودة المؤمنين من الجهاد فقال : (وسيجلفون بالله لو أستطعنا لخرجنا معكم) .

أى . وسيجلف هؤلاء المنافقون بالله - كذباً وزوراً - قائلين . لو أستطعنا أيها المؤمنون أن نخرج معكم للجهاد في قبوك خرجنا : فأننا لم نتخلف عن الخروج معكم إلا مضطرين ، فقد كانت لنا أعذارنا للقاهرة التي حملتنا على التخلف ١١

وأتى - سبحانه - بالسین في قوله : « وسيجلفون » لأنه من قبيل الإخبار بالغيب . فقد كان نزول هذه الآية قبل رجوعه - ﷺ - من قبوك . وحلفهم هذا كان بعد رجوعه منها .

قال الفخر الرازى : (قالوا : الرسول - ﷺ - أخبر عنهم أنهم سيجلفون ، وهذا إخبار عن غيب يقع في المستقبل ، والامر لما وقع كما أخبر كان هذا إخباراً عن الغيب فكان معجزاً ، (٢) .

(١) مر ماتين : تشبيه مرمة ، وهي ظلف الشاة ، أو ما بين ظلفها من اللحم :

(٢) تفسير الفخر الرازى ج ٤ ص ٤٤٣ :

والمراد بالإستطاعة في قوله : « لو أستطعنا » : وجود وسائل الجهاد معهم ، من زاد وعدة وقوة في البدن ، وغير ذلك مما يستلزمه الجهاد في سبيل الله :

وقوله : (لخرجنا معكم ، ساد مسد جوابي القسم والشرط : ثم بين - سبحانه - سوء مصيرهم بسبب كذبهم ونفاقهم فقال : « يهلكون أنفسهم والله يعلم أنهم لكاذبون » : أى . أن هؤلاء المتخلفين عن الجهاد يهلكون أنفسهم بسبب حلفهم الكاذب ، وجرأتهم على الله . تعالى . في اختلاق المآذير الباطلة ، مع أنه . سبحانه . يعلم أنهم لكاذبون في أيمانهم ، وفيما افتحلوه من أعداء . قال ابن جرير قوله : « والله يعلم أنهم لكاذبون » ، في قولهم : « لو أستطعنا لخرجنا معكم » ، لأنهم كانوا للخروج مطيقين ، بوجود السبيل إلى ذلك بالذى كان عندهم من الأموال ، مما يحتاج إليه الغازي في غزوه ، وصحة الأبدان ، وقوة الأجسام ، (١) .

هذا ، ومن الأحكام التى أخذها العلماء من هذه الآية ، أن الإيمان الكاذبة تؤدى إلى الخسران والهلاك : وفي الحديث الشريف : « اليمين الغموس تدع الديار بلاقع » .

ثم عاقب الله : تعالى . نبيه . ﷺ . عتاباً رقيقاً لأنه أذن للمنافقين بالتخلف عن الجهاد حين طلبوا منه ذلك ، دون أن يتبين أحوالهم فقال . تعالى .

عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى
يَتَّبِعَنَّ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَذِبِينَ ﴿٤٣﴾

قال ابن كثير . قال مجاهد . نزلت هذه الآية في أناس قالوا : استأذنوا
سول الله ﷺ . فان أذن لكم فاقعدوا . وإن لم يأذن لكم فاقعدوا .

والعفو : يطلق على التجاوز عن الذنب أو التقصير ، كما يطلق على ترك
واخذة على عدم فعل الأولى والأفضل ، وهو المراد هنا .

والمعنى : عفا الله عنك يا محمد ، وتجاوز عن مؤاخذتك فيما فعلته مع
إلاء المنافقين من سماحك لهم بالتخلف عن الجهاد معك في غزوة تبوك ،
بين اعتذروا إليك بالاعتذار الكاذبة ، وكان الأولى بك أن تريح وتأتى
السماح لهم بالتخلف ، حتى يتبين لك الذين صدقوا في اعتذارهم من الذين
ذبوا فيه ، فقد كانوا . إلا قليلا منهم . كاذبين في معاذيرهم ، وكانوا
صرين على القعود عن الجهاد حتى ولو لم تأذن لهم به .

وقدم سبحانه . العفو على العتاب . وهو قوله : (لم أذن لكم) - ،
لإشارة إلى المسكنة السامية التي له . ﷺ . عند ربه

قال بعض العلماء : هل سمعتم بعتاب أحسن من هذا ؟ لقد خاطبه سبحانه -
العفو قبل أن يذكر المعفو عنه .

وقال العلامة أبو السعود ما ملخصه . وعبر . سبحانه . عن الفريق الأول
الموصول الذي صلته فعل دال على الحدوث ، وعن الفريق الثاني باسم الفاعل
لمنفيد للدوام ، للإيدان بأن ما ظهر من الأولين صدق حادث في أمر خاص
غير مصحح انظمتهم في سلك الصادقين ، وبأن ما صدر من الآخرين ، وإن
كان كذباً حادثاً متعلقاً بأمر خاص أسكنه أمر جار على عادتهم المستمرة ،
أشياء عن رسوخهم في الكذب .

وعبر عن ظهور الصدق بالتبين ، وعما يتعلق بالكذب بالعلم ، لما هو

صدق الخبر إنما هو تبين ذلك المدلول ، وانقطاع احتمال نقيضة بعدما كان محتملاً له احتمالاً عقلياً . وأما كذبه فأمر حادث لا دلالة للخبر عليه في الجملة حتى يكون ظهوره تبيناً له ، بل فقيض لمدلوله . فما يتعلق به يكون علماً مستأنفاً (١) ، (١) .

هذا ، ومن الأمور التي تكلم عنها العلماء عند تفسيرهم لهذه الآية ما يأتي :
 ١ - أن النبي ﷺ كان يحكم بمقتضى اجتهاده في بعض الوقائع .
 وقد بسط القول في هذه المسألة صاحب المنار فقال ما ملخصه .
 وقد كان الإذن المعاتب عليه اجتهاداً منه ﷺ فيما لا فص فيه من الوحي ، وهو جائز وواقع من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم . وليسوا بمعصومين من الخطأ فيه ، وإنما العصمة المتفق عليها خاصة بتبليغ الوحي ببيانه والعمل به ، فيستحيل على الرسول أن يكذب أو أن يخطئ فيما يبلغه عن ربه أو يخالفه بالعمل .

ويؤيده حديث طلحة في تأييد النخل إذ رأهم . ﷺ . يلقحونها فقال : ما أظن يغني ذلك شيئاً ، فأخذوا بذلك فتركوه ظناً منهم أن قوله هذا من أمر الدين . فنفضت النخل وسقط ثمرها . فأخبر بذلك فقال : إِنْ كَانَ يَنْفَعُهُمْ ذَلِكَ فَلْيَصْنَعُوهُ ، فَإِنِّي ظَنَنْتُ ظَنّاً فَلَا تَوَاضَعُونَ بِالظَّنِّ ، وَإِنْ كَانَ إِذَا حَدَّثْتَكُمْ عَنْ اللَّهِ شَيْئاً فَخَذُّوا بِهِ ، فَإِنِّي لَأَكْذِبُ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ .
 وقد صرح علماء الأصول بجواز الخطأ في الاجتهاد على الأنبياء ، عليهم الصلاة والسلام . قالوا : وإسكن لا يقرهم الله على ذلك ، بل يبين لهم الصواب فيه (٢) ، (٢) .

(١) ، تفسير أبي السعود ٢٧٢ ص ٢٧٢ ، طبعة صبيح .

(٢) ، تفسير المنار ج ١٠ ص ٤٥٣ .

٢ - أن من الواجب على المسلم التريث في الحكم على الأمور .
قال الفخر الرازي : دلت الآية على وجوب الاحتراز عن العجلة ، ووجوب
التثبت والتأني ، وترك الاغترار بظواهر الأمور ، والمباغة في التفحص ،
حتى يمكنه أن يعامل كل فريق بما يستحقه من التقريب أو الإبعاد (١) :
٣ - أن المنتبج لآراء العلماء عند تفسيرهم لهذه الآية يرى لهم ثلاثة
أقوال :

أما القول الأول فهو لجمهور العلماء : وملخصه : أن المراد بالعمو في قوله
سبحانه - : (عفا الله عنك) عدم مؤاخذته : بتركه في تركه الأولى
والأفضل ، لأنه كان من الأفضل له ألا يأذن للمنافقين في التخلف عن
الجهاد حتى يتبين أمرهم .

وهذا القول هو الذي نختاره ونرجحه ، لأنه هو المناسب لسياق الآية
ولما ورد في سبب نزولها :

وأما القول الثاني فهو لصاحب الكشاف : وملخصه : أن العفو هنا كناية
عن الجناية ، فقد قال : قوله : عفا الله عنك ، كناية عن الجناية لأن العفو
مرادف لها ، ومعناه . أخطأت وبئس ما فعلت ، وقوله : لم أذنت لهم) بيان
لما كنى عنه بالعفو (٢) .

ولم يرض كثير من العلماء ما ذهب إليه صاحب المكشاف من أن العفو
هنا كناية عن الجناية ، ووصفوا ما ذهب إليه بالخطأ وإساءة الأدب :

قال أبو السعود . . . ولقد أخطأ وأساء الأدب وبئس ما فعل فيما قال وكتب
من زعم أن الكلام كناية عن الجناية ، وأن معناه أخطأت ، وبئس ما فعلت :
هب أنه كناية ، أليس إشارتها على النصيح بالجناية للتلطيف في
الخطاب والتخفيف في العقاب ؟ : (٣) .

١ . تفسير الفخر الرازي ج ٤ ص ٤٤٤ :

٢ . تفسير الكشاف ج ٢ ص ١٩٢ طبعة مصطفى الحلبي سنة ١٩٦٦

٣ . تفسير أبي السعود ج ٢ ص ٢٧٢

وقال الشيخ أحمد بن المنير : ليس له - أى الزمخشري - أن يفسر هذه الآية بهذا التفسير ، وهو بين أحد أمرين : إما أن لا يكون هو المراد وإما أن يكون هو المراد ، ولسكن قد أحل الله نبيه الكريم عن مخاطبته بصريح العتب ، وخصوصاً في حق المصطفى - عليه الصلاة والسلام - فالزمخشري على كلا التقديرين ذهل عما يجب في حقه - عليه السلام -

ولقد أحسن من قال في هذه الآية : إن من لطف الله - تعالى - بنبيه ، أن بدأه بالعفو قبل العتب ، ولو قال له ابتداء ولم أذنت لهم ، لتفطر قلبه - عليه الصلاة والسلام - فمثل هذا الأدب يجب احتذاؤه في حق سيد البشر - عليه الصلاة والسلام (١) .

وأما القول الثالث فهو للإمام الفخرى الرازى ، ولمن - إذا حضوه كالقرطبي وغيره ، وملخص هذا القول أنه يجوز أن يكون المراد بالعفو هنا المبالغة في تعظيم النبى - عليه السلام - وتوقيره ، أو أن قوله - سبحانه - : (عفا الله عنك ، افتتاح كلام .

قال الفخر الرازى ما ملخصه : لا نسلم أن قوله - تعالى - عفا الله عنك ، يوجب الذنب ، ولم لا يجوز أن يقال : إن ذلك يدل على مبالغة الله ، تعالى في تعظيمه وتوقيره كما يقول الرجل لغيره إذا كان معظماً عنده ، عفا الله عنك ما صنعت فى أمرى . . . فلا يكون غرضه من هذا الكلام إلا مزيد التمجيل والتعظيم

ويؤيد ذلك قول على بن الجهم يخاطب المتوكل وقد أمر بنفيه :

عفا الله عنك ألا حرمة تعوذ بعفوك أن أبعد
ألم تر عبداً عدا طوره ومولى عفا ورشيداً هدى

أقلنى أقالك من لم يزل يقيك، ويصرف عنك الردى^(١)
وقال القرطبي : قوله : - تعالى - د عفا الله عنك لم أذنت لهم ، قيل : هو
افتتاح كلام ، كما تقول : أصلحك الله وأعزك ورحمك كان كذا وكذا ..^(٢)
والذى نراه أن القول الأول هو الراجح لما سبق أن بيناه .
ثم بين - سبحانه - الصفات التى يتميز بها المؤمنون الصادقون ، عن غيرهم
من ضعاف الإيمان ، فقال - تعالى - :

لَا يَسْتَعِذُّكَ الَّذِينَ
وَمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ
لِيَمُوتُوا بِالْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَعِذُّكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ وَآرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾

أى : ليس من شأن المؤمنين الصادقين أن يستأذنوك - يا محمد - فى أن
يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم ، فى سبيل إعلاء كلمة الله ، ونصرة دينه .. وإنما
الذى من شأنهم وعادتهم - كما أثبتته واقعهم وتاريخهم - أن ينفروا خفافا وثقالا
عندما يدعو الداعى إلى الجهاد ، دون أن ينتظروا إذنا من أحد .
فهم لقوة إيمانهم ، وصفاء نفوسهم ، يسارعون إلى الجهاد بقلوب مشتاقة
إليه ، وبنفوس تتمنى الموت عن طريقه .

وهم فى ذلك يمثلون لقول النبى - ﷺ - : د من خير معاش
الناس رجل ممسك بعنان فرسه فى سبيل الله يطير على متنه ، كلما سمع هبة

- أى صيحة - وفزعاً طار على متنه يبتغى القتل أو الموت فى مظانه ،^(١)
وقوله : « والله عليم بالمتقين » تحريض لهم على الاتصاف بهذه الصفة
السكرية ، وهى صفة التقوى .

والمراد بالعلم هنا لازمه ، وهو مجازاتهم بالشواب الجزيل على تقواهم .
أى : والله - تعالى - عليمهمؤلاء الذين ملأت خشيته قلوبهم . وسيشبههم
على ذلك ثواباً يرضيهم .

هذا ، وقد استنبط العلماء من هذه الآية أنه ينبغى على المؤمن أن يقوم
بأداء الأعمال الحسنة ، والأفعال الجميلة بدون تردد أو استئذان .

قال صاحب الانتصاف عند تفسيره لهذه الآية : وهذا الأدب يجب أن
يقتضى مطلقاً ، فلا يليق بالمدعى أن يستأذن أخاه فى أن يسدى له معروفاً ، ولا
بالمضيف أن يستأذن ضيفه فى أن يقدم إليه طعاماً ؛ فإن الاستئذان فى أمثال
هذه المواطن أمانة التمكف والتسكره . وصلوات الله وسلامه على خليله
إبراهيم ، فقد بلغ من كرمه وأدبه مع ضيوفه أنه كان لا يتعاطى شيئاً من أسباب
التهيؤ للضيافة بمرأى منهم ، فلذلك مدحه الله - تعالى - على إسمان رسوله
- صلى الله عليه وسلم - بهذه الخلة الجميلة ، فقال - تعالى - : « فراع إلى
أهله فجاء بعجل سمين .. » أى : ذهب على خفاء منهم ، كيلا يشعروا به...^(٢)

وقال صاحب المنار : وقد استنبط من الآية أنه لا ينبغى الاستئذان فى
أداء شئ من الواجبات ، ولا فى الفضائل والفواضل من العادات ، كقراءة
الضيف ، وإغاثة الملهوف ، وسائر عمل المعروف .

ويعجبنى قول بعض العلماء ما معناه : من قال لك أنا كل ؟ هل آتيك بكذا
من الفاكهة مثلاً ؟ فقل له لا ؛ فإنه لو أراد أن يكرمك لما استأذنتك ، (٣) .

(١) تفسير الألوسى ج ١٠ ص ١١٠ .

(٢) حاشية الكشف ج ٣ ص ٢٧٤ - طبعه دار الكتب العربى ببيروت .

(٣) تفسير المنار ج ١٠ ص ٤٥٤ .

ثم بين - سبحانه - الصفات التي يعرف بها المنافقون ، بعد بيانه للصفات التي يعرف بها المؤمنون الصادقون فقال : « إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم ... »

أى : « إنما يستأذنك - يا محمد - في القعود عن الجهاد أولئك الذين من صفاتهم أنهم لا يؤمنون بالله إيماناً كاملاً ، ولا يؤمنون باليوم الآخر وما فيه من ثواب وعقاب إيماناً يقينياً . »

قال الألوسى : وتخصيص الإيمان بهما - أى بالله واليوم الآخر - في الموضعين للإيدان بأن الباعث على الجهاد والممانع عنه الإيمان بهما وعدم الإيمان بهما ، فمن آمن بهما قاتل في سبيل دينه ، وهان عليه القتل فيه لما يرجوه في اليوم الآخر من النعيم المقيم ، ومن لم يؤمن كان بمعزل عن ذلك . على أن الإيمان بهما مستلزم للإيمان بسائر ما يجب الإيمان به ، (١) .

وقوله : « وارتابت قلوبهم » صفة ثالثة من صفاتهم الذميمة .
أى : أنهم بجانب عدم إيمانهم بالله واليوم الآخر ، رسخ الريب في قلوبهم فصاروا يشكون في صحة ما جئت به - أيها الرسول الكريم - ، ويقفون من تعاليمك وتوجيهاتك موقف المكذب المرتاب لا موقف المصدق المذعن .
وأضاف الشك والارتباب إلى القلوب ، لأنها محل المعرفة والإيمان .

وأورث صيغة الماضى - ارتابت ، للدلالة على تحقق الريب وتوحيدهم .
وأصل معنى التردد : الذهاب والمجئ . والمراد به هنا التحير على سبيل المجاز ، لأن المتحير لا يستقر في مكان ، ولا يثبت على حال .

أى : فهم في شكهم الذي حل بهم يتحيرون ، فتراهم كما وصفهم - سبحانه - في آية أخرى . « مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ... » (٢) .

(١) تفسير الألوسى ج ١٠ ص ١١٠ .

(٢) سورة النساء الآية ١٤٢ .

أى : متحيرين بين الكفر وبين الإيمان .

وبذلك نرى أن هاتين الآيتين قد ذكرتا السمات التى بها يتميز المؤمنون الصادقون عن غيرهم من الذين قالوا آمنا وما هم بمؤمنين .
ثم حكى - سبحانه - بعض المسالك الخبيثة التى كان يتبعها هؤلاء المنافقون لمحاربة الدعوة الإسلامية ، وكيف أنه - سبحانه - أحبط مكرهم فقال - تعالى - :

وَلَوْ أَرَادُوا

الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ
لَقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا
وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ
عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدْ ابْتَغُوا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ
حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَرِهُونَهُ ﴿٤٨﴾

وقوله : « ولو أرادوا الخروج ... » كلام مستأنف لبيان المزيد من
ردائل المنافقين . أو معطوف على قوله - سبحانه - قبل ذلك « لو كان عرضا
قريبا وسفرا قاصدا لاتبعوك » .

وقوله : « انبعاثهم » أى : نهوضهم وانطلاقهم الخروج بنشاط وهمة . من
البعث وهو إثارة الإنسان أو الحيوان وتوجيهه إلى الشئ بقوة وخفة .
تقول : بعثت البعير فانبعث إذا أثرته للقيام والسير بسرعة .

وقوله : « فثبطهم » أى : فثبثهم وحبسهم ، من الثبيط وهو رد الإنسان
عن الفعل الذى هم به عن طريق تعويقه عنه ومنعه منه .

يقال : ثبطله تثبيطا ، أى : قعد به عن الأمر الذى يريد منعه منه بالتخفيل ونحوه .

والمعنى : ولو أراد هؤلاء المنافقون الخروج معك — يا محمد — إلى تبوك ،
لأعدوا لهذا الخروج عدته اللازمة له من الزاد والراحلة ، وغير ذلك من
الأمور التي لا يستغنى عنها المجاهد في سفره الطويل ، والتي كانت في
مقدورهم وطاعتهم .

وقوله . (ولكن كره الله انبعاثهم) استدراك على ما تقدم .
أى : ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدته ، ولكنهم لم يريدوا ذلك ، لأن
الله — تعالى — كره خروجهم معك ، فحبسهم عنه ، لما يعلوه — سبحانه —
من تفاههم وقبح نواياهم ، وإشاعتهم للسوء في صفوف المؤمنين :

قال صاحب المكشاف : فان قلت . كيف موقع حرف الاستدراك ؟
قلت : لما كان قوله (ولو أرادوا الخروج ، معطيا معنى نفى خروجهم
واستعدادهم للغزو ، قيل : (ولكن كره الله انبعاثهم) ، كأنه قيل : ما خرجوا
ولكن تشبثوا عن الخروج لكره الله انبعاثهم ، كما تقول . ما أحسن إلى زيد
ولكن أساء إلى ، (١) .

وقال الجمل . وما هنا يتوجه سؤال ، وهو — وأن خروج المنافقين مع
رسول الله — صلى الله عليه وسلم — إما أن يكون فيه مصلحة أو مفسدة ،
فإن كان فيه مصلحة فلم قال . ولكن كره الله انبعاثهم فشبثهم . وإن كان فيه
مفسدة فلماذا عاتب نبيه — ﷺ — في إذنه لهم في القعود ؟

والجواب عن هذا السؤال : أن خروجهم مع رسول الله ﷺ كان
فيه مفسدة عظيمة ، بدليل أنه سبحانه . أخبر بتلك المفسدة بقوله .
وما زادوكم إلا خبالا

بقى أن يقال . فلم عاتب الله نبيه بقوله : دلم أذنت لهم ، ؟ فنقول . إنه
— صلى الله عليه وسلم — أذن لهم قبل إتمام الفحص ، وإكمال التدبر والتأمل في

حالمهم ، فإمّا هذا السبب قال . تعالى . (لم أذن لهم) وقيل إنما عاتبه لأجل أنه
أذن لهم قبل أن يوحى إليه في أمرهم بالعودة (١) :

وقوله . (وقيل أقعدوا مع القاعدين) تذييل المقصود منه ذمهم ووصفهم
بالجبن الخالغ ، والهمة الساقطة ، لأنهم بقعودهم هذا سيكونون مع النساء
والصبيان والمرضى والمستضعفين الذين لا قدرة لهم على خوض المعارك
والحروب

قال الآلوسى . وقوله . وقيل أقعدوا مع القاعدين : تمثيل لخلق الله داعية
العودة فيهم ، وإلقائه كراهة الخروج في قلوبهم بالأمر بالعودة أو تمثيل
لوسوسة الشيطان بذلك ، فليس هناك قول حقيقة . ويجوز أن يكون حكاية
قول بعضهم لبعض : أو حكاية لإذن الرسول ﷺ لهم في العودة ،
فيكون القول على حقيقته (٢) .

هذا ، ومن الأحكام انتهى أخذها العلماء من هذه الآية . أن الفعل يحسن
بالنية ، ويقبح بها . أيضاً . ، وإن استويا في الصورة ، لأن النفي واجب مع
نية النصر . وقبيح مع إرادة تحصيل القبيح ، وذلك لأنه . تعالى . أخبر أنه
كره انبعاثهم لما يحصل من إرادة المكر بالمسلمين .

ومنها : أن للإمام أن يمنع من يتهم بمضرة المسلمين من الخروج للجهاد ؛
حماية لهم من شروره ومفاسده .

ومنها : أن إعداد العدة للجهاد أمر واجب ، وقد قال . تعالى . في آية
أخرى . وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة . (٣) .

ثم بين . سبحانه . المفاسد المترتبة على خروج المنافقين في جيش المؤمنين
فقال : لو خرجوا فيكم ما زادوكم الا خبالا ، وأصل الخبال . الاضطراب
والمرض الذي يؤثر في العقل كالجنون ونحوه . أو هو الاضطراب في الرأي .

(١) حاشية الجمل على الجلائن ج ٢ ص ٢٨٧ .

(٢) تفسير الآلوسى ج ١٠ ص ١١١ . تصرف يسير .

(٣) تفسير القاسمى ج ٨ ص ٣١٦٧ .

أى : لو خرج هؤلاء المنافقون معكم أيها المؤمنون إلى تبوك، فما زادوكم شيئاً من الأشياء إلا اضطراباً في الرأي ؛ وفساداً في العمل، وضعفاً في القتال، لأن هذا هو شأن النفوس المريضة التي تسكره لكم الخير، وتحب لكم الشر . قال الألوسي . والاستثناء مفرغ متصل ، والمستثنى منه محذوف ، ولا يستلزم أن يكون لهم خبال حتى لو خرجوا زادوه لأن الزيادة باعتبار أعم العام الذي وقع منه الاستثناء .

وقال أبو حيان : إنه كان في تلك الغزوة منافقون لهم خبال فلو خرج هؤلاء أيضاً واجتمعوا بهم زاد الخبال ، فلا فساد في ذلك الاستلزام لو ترتب (١) .

وقوله : ولا وضعوا خلاكم ، معطوف على قوله : ما زادوكم ، والإيضاح . كما يقول القرطبي . سرعة السير قال الراجز . يا ليعنى فيها جذع أخب فيها وأضع يقال : وضع البعير . إذا أسرع في السير ، وأوضعه . حملته على العدو (٢) .

والخلل الفرجة بين الشيتين . والجمع الخلال ، أى : الفرج التي تكون بين الصفوف وهو هنا ظرف مكان بمعنى بين ، ومفعول الإيضاح محذوف ، أى . ولا سرعتوا بينكم ركانهم بالوشايات والنمائم والإفساد . ففي الكلام استعارة تبعية ، حيث شبه سرعة إفسادهم لذات البين بسرعة سير الرائب ، ثم استعير لها الإيضاح وهو اللابل وأصل الكلام . ولا وضعوا ركانهم ، ثم حذف الركانب .

وجملة « يبغيونكم الفتنة » في محل نصب على الحال من فاعل (أوضعوا

أى : لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا شراً وفساداً ، ولا سرعتوا بينكم

(١) تفسير الألوسي ج ١٠ ص ١١٢ (٢) تفسير القرطبي ج ٨ ص ١٥٧

بالإشاعات الكاذبة ، والأقوال الخبيثة ، حال كونهم باغين وطالبن لكم
الافتتان في دينكم ، والتشكيك في صحة عقائدكم ، والتشبيط عن القتال ،
والتخويف من قوة اعدائكم ، ونشر الفرقة في صفوفكم .
فالمراد بالفتنه هنا : كل ما يؤدي إلى ضعف المسلمين في دينهم أو في
دنياههم .

وقولهم : (وفيكم سماعون لهم ، بيان لأحوال المؤمنين في ذلك الوقت .
أى . وفيكم . في ذلك الوقت . يا معشر المؤمنين ، أناس كثير
السماع لهؤلاء المنافقين ، سريعو الطاعة لما يلقون إليهم من أباطيل .
قال ابن كثير . قوله : « وفيكم سماعون لهم » أى : مطيعون لهم ،
ومستحسنون لحديثهم و كلامهم ، يستنصحوهم وإن كانوا لا يعلمون حالهم ،
فيؤدي إلى وقوع شر بين المؤمنين وفساد كبير .
وقال مجاهد وزيد بن أسلم وابن جرير ، (وفيكم سماعون لهم) أى :
عبون يسمعون لهم الأخبار وينقلونها إليهم .
وهذا لا يبقى له اختصاص بخروجهم معهم ، بل هذا عام في جمع
الأحوال .

والمعنى الأول أظهر في المناسبة بالسياق . وإليه ذهب قتادة وغيره
من المفسرين .

وقال محمد بن إسحاق : كان الذين استأذنوا ، فيما بلغنى ، من ذوى
الشرف ، منهم عبد الله بن أبى بن سلوك ، والجد بن قيس ، وكانوا أشرفا في
قومهم ، فشبهم الله لعلمهم بهم أن يخرجوا فيفسدوا عليه جنده . وكان في جنده
قوم أهل محبة لهم ، وطاعه فيما يدعونهم إليه لشرفهم فقال : « وفيكم
سماعون لهم » (١)

وقوله : «والله عليم بالظالمين» تذييل المقصود منهم وعيد هؤلاء المنافقين وتهديدهم بسبب ما قدمت أيديهم من مفسد .
 أى : والله - تعالى - لا تخفى عليه خافية من أحوال هؤلاء الظالمين ، وسيعاقبهم بالعقاب المناسب لجرائمهم ورذائلهم .
 وبذلك نرى أن الآية الكريمة قد وضحت أن هناك ثلاث مفسد كانت ستترتب على خروج هؤلاء المنافقين مع المؤمنين إلى تبوك .
 أما المفسدة الأولى : فهي زيادة الاضطراب والفوضى في صفوف المجاهدين .

وأما المفسدة الثانية : فهي الإسراع بينهم بالوشايات والتهائم والإشاعات الكاذبة .

وأما المفسدة الثالثة : فهي الحرص على تفريق كلمتهم ، وتشكيكهم في عقيدتهم . . .

وهذه المفسد الثلاث ما وجدت في جيش إلا وأدت إلى انهزامه وفشله .
 ومن هنا كان تشييط الله - تعالى - لحؤلاء المنافقين ، نعمة كبرى للمؤمنين .

ومن هنا - أيضاً - كانت الكثرة العددية في الجيوش لا توفى ثمارها المرجوة منها ، إلا إذا كانت متحدة في عقيدتها ، وأهدافها ، واتجاهاتها . . .
 أما إذا كانت هذه الكثرة مشتملة على عدد كبير من ضعاف الإيمان ، فإنها في هذه الحالة يكون ضررها أكبر من نفعها .

ثم ذكر الله تعالى - فيه - صلى الله عليه وسلم - بطرف من الماضي المظلم هؤلاء المنافقين فقال : « لقد ابتغوا الفتنة من قبل ، وقلبوا لك الأمور ، حتى جاء الحق ، وظهر أمر الله وهم كارهون » .

أى : لقد ابتغى هؤلاء المنافقون إيقاع الشرور والمفسد في صفوف المسلمين ، من قبل ما حدث منهم في غزوة تبوك .
 ومن مظاهر ذلك أنهم ساء بهم اتصاركهم في غزوة بدر ، وامتنعوا عن

مناصر تكم في غزوة أحد ، متبعين في ذلك زعيمهم عبد الله بن أبي بن سلول ، ثم واصلوا حربهم لكم سرأ وجهراً حتى كانت غزوة تبوك التي فضح الله فيها أحوالهم .

فالمراد بقوله : « من قبل ، أى : من قبل هذه الغزوة التي كانت آخر غزوة غزاها رسول الله ﷺ » .

أى أن ما صدر عن هؤلاء المنافقين من مسالك خبيثة خلال غزوة تبوك ليس هو الأول من نوعه ، بل هم لهم في هذا المضمار تاريخ مظلم بدأ منذ أوائل عهد الدعوة الإسلامية بالمدينة .

وقوله : « وقلبوا لك الأمور ، بيان لتفننهم في وجوه الأذى للنبي - ﷺ - وتقليب الأمر : تصرفه ، وترديده ، وإجالة الرأى فيه ، والنظر إليه من كل نواحيه : لمعرفة أى ناحية منه توصل إلى الهدف المنشود .

والمراد أن هؤلاء المنافقين قد ابتغوا الأذى للدعوة الإسلامية من قبل هذه الغزوة ، ودبروا لصاحبها - ﷺ - المكائد ، واستعملوا قصارى جهدهم ، ومنتهى اجتهادهم ، وخلاصة مكرهم ، من أجل صد الناس عن الحق الذي جاء به محمد - ﷺ - :

وقوله : « حتى جاء الحق وظهر أمر الله ... » ، غاية لمخدوف والتقدير : أن هؤلاء المنافقين استمروا على حربهم للدعوة الإسلامية « حتى جاء الحق ، أى : النصر الذي وعد الله عباده به » وظهر أمر الله ، أى : دينه وشرعه . « وهم ، أى المنافقون وأشباہهم » كارهون ، لذلك ؛ لأنهم يكرهون انتصار دين الإسلام ، ويحبون هزيمته وخذلانه ، ولكن الله - تعالى - خيب آمالهم ، وأحبط مكرهم .

قال الإمام ابن كثير : عندما قدم النبي - ﷺ - المدينة ، رمته العرب عن قوس واحدة ، وحاربتة يهود المدينة ومنافقوها ، فلما نصره الله يوم بدر وأعلى كلمته ، قال عبد الله بن أبي ، وأصحابه : هذا أمر قد توجه ،

فدخلوا في الإسلام ظاهراً ، ثم كلما أعز الله الإسلام وأمله غاظمهم وساء بهم ،
ولهذا قال - تعالى - : « حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون »
ثم واصلت السورة الكريمة حديثها عن هؤلاء المنافقين ، فذكرت
من أعدائهم الكاذبة ، ومن أفوالهم الخبيثة . . . فقال تعالى -

وَمِنْهُمْ مَّنْ يَقُولُ

أُذِّنْ لِي وَلَا تَفْنِنِي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ
بِالْكَافِرِينَ ﴿٥٩﴾ إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ
يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ ﴿٦٠﴾ قُلْ لَنْ
يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ
الْمُؤْمِنُونَ ﴿٦١﴾ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيْنِ وَنَحْنُ
نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِنْدِهِ أَوْ يَأْتِيَنَا
فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ ﴿٦٢﴾

روى محمد بن إسحاق ويزيد بن رومان ، وعبد الله بن أبي بكر ، وعاصم
ابن قتادة وغيرهم قالوا : قال رسول الله - ﷺ - ذات يوم وهو في
جهازه - أي لغزوة تبوك - للجد بن قيس أخى بنى سيلة : « هل لك
يا جد في جلاد بنى الأصفر ، - يعنى الروم - فقال الجد : يا رسول الله أوقاذنى
ولا تفتنى ؟ فوالله لقد عرف قومي ما رجل أشد عجباً بالنساء منى ، وإني
أخشى إن رأيت نساء بنى الأصفر ألا أصبر عنهن ، فأعرض عنه رسول الله
- صلى الله عليه وسلم - وقال قد أذنت لك ، .

ففي الجرد بن قيس نزلت هذه الآية «وممنهم من يقول ائذن، ولا تفتنى (١)» .
 أى : ومن هؤلاء المنافقين الذين لم ينته الحديث عنهم بعده من يقول «
 لك - يا محمد - « ائذن لى ، فى القعود بالمدينة ، « ولا تفتنى ، أى ولا توقعنى
 فى المعصية والإثم بسبب خروجى معك إلى تبوك ، ومشاهدتى لنساء
 بنى الأصفر .

وعبر - سبحانه - عن قول هذا المنافق بالفعل المضارع ، لاستحضار
 تلك الحال اغرابتها ، فإن مثله فى نفاقه وفجوره لا يخشى إثم الافتتان بالنساء .
 إذ لا يجد من دينه ما نعا من غشيان الشهوات الحرام .
 وقوله : « ألا فى الفتنة سقطوا ، رد عليه فيما قال ، وقم له على ما تفوه به .
 أى : ألا إن هذا وأمثاله فى ذات الفتنة قد سقطوا ، لا فى أى شىء آخر .
 مغاير لها .

وبدا - سبحانه - الجملة الكريمة بأداة التنبيه « ألا ، ، لتأكيد الخبر ،
 وتوجيه الأسماع إلى ما اشتمل عليه من توبيخ هؤلاء المنافقين .
 وقدم الجار والمجرور على عامله ؛ الدلالة على الحصر . أى فيها لا فى .
 غيرها قد سقطوا وهووا إلى قاع سحيق .

قال الألوسى : وفى التعبير عن الافتتان بالسقوط فى الفتنة ، تنزيل لها
 منزلة المهوأة المهلكة المفصحة عن تردبهم فى دركات الردى أسفل سافلين (٢) .
 وقال الفخرى الرازى ما ملخصه وفيه تنبيه على أن القوم إنما اخذوا
 القعود لئلا يقعوا فى الفتنة ، فالتة - تعالى - بين أنهم فى عين الفتنة واقعون .
 لأن أعظم أنواع الفتنة الكفر بالله وبرسوله ، والتمرد على قبول التكليف .
 التى كلفنا الله بها . (٣) .

(١) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٣٦٢ .

(٢) تفسير الألوسى ج ١ ص ١١٤ .

(٣) تفسير الفخر الرازى ج ٤ ص ٤٤٨ .

وقوله : « وإن جهنم لمحيطة بالمكافرتن ، وعيد وتهديد لهم على أقوالهم وأفعالهم .

أى : وإن جهنم لمحيطة بهؤلاء الكافرين بما جاء من عند الله ، دون أن يكون لهم منها مهرب أو مفر .

وعبر عن إحاطتها بهم باسم الفاعل الدال على الحال ، لإفادة تحقيق ذلك حتى لكانه واقع مشاهد .

قالوا : ويحتمل أنها محيطة بهم الآن ، بأن يراد بجهنم الأسباب الموصلة إليها من الكفر والنفاق وغير ذلك من الرذائل التى سقطوا فيها .

وقوله : « إن تصيبك حسنة تسؤهم ... » يبان لنوع آخر من خبيث نواياهم ، وسوء بواطنهم .

أى : « إن تصيبك ، يا محمد حسنة من نصر أو نعمة أو غنيمة - كما حدث يوم بدر - تسؤهم ، تلك الحسنة ، وتورثهم حزنا وغما ، بسبب شدة عداوتهم لهم ولأصحابك .

« وإن تصيبك مصيبة ، من هزيمة أو شدة - كما حدث يوم أحد - يقولوا ، باختيال وعجب وشماتة قد أخذنا أمرنا من قبل ، .

أى : قد تلافينا ما يهمننا من الأمر بالحزم والتيقظ ، من قبل وقوع المصيبة التى حلت بالمسلمين ، ولم نلق بأيدينا إلى التملكة كما فعل هؤلاء المسلمون .

وقوله : « ويتولوا وهم فرحون ، تصوير لحالهم ، ولما جبلوا عليه من شماتة بالمسلمين .

أى : عندما تصيب المسلمين مصيبة أو مكروه ، ينصرف هؤلاء المنافقون إلى أهلهم وشيعتهم - والفرح بيملاً جوا نحبهم - ليشيروهم بما نزل بالمسلمين من مكروه .

قال الجمل : فإن قلت : فلم قابل الله الحسنة بالمصيبة ، ولم يقابلها بالسيئة .

كما قال فى سورة آل عمران : « وإن تصيبكم سيئة يفرّ حوايها ، ؟

قلت : لأن الخطاب هنا للنبي - ﷺ - وهي في حقه مصيبة يثاب عليها ، لاسيئة يعاتب عليها ، والتي في آل عمران خطاب للمؤمنين ، (١) .
وقوله : « قل إن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا . . . » ، إرشاد للرسول - ﷺ - إلى الجواب الذي يكتبهم ويزيل فرحتهم .

أى : قل - يا محمد - لهؤلاء المنافقين الذين يسرهم ما يصيبك من شر ، ويحزنهم ما يصيبك من خير ، والذين خلت قلوبهم من الإيمان بقضاء الله وقدره ، قل لهم على سبيل التقرير والتبكيث . إن يصيبنا إلا ما كتبه الله لنا وقدره علينا ، هو مولانا ، الذي يتولانا في كل أمورنا ، ونلجأ إليه في كل أحوالنا . وعليه وحدد - سبحانه - نكل أمورنا وليس على أحد سواه .

وقوله : « قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين . . . » ، إرشاد آخر للرسول - صلى الله عليه وسلم - إلى الجواب الذي يخرس أسنة هؤلاء المنافقين ويزيل فرحتهم .

وقوله : « تربصون ، التربص بمعنى الانتظار في تمهل . يقال : فلان يتربص بفلان الدوائر ، إذا كان يفتظر وقوع مكروه به .
والحسنيان : مثني الحسنى . والمراد بهما : النصر أو الشهادة .

أى : قل يا محمد لهؤلاء المنافقين - أيضا - إنكم ما تنتظرون بنا إلا إحدى العاقبتين اللتين كل واحدة منهما أحسن من جميع العواقب ، وهما إما النصر على الأعداء ، وفي ذلك الأجر والمغنم والسلامة ، وإما أن تقتل بأيديهم وفي ذلك الشهادة والفوز بالجنة والنجاة من النار .

قال الآلوسى : والحاصل أن ما تنتظرونه بنا - أيها المنافقون - لا يخلو من أحد هذين الأمرين ، كل منهما عاقبته حسنى لا كما تزعمون من أن ما يصيبنا من القتل في الغزو سوء ، ولذلك نمررت به .

وصح من حديث أبي هريرة عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال :
 تسكفل الله - تعالى - لمن جاهد في سبيله لا يخرج منه من بيته إلا الجهاد في
 سبيله ، وتصدق كلمته أن يدخله الجنة ، أو يرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه
 مع ما نال من أجر وغنيمة ، (١) .

وقوله : ، ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا ،
 بيان لما ينتظر المؤمنون وقوعه بالمنافقين .

أى : ونحن معشر المؤمنين نتربص بكم أيها المنافقون إحدى السوءيين
 من العواقب : إما ، أن يصيبكم الله بعذاب ، كائن « من عنده » فيهلككم كما
 أهلك الذين من قبلكم ، وإما أن يصيبكم بعذاب كائن « بأيدينا » بأن يأذن
 لنا في قتالكم وقتلكم .

والفاء في قوله : « فتربصوا إنا معكم متربصون » للإفصاح .

أى : إذا كان الأمر كذلك فتربصوا بنا ما هو عاقبتنا ، فإننا معكم متربصون
 بكم ما هو عاقبتكم ، وسترون أن عاقبتنا على كل حال هى الخير ، وأن
 عاقبتكم هى الشر .

وبذلك ترى أن هذه الآيات الكريمة ، قد حكمت طرفاً من رذائل المنافقين
 ومن مسائلهم الخبيثة لتكيد الدعوة الإسلامية ، وردت عليهم بما يكبتهم ،
 ويفضحهم على رؤس الأشهاد .

ثم بين - سبحانه - أن هؤلاء المنافقين نفقاتهم غير مقبولة ، لأن
 قلوبهم خالية من الإيمان . ولأن عباداتهم ليست خالصة لوجه الله ، وأن
 ما ينفقونه سيكون عليهم حسرة فقال - تعالى - :

قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ

يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقَبَّلَ

مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ

إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَرِهُونَ ﴿٥٤﴾ فَلَا تُعْجِبْكَ

أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

وَيَزَهَقَ أَنْفُسَهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٥٥﴾

روى أن بعض المنافقين قال للنبي ﷺ - عندما دعاهم إلى الخروج معه إلى تبوك : انذن لي في القعود وهذا مالى أعينك به ، فنزل قوله - تعالى - : « قل أنفقوا طوعاً أو كرها إن يتقبل منكم ... » والمعنى : قل يا محمد لهؤلاء : أنفقوا ما شئتم من أموالكم في وجوه الخير حالة كونكم طائعين ، أى : من غير إجبار أحد لـكم ، أو كارهين ، أى بأن تجبروا على هذا الإنفاق إجباراً ، فلن يقبل منكم ذلك الإنفاق . والكلام وإن كان قد جاء في صورة الأمر ، إلا أن المراد به الخبر وقد أشار إلى ذلك صاحب الكشاف بقوله .

فإن قلت : كيف أمرهم بالإنفاق ثم قال : « لن يتقبل منكم » ، قلت : هو أمر في معنى الخبر ، كقوله - تعالى - « قل من كان في الضلالة فليمدد له الرحمن مدداً » ومعناه : لن يتقبل منكم أنفقتم طوعاً أو كرهاً ، ونحوه قوله - تعالى - : « استغفر لهم أو لا تستغفر لهم » وقول الشاعر .

أسيئى بنا أو أحسنى لا ملومة لدينا ولا مقلية إن تقلت
أى : لن يغفر الله لهم ، استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم ولا تلومك
سواء أسأت إلينا أم أحسنت ... (١)

وجاء الكلام في صورة الامر ، للمبالغة في تساوى الامرين ، وعدم الاعتداد بنفقتهم سواء أقدموها عن طوعية أم عن كراهية .
وقوله . (لن يتقبل منكم) بيان لثمرة إنفاقهم . أى : لن يتقبل منكم ما أنفقتموه ، ولن تنالوا عليه ثواباً .

وقوله : . (إنكم كنتم قوماً فاسقين) تعليل لعدم قبول نفقاتهم .
أى : لن يتقبل منكم نفقاتكم بسبب عتوكم في الكفر ، وتمردكم على تعاليم الإسلام وخروجكم عن الطاعة والاستقامة .

قال القرطبي ما ملخصه . وفي الآية دليل على أن أفعال الكافر إذا كانت برأ كصلة القرابة ، وجبر الكسير ، وإغاثة الملهوف ، لا يثاب عليها ، ولا ينتفع بها في الآخرة ، بيد أنه يطعم بها في الدنيا .

دليله ما رواه مسلم عن عائشة — رضى الله عنها — قالت : قلت يا رسول الله ، ابن جدعان كان في الجاهلية يصل الرحم ، ويطعم المسكين ، فهل ذلك نافعه ؟ قال : لا ينفعه ، أنه لم يقل يوماً رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين :

وروى عن أنس قال : قال رسول الله — ﷺ — . إن الله لا يظلم مؤمناً حسنة يعطى بها في الدنيا ويجزى بها في الآخرة ، وأما الكافر فيطعم بمسئلات ما عمل لله بها في الدنيا ، حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم يكن له حسنة يجزى بها . (١) :

وقال الجمل : وهذه الآية وإن كانت خاصة في إنفاق المنافقين ، فهي عامة في حق كل من أنفق ماله لغير وجه الله ، بل أنفقته رياء وسمعة فإنه لا يقبل منه (٢) .
ثم بين — سبحانه — على سبيل التفصيل لمظاهر فسقهم — أن هناك ثلاثة أسباب أدت إلى عدم قبول نفقاتهم .

أما السبب الأول فقد عبر عنه — سبحانه — بقوله : وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله . (. . .) .

(١) تفسير القرطبي ج ٨ ص ١٦١ .

(٢) حاشية الجمل على القرآن ص ١١١ .
Made searchable using ScribeTools.com

أى : وما منعهم قبول نفقاتهم شئ من الأشياء إلا كفرهم بالله - تعالى -
ورسوله - ﷺ -

فالاستثناء من أهم الأشياء . والضمير في (منعهم) هو المفعول الأول للفعل ،
وقوله « أن تقبل » هو المفعول الثانى ، لأن الفعل «منع» يتعدى لمفعولين
قارة بنفسه كما هنا ، وقارة يتعدى إلى المفعول الثانى بحرف الجر و«و» حرف
« من ، أو » عن .

والفاعل ما في حيز الاستثناء وهو قوله : «إلا أنهم كفروا ...»
وأما السبب الثانى فقد عبر عنه - سبحانه - بقوله : «ولا يأتون الصلاة
إلا وهم كسالى» .

ولفظ «كسالى» . جمع كسلان ، مأخوذ من الكسل بمعنى التثاقل عن
الشئ . ، والفتر عن أدائه . وفعله بزنة فرح .

أى : «ولا يأتون الصلاة التى كتبها الله عليهم فى حال من الأحوال ، إلا فى
حال كونهم متثاقلين عنها دون أن تنشط لها أبدانهم» ، أو تشرح معها صدورهم ،
وذلك لأنهم قوم خلت قلوبهم من الإيمان ، فصاروا لا يرجون من وراء أدائها
ثواباً ولا يخشون من وراء تركها عقاباً ، وإنما يؤدونها رياء أو تقية للمسلمين
وشبيه بهذه الجملة الكريمة قوله - تعالى - فى سورة النساء : «إن المنافقين
يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى ، يراءون
الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا» .

وأما ، السبب الثالث فقد عبر عنه - سبحانه - بقوله : «ولا ينفقون إلا
وهم كارهون» .

أى . «ولا ينفقون نفقة فى سبيل الله إلا وهم كارهون لها لأنهم يعدونها
مغرماً ، ويعتبرون تركها مغنماً ، وما حملهم على الإنفاق إلا الرياء أو المخادعة
أو الخوف من إنكشاف أمرهم ، واقتضاح حالهم» .

قال صاحب الكشف : «فان قلت : الكراهية خلاف الطوعية ، وقد

جعلهم الله - تعالى - طائعين في قوله دطوعاً ، ثم وصفهم هنا بأنهم لا ينفقون إلا وهم كارهون فكيف ذلك ؟

قلت : المراد بطوعهم أنهم يبدلون نفقتهم من غير إلزام من رسول الله ﷺ . أو من رؤسائهم ، وما طوعهم ذلك إلا عن كراهية واضطرار ، لا عن رغبة واختيار (١) .

أى : أن نفقتهم في جميع الأحوال لا يقصد بها الاستجابة لشرع الله ، وإنما يقصد بها الرياء أو المخادعة ، أو خدمة مصالحهم الخاصة .

ثم نهى الله - تعالى - المزمين في شخص نبهم . ﷺ . عن التطلع إلى ما في أيدي هؤلاء المنافقين فقال . « فلا تتعجبك أموالهم ولا أولادهم ... » والإعجاب بالشئ معناه : أن تسربه سروراً يجعلك راضياً به ومتعنياً له . والفا في قوله : (فلا تتعجبك ، للافصاح .

أى إذا كان هذا هو شأن المنافقين ، فلا تستحسن . أيها العاقل . ما أعطيتهم إياه من أموال وأولاد ، فإنه نوع من الإستدراج .

وقوله . إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا ، تعليل للنهى عن الإعجاب بما أعطاهم الله من أموال وأولاد .

أى : إنما يريد الله بعبائهم تلك الأموال والأولاد أن يعذبهم بها في الحياة الدنيا وقد بسط الإمام الرازى مظاهر تعذيب المنافقين في الدنيا بالأموال والأولاد فقال ما ملخصه .

المنافقون يعذبهم الله بأموالهم وأولادهم في الحياة الدنيا : من وجوه .
أحدها : أن الرجل إذا (آمن بالله واليوم الآخر ، علم أنه خلق للآخرة لا للدنيا ، وبهذا العلم يفتر حبه للدنيا : وأما المنافق فإنه لما اعتقد أنه لا سمادة له إلا في هذه الخيرات العاجلة ، عظمت رغبته فيها ، واشتد حبه لها ، وكانت

الآلام الحاصلة بسبب فواتها أكثر في حقه . . فهذا النوع من العذاب حاصل لهم في الدنيا بسبب الأموال والأولاد .

وثانياً : أن النبي ﷺ . كان يكلفهم إنفاق تلك الأموال في وجوه الخيرات ، ويكلفهم إرسال أولادهم إلى الجهاد والغزو ، وذلك يوجب تعريض أولادهم للقتل ، وهم كانوا يعتقدون أن محمداً ليس صادقاً في كونه رسول ، وكانوا يعتقدون أن إنفاق تلك الأموال تضييع لها من غير فائدة وأن تعريض أولادهم للقتل التزام لهذا المكروه الشديد من غير فائدة ، ولا شك أن هذا كله تعذيب لهم .

وثالثاً : أنهم كانوا يبغضون محمداً . ﷺ . بقلوبهم ، ثم إنهم كانوا يحتاجون إلى بذل أموالهم وأولادهم في خدمته . ولا شك أن هذه الحالة شاقة شديدة عليهم .

ورابعاً : أنهم كانوا خائفين من أن يفتضحوا ويظهر نفاقهم وكفرهم ظهوراً تاماً ، فيصبرون أمثال سائر أهل الحرب من الكفار . حينئذ يتعرض الرسول ﷺ . لهم بالقتل وسبى الأولاد . . . وكل ذلك يوجب ألمهم وقلقهم .

وخامساً : أن كثيراً من المنافقين كان لهم أولاد أتقياء كحنظلة بن أبي عامر وعبد الله بن عبد الله ابن أبي . . . وكانوا لا يرتضون طريقة آبائهم في النفاق ، ويقدحون فيهم

والإبن إذا صار هكذا عظم تأذي الأب به ، واستيجاشه منه ، فصار حصول تلك الأولاد سبباً لعذابهم (١٠٠٠) . ١٠ .

وقوله : (وتزهق أنفسهم وهم كافرون ، بيان لسوء مصيرهم في الآخرة بعد بيان عذابهم في الدنيا .

وتزهق النفس : خروجها من الجسد بصعوبة ومشقة . يقال : زهقت

نفسه تزهق إذا خرجت . وزهق الشيء إذا هلك وأضحل ، ومنه قوله

- تعالى - : «وقل جاء الحق وزهق الباطل»

والمعنى : لا تعجبك - أيها العاقل - أموال هؤلاء المنافقين ولا أولادهم

إلما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا ، ويريد كذلك أن تخرج أرواحهم

من أجسادهم وهم كافرون ، فيعذبهم بسبب كفرهم عذاباً أليماً .

فأنت ترى أن الآية الكريمة قد توعدت المنافقين بسوء المصير في

الآخرة ولن يحسد إنسان مصيره كهذا المصير .

قال الإمام الرازي : ومن تأمل في هذه الآيات عرف أنها مرتبة على أحسن

الوجوه ، فإنه - سبحانه - لما بين قبائح أفعالهم ، وفضائح أعمالهم ، بين ما لهم

في الآخرة من العذاب الشديد ، وما لهم في الدنيا من وجوه المحنة والبلية

ثم بين بعد ذلك أن ما يفعلونه من أعمال البر لا ينفعون به يوم القيامة البتة ثم

بين في هذه الآية أن ما يظنون من منافع الدنيا ، فهو في حقيقته سبب لعذابهم

وبلائهم وتشديد المحنة عليهم ، وعند ذلك يظهر أن النفاق جالب لجميع الآفات

في الدنيا والدين ، ومبطل لجميع الخيرات في الدين والدنيا (١)

وبعد أن بينت السورة الكريمة أن هؤلاء المنافقين قد خسروا الدنيا

والآخرة ، أتبع ذلك بالحديث عن ردائهم وقبائحهم التي على رأسها الجبن

والكذب فقال - تعالى - :

وَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِيَّاهُمْ لِمَنكُم مَّا هُمْ

بِمَنكُم وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأًا أَوْ مَغْرَبًا

أَوْ مَدْخَلًا لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾

أى : أن هؤلاء المنافقين يحلفون بالله لكم - أيها المؤمنون - إنهم لمنكم .
 أى : فى الدين والملة ، والحق أنهم ما هم منكم ، لأنهم يظهرون الإسلام ويخفون
 الكفر ، فهم كما وصفهم - سبحانه - فى قوله : إذا جاءك المنافقوى قالوا نشهد
 إنك لرسول الله ، والله يعلم إنك لرسوله ، والله يشهد إن المنافقين لكاذبون .
 اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله ، إنهم ساء ما كانوا يعملون .

وقوله : . ولكنهم قوم يفرقون ، استدرارك للرد عليهم فيما قالوه
 وأقسموا عليه كذبا وزورا .

وقوله : . يفرقون ، من الفرق ، بمعنى الفرع الشديد من أمر يتوقع
 حصوله .

يقال : فرق فرقا إذا اشتد خوفه واهله .

أى : أن هؤلاء المنافقين لشدة خوفهم واهلهم - أيها المؤمنون - يحلفون
 لكم كذبا وزورا بأنهم منكم ، والحق أنهم ما هم منكم ، ولكنهم قوم جبناء ،
 لا يستطيعون مصارحتكم بالعداوة ، ولا يجرأون على مجاہتكم بما تخفيه
 قلوبهم لكم من بغضاء .

وقوله - سبحانه - : . لو يجدون ملجأ أو مغارات . . . ، تأكيد لما كان
 عليه أو أئلك المنافقون من جبن خال . . .

والملاجئ : اسم المكان الذى يلجأ إليه الخائف ليختبئ به سواء أكان
 حصنا أو قلعة أو غيرهما .

والمغارات : جمع مغارة وهى المكان المنخفض فى الأرض أو فى الجبل .
 قال بعضهم : والغور - بفتح الغين - من كل شئ قعره . يقال : غار الرجل -
 غورا إذا أتى الغور وهو المنخفض من الأرض ، ، (١) .

والمدخل - بتشديد الدال اسم الموضع الذى يدخلون فيه ، بصعوبة ومشقة لضيقه ، كالنفق فى الأرض .

وقوله : ويجمعون ، أى : يسرعون أشد الإسراع مأخوذ من الجوح وهو أن يغلب الفرس صاحبه فى سيره وجريه . يقال : جمع الفرس براكبه جموحا ، إذا استعصى عليه حتى غلبه .

والمعنى : أن هؤلاء المنافقين لو يجدون حصنا يلتجئون إليه أو مغارات يستخفون فيها . أو سردابا فى الأرض ينحجرون فيه ، لأقبلوا نحوه سرعين أشد الإسراع دون أن يردهم شيء ، كالفرس الجوح الذى عجز صاحبه عن منعه من التفور والعدو .

فآية السكرتمة تصوير معجز لما كان عليه أولئك المنافقون من خوف شديد من المؤمنين ، ومن بغض دفين لهم ، حتى لم يسموا لو وجدوا شيئا من هذه الأمكنة - التى هى منفور منها - لأسرعوا نحوها إسراعا شديدا .

ثم تمضى السورة بعد ذلك فى الكشف عن الأقوال المنكرة ، والأفعال القبيحة التى كانت تصدر عن المنافقين فتقول :

وَمِنْهُمْ مَّنْ يَلْمِزُكَ فِي

الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ

يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا

اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴿٥٩﴾

قال الإمام الرازى : اعلم أن المقصود من هذا ، شرح نوع آخر من قبائحهم وفضائحهم ، وهو طعنهم فى الرسول - ﷺ - بسبب أخذه

الصدقات من الأغنياء ، ويقولون إنه يؤثر بها من يشاء من أقاربه وأهل مودته ، وينسبونه إلى أنه لا يراعى العدل ، (١) .

هذا ، وقد ذكر المفسرون في سبب نزول هاتين الآيتين روايات منها : ما أخرجه البخارى والنسائى عن أبى سعيد الخدرى - رضى الله عنه - قال : بينما النبي - ﷺ - يقسم قسما إذا جاءه ذو الخويصرة التميمي فقال : أعدل يا رسول الله ، فقال : ويلك ! ومن يعدل إذا لم أعدل ؟ ، فقال عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - : ائذن لي فأضرب عنقه ، فقال رسول الله - ﷺ - : « دعه فإن له أصحابا يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم ، وصيامه مع صيامهم ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم في الرمية ... » ، قال أبو سعيد ، فنزلت فيهم : « ومنهم من يلزمك في الصدقات ... »

وروى ابن مردويه عن ابن مسعود - رضى الله عنه - قال : « لما قسم النبي - ﷺ - غنائم حنين سمعت رجلا يقول : « إن هذه قسمة ما أريد بها وجه الله . فأتيت النبي - صلى الله عليه وسلم - فذكرت له ذلك فقال : « رحمة الله على موسى ، لقد أودى بأكثر من هذا فصبر ، . ونزل « ومنهم من يلزمك في الصدقات (٢) » ، .

وقوله : « يلزمك ، أى : يعيبك ويظعن عليك في قسمة الصدقات وغيرها من الأموال ، مأخوذ من اللز وهو العيب . يقال لمزه وهمزه يلزمه ويهمزه إذا عابه وظعن عليه ، ومنه قوله - تعالى - : « ويل لكل همزة لمزة » .

وقيل : اللزم ما كان بحضرة الملموز ، والهمز ما كان في غيابه . والمعنى : ومن هؤلاء المنافقين - يا محمد - من يعيبك ويظعن عليك في قسمة الصدقات والغنائم ، زاعمين أنك لست عادلا في قسمتك .

(١) تفسير الفخر الرازى ج ٤ ص ٤٥٥ .

(٢) تفسير المنار ج ١٠ ص ٥٦٦ .

وقوله : « فان أعطوا منها رضوا ... » ، بيان لفساد لمزهم وطعنهم ، وأن الدافع إليه إما هو الطمع والشره في حطام الدنيا ، وليس الغضب من أجل إحقاق الحق : أو من أجل نشر العدالة بين الناس .

أى : أن هؤلاء المنافقين إن أعطيتهم . يا محمد . من تلك الصدقات ، رضوا عنك ، وحكموا على هذا العطاء بأنه عدل حتى ولو كان ظلماً ، وإن لم تعظم منها سخطوا عليك ، واتهموك بأفك غير عادل ، حتى ولو كان عدم عطايتهم هو الحق بعينه ، فهم لا يقولون ما يقولونه فيك غضباً للعدل ، ولا حماسة للحق ، ولاغيرة على الدين .. وإنما يقولون ما يقولون من أجل مطامعهم الشخصية ، ومنافعهم الذاتية .

قال الجمل . وقوله « إذا هم يسخطون » ، إذا هنا فجائية ، قائمة مقام فاء الجزاء في الربط على حد قوله : « وتختلف الفاء إذا المفاجأة » . والأصل . فهم يسخطون (وغاير . سبحانه . بين جوابي الجمائين ، للإشارة إلى أن سخطهم ثابت لا يزول ولا ينفى بخلاف رضاهم (١) .

وقال صاحب المنار . وقد هرب . سبحانه . عن رضاهم بصيغة الماضي : للدلالة على أنه كان يكون لأجل العطاء في وقته وينقضى ، فلا يعدونه نعمة يتمنون دوام الإسلام لدوامها ، وعبر عن سخطهم فاذا المفجائية وبالفعل المضارع ، للدلالة على سرعته واستمراره . وهذا دأب المنافقين وخلقهم في كل زمان ومكان ، كما نراه بالعيان حتى من مدعى كمال الإيمان ، والعلم والعرفان (٢) .

ثم وضع . سبحانه . المنهج الذي يليق بأصحاب العقيدة السليمة فقال : (ولو أنهم رضوا لما آتاهم الله ورسوله ... » .

أى . ولو أن هؤلاء المنافقين الذين يلمزونك . يا محمد . في الصدقات ، رضوا ما أعطاهم الله ورسوله من عطاء ، وقالوا ، على سبيل الشكر والقناعة .

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٢ ص ٢٩١ .

(٢) تفسير المنار ج ١٠ ص ٥٦٧ .

«حسبنا الله ، أى : كفانا فضله وما قسمه لنا ، سيؤتينا الله من فضله ورسوله ، أى : سيعطينا الله فى المستقبل الكثير من فضله وإحسانه ، وسيعطينا رسوله من الصدقات وغيرها » إنا إلى الله راغبون ، أى : إنا إلى الله راغبون فى أن يوسع علينا من فضله ، فيغنيننا عن الصدقات وغيرها من أموال الناس ومن صلاتهم ، لأنه - سبحانه - له خزائن السموات والأرض . وجواب لو ، محذوف . والتقدير : ولو أنهم فعلوا ذلك لكان خيرا لهم . قال الإمام الرازى ما ملخصه : والآية تدل على أن من طلب الدنيا - بطمع وشراهة - آل أمره فى الدين إلى النفاق ، وأما من طلب الدنيا بتوسط وبغرض التوصل إلى مصالح الدين ، فهذا هو الطريق الحق ، والأصل فى هذا الباب أن يكون راضياً بقضاء الله ...

ألا ترى أنه - سبحانه - ذكر هنا فى هذه الآية مراتب أربعة :

أولها : الرضا بما آتاهم الله ورسوله ، لعلمه بأنه - تعالى - حكم منزله عن العبث ، وكل ما كان حكما له وقضاء كان حقا وصوابا ولا اعتراض عليه .

وثانيها : أن يظهر أثر ذلك الرضا على لسانهم وهو قولهم : «حسبنا الله ، يعنى : أن غيرنا أخذ المال ، ونحن قد رضينا بحكم الله وقضائه . وفزنا بهذه المرتبة العظيمة فى العبودية ...

وثالثها : وهى أن الإنسان إذا لم يبلغ تلك الدرجة العالية التى عندها يقول : «حسبنا الله ، نزل منها إلى مرتبة أخرى وهى أن يقول : سيؤتينا الله من فضله ورسوله ...

ورابعها : أن يقول : « إنا إلى الله راغبون ، فنحن لا نطلب من الإيمان والطاعة أخذ الأموال ، وإنما نطلب اكتساب سعادات الآخرة ... » (١)

(١) تفسير الفخر الرازى ج ٤ ص ٤٥٦ طبعة المطبعة الشرفية سنة ١٣٢٤ هـ - الطبعة الثانية -

وبعد أن بين - سبحانه - المنهج اللائق بأصحاب العقيدة السليمة في طاب الدنا عقب ذلك ببيان المستحقين للصدقات فقال - تعالى - .

إِنَّمَا

الْصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ
وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَرَمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنْ
اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٩٩﴾

قال الإمام ابن كثير. لما ذكر الله - تعالى - إعتراض المنافقين الجملة على النبي - ﷺ - ولمزهم إياه في قسم الصدقات . بين - سبحانه - أنه هو الذي قسمها ، وبين حكمها ، وقولى أمرها بنفسه ، ولم بكل قسمها إلى أحد غيره فجزأها لهؤلاء المذكورين ، كما رواه أبو داود في سنته عن زياد بن الحارث الصدائ قال . أتيت النبي - ﷺ - فبايعته . فأتى رجل فقال . أعطني من الصدقة فقال له . . إن الله لم يرض بحكم نبي ولا غيره . في الصدقات حتى حكم فيها هو ، فجزأها ثمانية أصناف ، فإن كنت من تلك الأجزاء أعطيتك ، (١) .

والمراد بالصدقات هنا - عند كثير من العلماء - الزكاة المفروضة . ولفظ الصدقات . مبتدأ ، والخبر محذوف ، والتقدير : إنما الصدقات مصروفة للفقراء والمساكين . . . الخ .

والفقراء . جمع فقير ، وهو من له أدنى شيء من المال . أو هو من لا يملك المال الذي يقوم بحاجاته الضرورية من مأكل ومشرب وملبس ومسكن . . . يقال فقر الرجل يفقر - من باب تعب - إذا قل ماله .

قالوا : وأصل الفقير في اللغة : الشخص الذي كسر فقار ظهره ، ثم استعمل فيمن قل ماله لانكساره بسبب احتياجه إلى غيره :

أو هو من الفقرة بمعنى الحفرة ، ثم استعمل فيما ذكر لسكونه أدنى حالا من أكثر الناس ، كما أن الحفرة أدنى من مستوى سطح الأرض المستوية .
والمساكين : جمع مسكين ، وهو من لا شيء له ، فيحتاج إلى سؤال الناس لسد حاجاته ومطالب حياته .
وهو مأخوذ من السكون الذي هو ضد الحركة ، لأن احتياجه إلى غيره أسكنه وأذله :

وقيل . المسكين هو الذي له مال أو كسب ولكنه لا يكفيه ، وعلى هذا يكون قريب الشبه بالفقير :
وقوله : والعالمين عليها ، بيان للصنف الثالث من الأصناف الذين تجب لهم الزكاة .

والمراد بهم . من كلفهم الإمام بجمع الزكاة وتحصيلها عن يدهم لصاحبها . ويدخل فيهم العريف ، والحاسب ، والكاتب ، وحافظ المال ، وكل من كلفه الإمام أو نائبه بعمل يتعلق بجمع الزكاة أو حفظها ، أو توزيعها .
وقوله . . والمؤلفة قلوبهم ، بيان للصنف الرابع .

والمراد بهم الأشخاص الذين يرى الإمام دفع شيء من الزكاة إليهم تأليفاً لقلوبهم ، واستمالة لنفوسهم نحو الإسلام ، لكف شرهم ، أو لرجاء نفعهم ، وهم أنواع :

منهم قوم من الكفار ، كصفوان بن أمية ، فقد أعطاه النبي ﷺ من غنائم حنين ، وكان صفوان يومئذ كافراً ، ثم أسلم وقال : والله لقد أعطاني النبي ﷺ . وكان أبغض الناس إلى ، فما زال يعطيني . حتى أسلمت ولأنه لأحب الناس إلى .

ومنهم قوم كانوا أحد بني عهد بالإسلام وكانوا من ذوى الشرف في أقوامهم . فكان النبي ﷺ يعطيهم ، ليثبت إيمانهم ، وليدخل معهم في الإسلام أتباعهم .

ومن أمثلة ذلك ما فعله الرسول ﷺ مع الأقرع بن حابس وعيينة بن حصن ، والزبرقان بن بدر ، فقد أعطاهم ﷺ لمساكنهم في عشيرتهم ، ولشرفهم في أقوامهم . ولیدخل معهم في الإسلام غيرهم .

ومنهم قوم كانوا ضعاف الإيمان ، فكان ﷺ يعطيهم تأليفاً لقلوبهم ، وتقوية لإيمانهم . لكي لا يسرى ضعف إيمانهم إلى غيرهم .
ومن أمثلة هذا الصنف العباس بن مرداس السلمي ، فقد أعطاه النبي ﷺ تأليفاً لقلبه ، وتثبيتاً لإيمانه .

والخلاصة أن النبي ﷺ كان يتألف قلوب بعض الناس بالعطاء ، دفعاً لشركهم ، أو أملاً في تفهمهم ، أو رجاء هدايتهم .

وقوله : (وفي الرقاب) بيان لنوع خامس من مصارف الزكاة . وفي الكلام مجاز بالحذف ، والتقدير : وتصرف الصدقات أيضاً في فك الرقاب ، بأن يعان المكاتبون بشيء منها على أداء بدل الكتابة ، لكن يصيروا أحراراً . أو بأن يشتري بجزء منها عدد من العبيد لكي يعتقوا من الرق .
وذلك لأن الإسلام يحجب أتباعه في عتق الرقاب ، وفي مساءة الأرقاء على أن يصيروا أحراراً .

وقوله : « والغارمين » من الغرم بمعنى الملازمة للشيء . ومنه قوله تعالى : (إن عذابها كان غراماً) أي : إن عذاب جهنم كان ملازماً لأهلها من الكافرين .

والمراد بالغارمين : من أزمته الديون في غير معصية لله ، ولا يجدون المال الذي يدفعونه لدائنيهم ، فيعطون من الزكاة ما يعينهم على سداد ديونهم .
وقوله : (وفي سبيل الله) بيان لنوع سابع من مصارف الزكاة .

والسبيل : الطريق الذي فيه سهولة ، وجمعه سبل . وأضيف إلى الله تعالى للإشارة إلى أنه هو السبل الحق الذي لا يحوم حوله باطل ، وهو الذي يوصل السائر فيه إلى مرادات الله وموالاته .

أى : وتصرف الصدقات فى سبيل الله ، يدفع جزء منها لمساعدة المجاهدين والغزاة والفقراء الذين خرجوا لإعلاء كلمة الله .

قال بعض العلماء ما ملخصه : قال أبو حنيفة ومالك والشافعى . يصرف سهم سبيل الله المذكور فى الآية الكريمة إلى الغزاة . . . لأن المفهوم فى الاستعمال المتبادر إلى الأفهام أن سبيل الله هو الغزو ، وأكثر ما جاء فى القرآن الكريم كذلك .

وقال الإمام أحمد : يجوز صرف سبيل الله إلى مريد الحج .

وقال بعضهم . يجوز صرف سبيل الله إلى طلبة العلم .

وفسره بعضهم بجميع القربات ، فيدخل فيه جميع وجوه الخير ، مثل تكفين الموتى ، وبناء القناطر ، والحصون ، وعمارة المساجد ، وفى سبيل الله ، عام فى الكل . (١) .

وقوله : وابن السبيل ، بيان للصف الثامن والأخير من الأصناف الذين هم مصارف الزكاة .

والمراد بابن السبيل : المسافر المنقطع عن ماله فى سفره : ولو كان غنياً فى بلده ؛ فيعطى من الزكاة ما يساعده على بلوغ موطنه .

وقد اشترط العلماء لابن السبيل الذى يعطى من الصدقة ، أن يكون سفره فى غير معصية الله . فإن كان فى معصية لم يعط : لأن إعطائه يعتبر إعانة له على المعصية ، وهذا لا يجوز .

وقد ألحقوا بابن السبيل ، كل من غاب عن ماله ، ولو كان فى بلده . وقوله . فريضة من الله ، منصوب بفعل مقدر أى : فرض الله لهم هذه الصدقات فريضة ، فلا يصح لكم أن تبخلوا بها عنهم ، أو تنكسوا فى إعطائهم المستحقين .

فالجملة الكريمة زجر للمخاطبين عن مخالفة أحكامه . سبحانه .

وقوله : والله عليم حكيم ، تذييل قصد به بيان الحكمة من فرضية الزكاة .

(١) تفسير آيات الأحكام ج ٢ ص ٤٢ لفضيلة الشيخ محمد على السائس .

أى : والله - تعالى - عليم بأحوال عباده ، ولا تخفى عليه خافية من تصرفاتهم ، حكيم فى كل أوامره ونواهيه ، فعليكم . أيها المؤمنون . أن تأتمروا بأوامره ، وأن تنتهوا عن نواهيه لتنالوا رضاء .

هذا ، ومن الأحكام والآداب التى أخذها العلماء من هذه الآية ما يأتى :

١ - أن المراد بالصدقات هنا ما يتناول الزكاة المفروضة وغيرها من الصدقات المندوبة ، وذلك لأن اللفظ عام فيشمل كل صدقة سواء أكانت واجبة أم مندوبة ، ولأن لفظ الصدقة فى عرف الشرع وفى صدر الإسلام ، كان يشمل الزكاة المفروضة ، والصدقة المندوبة ، ويؤيده قوله . تعالى . .
 . خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكهم بها) .

ومن العلماء من يرى أن المراد بالصدقات فى الآية : الزكاة المفروضة ، لأن (أل) فى الصدقات للعهد الذكرى والمعهود هو الصدقات الواجبة التى أشار إليها القرآن . بقوله قبيل هذه الآية . . ومنهم من يلمزك فى الصدقات ولأن الصدقات المندوبة يجوز صرفها فى غير الأصناف الثمانية كبناء المساجد والمدارس .

ويبدو لنا أن لفظ الصدقات فى الآية عام بحيث يتناول كل صدقة ، إلا أن الزكاة المفروضة تدخل فيه دخولا أوليا .

٢ - قال بعض العلماء : ظاهر الآية يقضى بالقسمة بين الثمانية الأصناف ، ويؤيد هذا وجهان .

الأول . ما يقتضيه اللفظ اللغوى ، إن قلنا . الواو للجمع والتشريك .

والثانى . ما رواه أبو داود فى سنته من قوله . ﷺ . إن الله لم يرض

بحكم نبي ولا غيره فى الصدقات ، حتى حكم فيها . فجزأها ثمانية أجزاء .

وقد ذهب إلى هذا الشافعى وعكرمة والزهرى ، إلا إن استغنى أحدها

فتدفع إلى الآخرين بلا خلاف .

وذهب طوائف إلى جواز الصرف في صنف واحد . منهم عمر وابن عباس وعطاء . وابن جبير ومالك وأبو حنيفة .

قال في التهذيب : وخرجوا عن الظاهر في دلالة الآية المذكورة والخبر
بوجوه .

الأول : أن الله - تعالى - قال في سورة البقرة : «وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم» ، فدل على أن ذكر العدد هنا البيان جنس من يستحقها .
الثاني : الخبر ، وهو قوله ﷺ . لمعاذي : «أعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة في أموالهم تؤخذ من أغنيائهم وترد في فقراتهم» .

الثالث : حديث سلمة بن صخر . فإنه - ﷺ - جعل له صدقة بنى زريق .

الرابع : أنه لم يظهر في ذلك خلاف، من جهة الصحابة فجری كالجمع عليه ٢٠٥
٣ - يرى جمهور العلماء أن الفقراء والمساكين صنفان من مصارف
الزكاة لأن الله . تعالى . قد ذكر كل صنف منهما على حدة، إلا أنهم اختلفوا
في أيهما أسوأ حالا من الآخر. فالشافعية يرون أن الفقير أسوأ حالا من المسكين .
ومن أدلتهم على ذلك، أن الله . تعالى . بدأ في الآية بالفقراء، وهذا البدء
يشير إلى أنهم أشد حاجة من غيرهم ، لأن الظاهر تقديم الأهم على المهم .
ولأن لفظ الفقير أصله في اللغة المفقور الذي نزعت فقره من فقار ظهره،
فلا يستطيع التكسب ، ومعلوم أنه لا حال في الاقلال والبؤس آكد من
هذه الحال .

ولأن الله . تعالى . وصف بالمسكنة من كانت لسفينة من سفن البحر
فقال : « أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر » ٣٠٠٠٠ .

(۲) تفسیر القاسمی ج ۸ ص ۳۱۸۲ .

२४१ अ. १ (१)

(٣) سورة اليكف . الآية ٧٩ .

أما الأحناف والمالكية فيرون أن المسكين أسوأ حالا من الفقير .
ومن أدلتهم على ذلك : أن علماء اللغة عرفوا المسكين بأنه أسوأ حالا من
الفقير ، وإلى هذا ذهب يعقوب بن السكيت ، والقتي ، و يونس بن حبيب ...
ولأن الله - تعالى - وصف المسكين وصفاً يدل على البؤس والفاقة فقال :
« أو مسكيناً ذا مقربة ، أى : مسكيناً ذا حاجة شديدة ، حتى لا كأنه قد لصق
بالتراب من شدة الفاقة ، ولم يصف الفقير بذلك . . (١) »

قال بعض العلماء : رأيت إذا تأملت أدلة الطرفين وجدت أنها متعارضة
وعمل نظر ، وأياما كان فقد اتفق الرأيان على أن الفقراء والمساكين صنفان .
وروى عن أبي يوسف ومحمد أنهما صنف واحد واختاره الجبائي ، ويكون
العطف بينهما لاختلاف المفهوم . وفائدة الخلاف تظاهر فيما إذا أوصى لفلان
وللفقراء والمساكين ؛ فان قال إنهما صنف واحد جعل لفلان نصف الموصى
به ، ومن قال إنهما صنفان جعل له الثلث من ذلك (٢) .

٤ — ظاهر الآية يدل على أن الزكاة يجوز دفعها لكل من يشمله اسم
الفقير والمسكين ، إلا أن هذا الظاهر غير مراد ؛ لأن الأحاديث الصحيحة
قد قيدت هذا الإطلاق .

قال القرطبي : أعلم أن قوله - تعالى - « للفقراء » مطلق ليس فيه شرط
وتقييد ، بل فيه دلالة على جواز الصرف إلى جملة الفقراء ، سواء أكانوا من
بنى هاشم أم من غيرهم ، إلا أن السنة وردت باعتبار شروط ، منها : ألا يكونوا
من بنى هاشم ، وألا يكونوا ممن تلزم المتصدق نفقته ، وهذا لا خلاف فيه .
وشرط ثالث ألا يكون قوياً على الاكتساب ؛ لأنه - ﷺ -
قال : « لا تحمل الصدقة الغنى ، ولا لذى مرة سوى » .

(١) راجع تفسير القرطبي ج ٨ ص ١٦٨ .

(٢) تفسير آيات الأحكام ج ٣ ص ٣٤ للأستاذ الشيخ محمد علي السائس

ولا خلاف بين علماء المسلمين في أن الصدقة المفروضة لا تحل للنبي - صلى الله عليه وسلم - ولا لبنى هاشم ولا لمواليهم . . . (١)

وكذلك لا يصح أن تعطى لغير المسلمين ، ففي الصحيحين عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أن النبي - ﷺ - قال للمعاذ حين بعثه إلى اليمن : « أعلمهم أن عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم ، فافتضى ذلك أن الصدقة مقصورة على فقراء المسلمين .

إلا أنه نقل عن أبي حنيفة جواز دفع صدقة الفطر إلى الذمي .
 د - أخذ بعض العلماء من قوله - تعالى - والعاملين عليها ، أنه يجب على الإمام أن يرسل من يراه أهلاً لجمع الزكاة ممن تجب عليهم .
 وقد تأكد هذا الوجوب بفعل النبي - صلى الله عليه وسلم - فقد ثبت في أحاديث متعددة أنه أرسل بعض الصحابة لجمع الزكاة .

روى البخاري عن أبي حميد الساعدي . قال : استعمل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - رجلاً على صدقات بني سليم يدعى ابن اللبينة ، فلما جاء حاسبه (٢)

٦ - أخذ بعض العلماء - أيضاً - من قوله - تعالى - « والمؤلفة قلوبهم » أن حكمهم باق ، لأنهم قد ذكروا من بين مصارف الزكاة ، ولأن الرسول - صلى الله عليه وسلم - قد أعطاهم ، فيعطون عند الحاجة . .

قال الإمام القرطبي ما ملخصه : واختلف العلماء في بقاء المؤلفة قلوبهم . فقال عمر والحسن والشعبي وغيرهم : انقطع هذا الصنف بعز الإسلام وظهوره .

وهذا مشهور من مذهب مالك وأصحاب الرأي .

(١) تفسير القرطبي ج ٨ ص ١٩١ .

(٢) تفسير القرطبي ج ٨ ص ١٧٧ .

قال بعض علماء الحنفية . لما أعز الله الإسلام وأهله ، أجمع الصحابة في خلافة أبي بكر على سقوط سهمهم .

وقال جماعة من العلماء : هم باقون لأن الإمام ربما احتاج أن يستألف على الإسلام وإنما قطعهم عمر لما رأى من إعزاز الدين .

وقال ابن العربي . الذى عندى أنه إن قوى الإسلام زالوا ، وإن احتيج إليهم أعطوا سهمهم كما كان رسول الله ﷺ يعطيهم ، فإن فى الصحيح بدأ الإسلام غريباً وسيعود كما بدأ ،^(١) .

والذى يبدو لنا أن ما قاله ابن العربي أقرب الأقوال إلى الصواب لأن مسألة إعطاء المؤلفة قلوبهم تختلف باختلاف الأحوال ؛ فإن كان الإمام يرى أن من مصلحة الإسلام إعطائهم ، أعطاهم ، وإن كانت المصلحة فى غير ذلك لم يعطهم .

٧ — دلت الآية الكريمة على أن الزكاة ركن من أركان الإسلام ، لقوله تعالى « فريضة من الله » .

قال بعض العلماء ما ملخصه . تلك هى فريضة الزكاة . ليست أمر الرسول وإنما هى أمر الله وفريضة وقسمته وما الرسول فيها إلا منفذ للفريضة المقسومة من رب العالمين .

وهذه الزكاة تؤخذ من الأغنياء على أنها فريضة من الله ، وترد على الفقراء على أنها فريضة من الله ، وهى محصورة فى طوائف من الناس عينهم القرآن وليست متروكة لاختيار أحد حتى ولا اختيار الرسول نفسه .

وبذلك تأخذ الزكاة مكانها فى شريعة الله ، ومكانها فى النظام الإسلامى ، لا تطوعاً ولا تفضلاً فمن فرضت عليهم ، فهى فريضة محتمة ، ولا منحة ولا جزافاً من القاسم الموزع فهى فريضة معلومة . إنها إحدى فرائض الإسلام تجمعها الدولة المسلمة بنظام معين لتؤدى بها خدمة اجتماعية محدودة . وهى

ليست إحساناً من المعطى ، وليست شحاذة من الآخذ ، كلا فما قام النظام الإجتماعى فى الإسلام على التسول ولن يقوم .
 إن قوام الحياة فى النظام الإسلامى هو العمل - بكل صنوفه وألوانه - على الدولة المسلمة أن توفر العمل لكل قادر عليه ...
 والزكاة ضريبة تكافل إجتماعى بين القادرين والعاجزين ، تنظمها الدولة وتولاها فى الجمع والنوزيع ، متى قام المجتمع على أساس الإسلام الصحيح ، منفذاً شريعة الله لا يبتغى له شرعاً ولا منهجاً سواه ...
 إن فريضة الزكاة قودى فى صورة عبادة إسلامية ، ليطهر بها القلوب من الشح ، وايجعلها شرعاً تراحم وتضامن بين أفراد الأمة المسلمة ...
 لأنها فريضة من الله ، الذى يعلم ما يصلح لهذه البشرية ، ويدبر أمرها بالحكمة ، والله عليم حكيم ، (١) .
 وبعد هذا الحديث عن الصدقات التى كان المنافقون يلمزون الرسول ﷺ فيها أخذت السورة فى مواصلة حديثها عن رذائل المنافقون ، وعن سوء أديهم ... فقال تعالى :-

وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ
 أَذُنٌ قُلْ أَذُنٌ خَيْرٌ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ
 ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾

روى المفسرون فى سبب نزول هذه الآية روايات منها ما أخرجه ابن أبى حاتم عن السدى أنها نزلت فى جماعة من المنافقين منهم الجلاس بن سويد بن صامت ورفاعة بن عبد المنذر ، ووديعه بن ثابت وغيرهم ، قالوا ما لا ينبغى فى حقهم - ﷺ - .

فقال رجل منهم لا تفعلوا فإننا نخاف أن يبلغ محمد ما تقولونه فيقع فينا .
 يقال الجلاس : بل نقول ما شئنا ، ثم تأتيه فيصدقنا بما نقول فإن محمد أذن (١) .
 فمرادهم بقولهم : هو أذن أي : كثير الاستماع والتصديق لكل ما يقال له
 قال صاحب الكشف الأذن : الرجل الذي يصدق كل ما يسمع ، ويقبل
 قول كل أحد ، سمى بالجارحة التي هي آلة السماع كأن جملة أذن سامعه
 نظيره قولهم للريثة . أي اطلعية عين ، (٢) .

وقال بعضهم : الأذن ، الرجل المستمع القابل لما يقال له . وصفوا به
 لوأحد والجمع . فيقال : رجل أذن ، وأمرأة أذن ، فلا يشنى ولا يجمع . إنما
 سموه باسم العضو تهويلاً تشفيحاً فهو مجاز مرسل أطلق فيه الجزء على
 لكل مبالغة يجعل جملة . لفرط استماعه آلة السماع ، كما سمى الجاسوس
 مينا لذلك ، (٣) .

والمعنى : ومن هؤلاء المنافقين قوم يؤذون النبي — ﷺ — فيقولون عنه
 أنه كثير السماع والتصديق لكل ما يقال له بدون تمييز بين الحق والباطل .
 وقوله : قل أذن خير لكم ، رد عليهم بما يحرس أنفسهم ويكبت نفوسهم
 : هو من قبيل إضافة الموصوف إلى الصفة على سبيل المبالغة في المدح كقولهم
 رجل صدق أي قد بلغ النهاية في الصدق والاستقامة .

والمعنى قل لهم يا محمد على سبيل التوبيخ والتبكيت : سلمنا . كما تزعمون .
 في كثير السماع والتصديق لما يقال ، لكن هذه الكثرة ليست للشر والخير
 دون تمييز وإنما هي للخير ولما وافق الشر فحسب .
 ويجوز أن تكون الإضافة فيه على معنى : أي هو أذن في الخير
 الحق ، وليس بأذن في غير ذلك من وجوه الباطل والشر .

(١) تفسير الألوسي ج ١٠ ص ١٢٥ (٢) تفسير الكشف ج ٢ ص ٢٨٤ .

(٣) تفسير القاسمي ج ٨ ص ٣١٨٦ .

وهذه الجملة الكريمة من أسمى الأساليب وأحكمها في الرد على المرجفين والفاسقين ، لأنه — سبحانه — صدقهم في كونه . ﷺ أذنا ، وذلك بما هو مدح له ، حيث وصفه بأنه أذن خير لا شر .

قال صاحب الانصاف : لا شيء أبلغ من الرد عليهم بهذا الوجه ، لأنه في الأول إطماع لهم بالمرافقة ثم كر على طمعهم بالحسم ، وأعقبهم في تنقصه باليأس ، منه ، ولا شيء أقطع من الإطماع ثم اليأس يتلوه ويعقبه (١) .

وقوله : « يؤمن بالله » ويؤمن للمؤمنين ، ورحمة للذين آمنوا منكم ، تفسير وتوضيح لكونه . ﷺ . أذن خير لهم لا أذن شر عليهم .
 أى . أن من مظاهر كونه : ﷺ — أذن خير ، أنه « يؤمن بالله » إيماناً حقاً لا يحوم حوله شيء من الرياء ، أو الخداع أو غيرهما من ألوان السوء . ويؤمن للمؤمنين ، أى : يصدقهم فيما يقولونه من أقوال توافق الشرع لأنهم أصحابه الذين أطاعوه ، واتبعوا النور الذى أنزل معه ، فهم أهل للتصديق والقبول . دون غيرهم من المنافقين والفاسقين .

قال المخر الرازى : فإن قيل لماذا عدى الإيمان إلى الله بالباء ، وإلى المؤمنين باللام ؟

قلنا : لأن الإيمان المعدى إلى الله المراد منه التصديق الذى هو نقيض الكفر فعدى بالبناء . والإيمان المعدى إلى المؤمنين المراد منه الاستماع منهم ، والتسليم لقولهم فعدى باللام ، كما فى قوله : « وما أفت بمؤمن لنا » . أى بمصدق لنا . وقوله : « أنؤمن لك » واتبعتك الأرضون ، وقوله : « قال آمنتم له » قبل أن تأذن لكم ، ٢٤ .

وقوله : « ورحمة للذين آمنوا منكم » ، معطوف على قوله : « أذن خير لكم » ، أى : أن هذا الرسول الكريم بجانب أنه أذن خير لكم هو رحمة للذين

(١) حاشية الكشف لابن المنير ج ٢ ص ١٩ .

(٢) تفسير الفخر الرازى ج ٤ ص ٤٦٥ .

آمنوا منكم - أيها المنافقون - إيماناً صحيحاً ، لأنه عن طريق إرشاده لهم إلى الخير ، واتباعهم لهذا الإرشاد يصلون إلى ما يسعدهم في دنياهم وآخرتهم .

وعلى هذا يكون المراد بالذين آمنوا من المنافقين ؛ أولئك الذين صدقوا في إيمانهم ، وأخلصوا لله قلوبهم ، وتركوا النفاق والرياء .

أو أن المراد بالذين آمنوا منهم : أولئك الذين أظهروا الإيمان ، ليكون المعنى :

أن هذا الرسول الكريم رحمة للذين أظهروا الإيمان منكم - أيها المنافقون حيث أنه - ﷺ - عاملهم بحسب الظاهر ، دين أن يكشف أسرارهم ، أو يهتك أستارهم ؛ لأن الحكمة تقتضى ذلك .

وعلى هذا المعنى سار صاحب الكشف فقد قال : وهو رحمة لمن آمن منكم ، أى : أظهر الإيمان - أيها المنافقون - ، حيث يسمع منكم ، ويقبل إيمانكم الظاهر ، ولا يكشف أسراركم ، ولا يفضحكم ، ولا يفعل بكم ما يفعل المشركين ، مراعاة لما رأى الله من المصلحة في الإبقاء عليكم... (١) .

وقوله : « والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم » ، تذييل قصد به تهديدهم وزجرهم عن التعرض لرسول الله - ﷺ - بأية إساءة .

أى : والذين يؤذون رسول الله بأى لون من ألوان الأذى ، لهم عذاب أليم في دنياهم وآخرتهم ؛ لأنهم بإيقاتهم له يكونون قد استهانوا بمن أرسله الله رحمة للعالمين .

ثم حكى القرآن بعد ذلك لونا من جبهتهم وعجزهم عن مصالحة المؤمنين الحقائق ، فقال - تعالى - :

يُخْلَفُونَ

بِاللَّهِ لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾
أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مِنْ يُحَادِدِ اللَّهِ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَلِيدًا فِيهَا
ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾

قال القرطبي : روى أن قوما من المنافقين اجتمعوا ، وفيهم غلام من الأنصار يدعى عامر بن قيس ، فحرقوه وتكلموا فقالوا : إن كان ما يقوله محمد حقا لنحن شر من الخير . فغضب الغلام وقال : والله إن ما يقوله محمد - ﷺ - لحق ، ولأنتم شر من الخير . ثم أخبر النبي - ﷺ - بقولهم فحلفوا إن عامرا كاذب .

فقال عامر : هم الكذبة ، وحلف على ذلك وقال : اللهم لا تفرق بيننا حتى يتبين صدق الصادق وكذب الكاذب . فأنزل الله هذه الآية (١) .
فقوله - سبحانه - : يخلفون بالله لكم ليرضوكم . خطاب للمؤمنين الذين كان المنافقون يذكرونهم بالسوء ، ثم يأتون إليهم بعد ذلك متعذرين .
أي : أن هؤلاء المنافقين يخلفون بالله لكم - أيها المؤمنون - ليرضوكم ، فتطمئنون إليهم ، وتقبلوا معاذيرهم .

قال أبو السعود : وإفراد إرضائهم بالتعليل مع أن عمدة أغراضهم إرضاء الرسول - ﷺ - الإيذان بأن ذلك بمنزلة أن يكون وسيلة لإرضائه ، وأنه - عليه الصلاة والسلام - إنما لم يكذبهم رفقا بهم ، وسترا لعيوبهم ، لا عن رضا بما فعلوا ، وقبول قلبى لما قالوا . . . (٢) .

وقوله : والله ورسوله أحق أن يرضوه ، جملة حالية في محل نصب من ضمير يخلفون ، جرى بها التوبيخهم على إثارة هم رضا الناس على رضا الله ورسوله .
أي : هم يخلفون لكم . والحال أن الله ورسوله أحق بالإرضاء منكم .

(١) تفسير القرطبي ج ٨ ص ١٩٣ - بتصرف يسير -

(٢) تفسير أبي السعود ج ٢ ص ٢٧٩ .

لأن الله - تعالى - هو خالقهم ورازقهم ومالك أمرهم ، وهو العليم بما ظهر
 وباطن من أحوالهم . ولأن رسوله - ﷺ - هو المبلغ لوحيه - عز وجل -
 قال صاحب المنار ما ملخصه : وكان الظاهر أن يقال : «يرضوهما»
 «ونكتة العدول عنه إلى «يرضوه» : الإعلام بأن إرضاء رسوله عين إرضائه
 سبحانه وهذا من بلاغة القرآن في نفس الإيجاز . ولو قال «يرضوهما»
 لما أفاد هذا المعنى ؛ إذ يجوز في نفس العبارة أن يكون إرضاء كل منهما في غير
 ما يكون به إرضاء الآخر ، وهو خلاف المراد هنا ، وكذلك لو قيل :
 «والله أحق أن يرضوه» ، ورسوله أحق أن يرضوه ، لا يفيد هذا المعنى
 أيضا وفيه ما فيه من الركاكة والتطويل . . .

وقد خرج علماء النحو على قواعدهم ... وأقرب الأقوال إلى قواعدهم
 قول سيبويه : إن الكلام جملتان حذف خبر إحداهما لدلالة خبر الأخرى
 عليه ، كقول الشاعر :

نحن بما عندنا وأنت بما عندك راض والرأى مختلف .

فهذا لا تكلف فيه من ناحية التركيب العربي ، ولكن تفوت به النكتة
 التي ذكرناها . . . (٣) .

«وقوله : «إن كانوا مؤمنين» ، تذييل قصد به بيان أن الإيمان الحق
 لا يتم إلا بإرضاء الله ورسوله عن طريق طاعتها والانقياد لأوامرها .

أى : إن كانوا مؤمنين حقاً ، فليعملوا على إرضاء الله ورسوله ، بأن
 يطيعوا أوامرهما ، ويحتجبوا نواهيهما ، وإلا كانوا كاذبين في دعواهم الإيمان
 ثم توعدهم - سبحانه - بسوء المصير بسبب مخالفتهم لله ورسوله فقال :

«ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله فأن له نار جهنم خالدا فيها ...»
 وقوله : «يحادد» من المحادة بمعنى المخالفة والمجانبة والمعاداة ، مأخوذة من

الحد بمعنى الجانب ، كأن كل واحد من المتخاصمين في جانب غير جانب صاحبه . ويقال : حاد فلان فلانا ، إذا صار في غير حده وجهته بأن خالفه وعاداه .

والاستفهام في الآية السكريمة للتوبيخ والتأنيب وإقامة الحجة .

والمعنى : ألم يعلم هؤلاء المنافقون الذين مردوا على الفسوق والعصيان أنه من يخالف تعاليم الله ورسوله ، هجزاؤه نار جهنم يصلها يوم القيامة خالداً فيها ؟ إن كانوا لا يعلمون ذلك — على سبيل الفرض — فأعلمهم يا محمد بسوء مصيرهم إذا ما استمروا على نفاقهم ومعاداتهم لله ولرسوله .

قال الجمل ما ملخصه : ر . من ، شرطية مبتدأ . وقوله : ، فإن له نار جهنم ، في موضع المبتدأ المحذوف الخبر ، والتقدير : بحق أن له نار جهنم ، أى : فكون نار جهنم له أمر حق ثابت . وهذه الجملة جواب من الشرطية ، والجملة الشرطية ، أى مجموع اسم الشرط وفعله والجزاء خبر أن الأولى ، وهى : أنه من يخادد الله ورسوله ، وجمله أن الثانية وأسمها وخبرها سدت مسد مفعولى يعلم إن لم يكن بمعنى العرفان ، ومسد مفعوله أى الواحد إن كان بمعنى العرفان ، (١) .

واسم الإشارة في قوله : ، ذلك الخزي العظيم ، يعود على ما ذكر من العذاب أى : ذلك الذى ذكرناه من خلودهم فى النار يوم القيامة هو الذل العظيم ، الذى يتضامل أمامه كل خزي وذل فى الدنيا .

فأنت ترى أن هاتين الآيتين قد ذكرتا جانباً من رذائل المنافقين وأكاذيبهم ، وتوعدتا كل مخالف لأوامر الله ورسوله بسوء المصير .

ثم واصلت السورة حملتها على المنافقين ، فكشفت عن خباياهم ، وهتكت أستارهم ، وأبطلت معاذيرهم ، وتوعدتهم بسوء المصير فقال تعالى .

يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تَنْزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ
تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهِزْءُوا إِنَّا اللَّهُ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾
وَلَيْنِ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ
وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ
إِنْ نَعْفُ عَنْ طَآئِفَةٍ مِّنْكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾

قال صاحب المنار: هذه الآيات في بيان شأن آخر من شئون المنافقين التي كشفت سوءاتهم فيها غزوة تبوك. أخرج ابن أبي شيبة وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله - تعالى - : «يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تَنْزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ...»

قال: كانوا يقولون القول فيما بينهم ثم يقولون: عسى أن لا يفشى علينا هذا. وعن قتادة قال: كانت هذه السورة تسمى الفاضحة. فاضحة المنافقين، وكان يقال لها المنبئة. أنبأت بمخالبتهم وعوراتهم (١).

والضمير في قوله: «عليهم»، وفي قوله: «تنبئهم»، يعود على المنافقين. فكون المعنى: «يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ، ويخافون من أن تنزل عليهم، أي في شأنهم وحالهم» سورة، من سور القرآن الكريم، «تنبئهم بما في قلوبهم»، أي تخبرهم بما أنطوت عليه قلوبهم من أسرار خفية، ومن أقوال كانوا يتناقلونها فيما بينهم، ويحرصون على إخفائها عن المؤمنين.

وفي التعبير بقوله «تنبئهم»، بما أُلغِيَ في كون السورة مشتملة على أسرارهم، حتى لا نأمنها تعلم من أحوالهم الباطنة ما لا يعلمونه هم عن أنفسهم، فتنبئهم بهذا الذي لا يعلمونه، وتنعي عليهم قبايحهم وذنائبهم. وتذيع على الناس ما كانوا يخشون ظهوره من أقوال ذميمة، وأفعال أثيمة.

ومنهم من يرى أن الضمير في قوله «عليهم» وفي قوله: «تنبئهم» يعود على المؤمنين، فيكون المعنى: يحذر المنافقون ويخشون من أن تنزل على المؤمنين سورة تنبرهم بما في قلوب المنافقين من أضغان وأحقاد وفسوق عن أمر الله .

وقد ذكر هذين الوجهين صاحب الكشف فقال: والضمير في «عليهم» «وتنبئهم» المؤمنين . وفي «قلوبهم» للمنافقين . وصح ذلك لأن المعنى يقود إليه .

ويجوز أن تكون الضمائر للمنافقين : لأن السورة إذا نزلت في معنهم - أى في شأنهم وأحوالهم - فهي نازلة عليهم . ومعنى «تنبئهم» بما في قلوبهم ، كأنها تقول لهم : في قلوبكم كيت وكيت : يعنى أنها تنذع أسرارهم عليهم حتى يسمعوها مذاعة منتشرة فكأنها تخبرهم بها ، (١) .

وقال الإمام الرازى . فإن قيل : المنافق كافر فكيف يحذر نزول الوحي على الرسل ﷺ ؟ قلنا فيه وجوه ؟

١ - قال أبو مسلم : هذا حذر أظهره المنافقون على وجه الاستهزاء حين رأوا الرسول - ﷺ - يذكر كل شيء . ويدعى أنه عن الوحي ، وكان المنافقون يكتبون بذلك فيما بينهم ، فأخبر الله رسوله بذلك ، وأمره أن يعلمهم أنه يظهر سرهم الذى حذروا ظهوره ، وفي قوله : قل استهزئوا ، دلالة على ما قلناه .

٢ - أن القوم وإن كانوا كافرين بدين الرسول - ﷺ - إلا أنهم شاهدوا أنه ﷺ كان يخبرهم بما يضررونه ويكتمونه ، فلهذه التجربة وقع الحذر والخوف في قلوبهم .

٣ - قال الأصم . إنهم كانوا يعرفون كون الرسول - ﷺ - صادقا ، إلا أنهم كفروا به حسداً وعناداً . . .

٤ - معنى الحذر : الأمر بالحذر . أى : ليحذر المنافقون ذلك .

٥ - أنهم كانوا شاكين في صحة نبوته ، وما كانوا قاطعين بفساده ،
والشاك خائف ، فلهذا السبب خافوا أن ينزل عليه في أمرهم ما يفضحهم ^(١) .
والذى نراه أن الرأى الخامس أقرب الآراء إلى الصواب ، لأن المنافقين كانوا
مترددين بين الإيمان والكفر : فهم كما وصفهم الله . تعالى . مذبذبين بين
ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء

ومن شأن هذا التذبذب أن يغرس الخوف والحذر في القلوب .

أى أن هذا الحذر والإشفاق . كما يقول بعض العلماء . أثر طبيعي للشك
والارتياب ، لأنهم لو كانوا موقنين بتكذيب الرسول ﷺ لما خطر لهم
هذا الخوف على بال ، ولو كانوا موقنين بتصديقه ، لما كان هناك محل
لهذا الحذر ، لأن قلوبهم مطمئنة بالإيمان ، ^(٢) .

وقوله : « قل استمروا إن الله مخرج ما تحذرون » تهديد ووعد لهم
على نفاقهم وسوء أدبهم .

أى : قل يا محمد هؤلاء المنافقين المذبذبين بين الحق والباطل ، قل لهم ، على
سبيل التهديد والتبكيث أفعلوا ما شئتم من الاستخفاف بتعاليم الإسلام إن
الله - تعالى - مظهر ما تحذرونه من إنزال الآيات القرآنية التى تفضحكم على
رؤوس الأشهاد ، والتى تكشف عن أسراركم ، وتهتك أستاركم ، وتظهر
للمؤمنين ما أردتم إخفاه عنهم :

وأُسند الإخراج إلى الله - تعالى - للإشارة إلى أنه - سبحانه - يخرج
ما يحذرونه إخراجاً لا مزيد عليه من الكشف والوضوح ، حتى يحترس
منهم المؤمنون ، ولا يغتروا بأقوالهم المعسولة .

(١) تفسير المفخر الرازى ج ٤ ص ٤٤٨ (٢) تفسير المنار ج ١٠ ص ٦١٠

وقوله : « ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب . . . » بيان للون آخر من معاذيرهم الكاذبة ، وجبنهم عن مواجهة الحقائق .

وأصل الخوض - كما يقول الألوسي - . الدخول في مائع مثل الماء والطين ، ثم كثر حتى صار اسماً لكل دخول فيه تلويث وأذى (١) .

أى : ولئن سألت يا محمد هؤلاء المنافقين عن سبب استمزازهم بتعاليم الإسلام ليقولن لك على سبيل الاعتذار ، إنما كنا نفعل ذلك على سبيل الممازحة والمداعبة لا على سبيل الجد .

وقوله : « قل أبا الله وآياته ورسوله كنتم تستهزون » ، لإبطال حجبتهم ، وقطع لمعاذيرهم ، وتبكيهم لهم على جملهم وسوء أخلاقهم .

أى : قل لهم يا محمد . على سبيل التوبيخ والتجھيل . ألم تجدوا ما تستهزون به في مزاحكم ولعبكم . كما تزعمون . سوى فرائض الله وأحكامه وآياته ورسوله الذى جاء لهدايتكم وإخراجكم من الظلمات إلى النور ؟

والاستمهام للأنكار والتوبيخ ، ودفع ما قد عوا به من معاذير واهية . وقوله سبحانه : « لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم . . . » تأكيدي لإبطال ما أظهروه من معاذير .

والاعتذار معناه . محاولة محو أثر الذنب ، مأخوذ من قولهم : اعتذرت المنازل إذا اندثرت وزالت ، لأن المعتذر يحاول إزالة أثر ذنبه .

والمعنى : قل يا محمد هؤلاء المنافقين المستهزين بما يجب لإجلاله واحترامه وتوقيره : قل لهم على سبيل التوبيخ والتجھيل أيضاً : « لا تشغلوا بتلك المعاذير الكاذبة فإنها غير مقبولة ، لأنكم بهذا الاستهزاء بالله وآياته ورسوله قد كفرتم بعد إيمانكم » ، أى : قد ظهر كفركم وثبت ، بعد إظهاركم الإيمان على سبيل المخادعة ، فإذا كنا قبل ذلك نعاملكم معاملة المسلمين بمقتضى نطقكم

بالشهادتين فنحن الآن نعام لمحكم معاملة الكافرين بسبب استهزاءكم بالله وآياته ورسوله . ﷺ ، لأن الاستهزاء بالدين . كما يقول الإمام الرازي . يعد من باب الكفر ، إذ أنه يدل على الاستخفاف ، والأساس الأول في الإيمان تعظيم الله . تعالى . بأقصى الإمكان ، والجمع بينهما محال (١) .

وقوله . تعالى . : « إن نفع عن طائفة منكم نغضب طائفة بأنهم كانوا مجرمين ، بيان لمظهر من مظاهر عدله . سبحانه . ورحمته .

أى : « إن نفع عن طائفة منكم ، أيها المنافقون . بسبب توبتهم وإقلاعهم عن النفاق ، نغضب طائفة ، أخرى منكم بسبب إصرارهم على النفاق ، واستمرارهم في طريق الفسوق والعصيان .

هذا ، وقد ذكر المفسرون في سبب نزول هذه الآيات روايات منها : ما جاء عن زيد بن أسلم : أن رجلاً من المنافقين قال لعوف بن مالك في غزوة تبوك : ما أرى قراءنا هؤلاء إلا أرغبنا بطوناً ، وأكذبنا السنة وأجبنا عند اللقاء !! فقال له عوف : كذبت ، ولكنك منافق ، لأخبرن رسول الله . ﷺ . فذهب عوف إلى رسول الله . ﷺ . ليخبره ، فوجد القرآن قد سبقه .

قال زيد : قال عبد الله بن عمر : فنظرت إليه . أى إلى المنافق . متعلقاً بحقب (٢) ناقة رسول الله . ﷺ . تمنكبه (٣) الحجارة يقول : إنما كنا نخوض ونلعب ، فيقول له الرسول — ﷺ — « أبا الله وآياته ورسوله كنتم تستهزون » (٤) وعن قتادة قال : بينما رسول الله — ﷺ — يسير في غزوته إلى تبوك ، وبين يديه ناس من المنافقين فقالوا : يرجو هذا الرجل أن يفتح قصور الشام وحصونها !! هيئات هيئات !

(١) تفسير الفخر الرازي ج ٤ ص ٤٦٩ .

(٢) الحقب — بفتح الحاء — حبل يشد به الرجل في بطن البعير . . .

(٣) تمنكبه الحجارة : قصيبه وتؤذيه .

(٤) تفسير ابن جرير ج ١ ص طبعة دار المعارف .

فأطلع الله نبيه — ﷺ — على ذلك ، فقال نبي الله — ﷺ — .
 « أحبسوا على الركب ، فاتاهم فقال لهم . قلم كذا ، قلم كذا . فقالوا .
 يا نبي الله إنما كنا نخوض ونلعب ، فأنزل الله تبارك وتعالى فيهم
 ما تسمعون (١) .

وقال ابن اسحاق . كان جماعة من المنافقين منهم ودیعة بن ثابت . . .
 ومنهم رجل من أشجع حليف لبني سلمة يقال له « مخشى بن حمير ،
 يسرون مع رسول الله — ﷺ — وهو منطلق إلى تبوك . فقال بعضهم .
 أتحسبون جلاد بني الأصفر — أي الروم — كقتال العرب بعضهم ؟ والله
 لكانا بكم غدا مقرنين في الحبال ، إرجافاً وترهيباً للمؤمنين

فقال مخشى بن حمير . والله لو ددت أن أقاضى على أن يضرب كل منا
 مائة جلدة ، وأننا ننجو أن ينزل فينا قرآن لمقاتلكم هذه .

وقال رسول الله — ﷺ — فيما بلغني — لعمار بن ياسر . أدرك
 القوم فانهم قد احترقوا ، فسلمهم عما قالوا ، فإن أفسكروا فقل : بلى ، قلم كذا
 وكذا . فانطلق إليهم عمار ؛ فقال ذلك لهم ، فاتوا رسول الله — ﷺ —
 يعتذرون إليه .

فقال ودیعة بن ثابت — ورسول الله — ﷺ — واقف على راحلته .
 يا رسول الله ، إنما كنا نخوض ونلعب .

فقال مخشى بن حمير . يا رسول الله ، قعد بي أسمى وأسم أبى ، فكان
 الذى عفى عنه في هذه الآية مخشى بن حمير ، فتسمى عبد الرحمن ، وسأل الله
 أن يقتل شهيداً . لا يعلم مكانه . فقتل يوم القيامة ولم يوجد له أثر (٢) .

هذه بعض الآثار التي وردت في سبب نزول هذه الآيات ، وهى توضح
 ما كان عليه المنافقون من كذب في المقال ، وجبن عن مواجهة الحقائق .

ثم مضت السورة الكريمة بعد ذلك في تقرير حقيقة المنافقين ، وفي بيان جانب من صفاتهم ، والمصير السيء الذى ينتظرهم فقال - تعالى - :

الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ
وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ
الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَّ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ
وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنُهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ
عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾

قال الإمام الرازى : اعلم أن هذا شرح لنوع آخر من أنواع فضائحهم وقبائحهم ، والمقصود بيان أن إناثم كذ كورهم فى تلك الأعمال المذكورة ، والأفعال الخبيثة فقال : د المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض ، أى : فى صفة النفاق ، وذلك كما يقول لإنسان لآخر : أنت منى وأنا منك . أى : أمرنا واحد لا مباينة فيه ولا مخالفة ... ، (١) .

وقوله : د يأمرُونَ بالمنكر وينهون عن المعروف ، تفصيل لجانب من رذائلهم ، ومن مسا لكهم الخبيثة .

أى : يأمرُونَ غيرهم بكل ما تستنكره الشرائع ، وتستعجب به العقول ، وينهونه عن كل أمر دعت إليه الأديان ، وأحبهته القلوب السليمة .

وقوله : د ويقبضون أيديهم ، كناية عن بخلهم وشحهم ، لأن الإنسان السخى ييسط يده بالعطاء ، بخلاف الممسك القتور فإنه يقبض يده عن ذلك .
أى : أن من صفات هؤلاء المنافقين أنهم بخلاء أشحاء عن بذل المال فى وجوهه المشروعة .

وقوله : د نسوا الله فنسيهم ، كناية عن رسوخهم فى الكفر ، وانغماسهم فى كل ما يبعدهم عن الله - تعالى - .

والمقصود بالنسيان هنا لازمه ، وهو الترك والإهمال ؛ لأن حقيقة النسيان محالة على الله - تعالى - ، كما أن النسيان الحقيقي لا يذم صاحبه عليه لعدم التكليف به .

أى : تركوا طاعة الله وخشيته ومراقبته ، فتركهم - سبحانه - وحرّمهم من هدايته ورحمته وفضله .

وقوله : « إن المنافقين هم الفاسقون » ، تذييل قصد به المبالغة في ذمهم .
أى : إن المنافقين هم السكاملون في الخروج عن طاعة الله ، وفي الانسلاخ عن فضائل الإيمان ، ومكارم الأخلاق .

وقوله - سبحانه - : « وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم... »
بيان لسوء مصيرهم ، بعد بيان جانب من صفاتهم الذميمة .
أى : « وعد الله - تعالى - المنافقين والمنافقات والكفار ، المجاهرين بكفرهم « نار جهنم خالدين فيها » ، خلوداً أبدياً .

وقوله : « هى حسبهم » ، أى : أن تلك العقوبة الشديدة كافية لإهانتهم وإذلالهم بسبب فسوقهم عن أمر ربهم .

وقوله : « ولعنهم الله » ، أى : طردهم وأبعدهم من رحمته ولطفه -

وقوله : « ولهم عذاب مقيم » ، أى : ولهم عذاب دائم لا ينقطع ؛ فهم في الدنيا يعيشون في عذاب القلق والحذر من أن يطلع المسلمون على نفاقهم ، وفي الآخرة يذوقون العذاب الذى هو أشد وأبقى ، بسبب إصرارهم على الكفر والفسوق والعصيان .

وبذلك نرى الآيتين الكريمتين قد بينتا جانباً من قبائح المنافقين ، ومن سوء مصيرهم فى عاجلتهم وآجلتهم .

ثم ساقّت السورة الكريمة - لهؤلاء المنافقين - نماذج لمن حبّطت أعمالهم بسبب غرورهم ، وضربت لهم الأمثال بمن هلك من الطغاة السابقين بسبب تمكذبهم لأنبياهم ، فقال - تعالى - :

كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا

أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ كَمَا
اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا
أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ
الْخَاسِرُونَ ﴿٧٩﴾ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ
وَأَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ
بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٨٠﴾

وقوله - سبحانه -: كالذين من قبلكم كانوا أشد منكم قوة
جاء على أسلوب الالتفات من الغيبة إلى الخطاب لזجر المنافقين ، وتحريك
نفوسهم إلى الاعتبار والاعتاظ .

والكاف في قوله : كالذين ، للتشبيه ، وهي في محل رفع خبر لمبتدأ محذوف
والتقدير : أنتم - أيها المنافقون - حالكم كحال الذين خلوا من قبلكم من
الطغاة في الانحراف عن الحق ، والاعتزاز بشهوات الدنيا وزينتها ، ولكن
هؤلاء الطغاة المهلكين ، يمتازون عنكم بأنهم كانوا أشد منكم قوة ، في
أبدانهم ، وكانوا ، أكثر ، منكم ، أموالاً وأولاداً .

وقوله : فاستمتعوا بخلاقهم ، بيان لموقف هؤلاء المهلكين من نعم الله
- تعالى - والخلاق : مشتق من الخلق بمعنى التقدير . وأطلق على الحظ والنصيب
لأنه مقدر لصاحبه .

أي : كانوا أشد منكم قوة وأكثر أموالاً وأولاداً ، ولكنهم لم يشكروا
الله على إحسانه ، بل فتنوا بما بين أيديهم من نعم ، واستمتعوا بنصيبهم المقدر
لهم في هذه الحياة الدنيا ، استمتع الجاحدين الفاسقين .

، الاشعار بأن

هؤلاء المملوكين بمجرد أن إمتلأت أيديهم بالنعيم ، قد استعملوها في غير ما خلقت له ، وسخروها لإرضاء شهواتهم الخسيسة ، وملذاتهم الدنيئة .

وقوله : « فاستمتعتم بخلاقكم كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم ، ذم للمخاطبين وللذين سبقوهم ؛ لانها جهنم جميعاً طريق الشر والبطر .

أى : فانتم — أيها المنافقون — قد استمتعتم بنصيبكم المقدر لكم من ملاذ الدنيا ، وشهواتها الباطلة ، كما استمتع الذين من قبلكم بنصيبهم في ذلك .

وقوله : « وخضتم كالذى خاضوا ، معطوف على ما قبله .

أى : وخضتم — أيها المنافقون — في حماة الباطل وفي طريق الغرور والهوى ، كالخوض الذى خاضه السابقون من الأمم المملكة .

قال الألوسى : قوله : « وخضتم ، أى : دخلتم في الباطل كالذى خاضوا ، أى : كالذين فحذفت فونه تخفيفاً ، كما في قول الشاعر :

إن الذى حانت بفالج دماؤه هم القوم كل القوم يا أم خالد

ويجوز أن يكون « الذى » صفة لمفرد اللفظ ، مجموع المعنى ، كالفوج والفريق ، فلو حظ في الصفة اللفظ ، وفي الضمير المعنى ، أو هو صفة لمصدر محذوف ، أى : كالخوض الذى خاضوه ، ورجح بعدم التكلف فيه ، (١) .

وقال صاحب الكشف : فإن قلت : أى فائدة في قوله : « فاستمتعوا بخلاقهم » ، وقوله : « كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم » ، مغن عنه كما أغنى قوله : « كالذى خاضوا » ، عن أن يقال : « وخاضوا فخضتم كالذى خاضوا ؟

قلت : فائدته أن يذم الأولين بالاستمتاع بما أوتوا من حظوظ الدنيا ورضائهم بها ، والتهائم بشهواتهم الفانية عن النظر في العاقبة ، وطلب الفلاح في الآخرة ، وأن يخس أمر الاستمتاع ، ويهجن أمر الرضا به ، ثم يشبه بعد

ذلك حال المخاطبين بحالهم ، كما تريد أن تنبه بعض الظلمة على سحابة فعله
فتقول : أنت مثل فرعون : كان يقبل بغير جرم ، ويعذب ويعسف وأنت
تفعل مثل ما فعله .

وأما د وخضتم كالذى خاضوا ، فحطوف على ما قبله مستند إليه ،
مستغن باستناده إليه عن تلك المقدمة ، (١) .

وقوله : د أولئك حببطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك هم الخاسرون ،
بيان لسوء مصيرهم في الدارين .

واسما الإشارة يعودان على المتصفين بتلك الصفات القبيحة من السابقين
واللاحقين .

أى . أولئك المستمتعون بنصيبهم المقدر لهم في الشهوات الحسية ،
والخائضون في الشرور والآثام وحببطت أعمالهم ، أى : فسدت وبطلت أعمالهم
التي كانوا يرجون منفعتها في الدنيا والآخرة ، لأن هذه الأعمال لم يكن معها
إيمان أو إخلاص ، وإنما كان معها الرياء والنفاق ، والفسوق والعصيان ،
والله - تعالى - لا يقبل من الأعمال إلا ما كان خالصاً لوجه الكريم .
وقوله : د وأولئك هم الخاسرون ، أى : الكاملون في الخسران ،
الجامعون لكل ما من شأنه أن يؤدي إلى البوار والهلاك .

ثم ساق لهم - سبحانه - من أخبار السابقين ما فيه الكفاية للظة
والاعتبار لو كانوا يعقلون ، فقال - تعالى - : د ألم يأتيهم نبياً الذين من قبلهم ،
قوم نوح وعاد وتمود

والاستفهام للتقرير والتحذير . والمراد بنبياً الذين من قبلهم : أخبارهم
التي تتناول أقوالهم وأعمالهم ، كما تتناول ما حل بهم من عقوبات ، بسبب
تكذيبهم لأنبيائهم .

(١) تفسير السكشاف ج ٢ ص ٢٧٨ .

والمعنى : ألم يصل إلى أسمع هؤلاء المنافقين ، خبر أوائل المهلكين من
الاقوام السابقين بسبب عصيانهم لرسولهم ، ومن هؤلاء الاقوام قوم نوح ،
الذين أغرقوا بالطوفان ، وقوم عاد ، الذين أهلكوا بريح صرصر عاتية ،
وقوم ثمود ، الذين أخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين ، وقوم
إبراهيم ، الذين سلب الله نعمه عنهم ، وأذل غرور زعيمهم الذي حاج إبراهيم
في ربه ، وأصحاب مدين ، وهم قوم شعيب الذين أخذتهم الصيحة ،
والمرء تفككت ، وهم أصحاب قرى قوم لوط ، التي جعل الله عاليها سافلها ...
والإتفاك : معناه الانقلاب يجعل أعلى الشيء أسفله . يقال : أفسكه
بأفكه إذا قلبه رأساً على عقب .

وذكر - سبحانه - هنا هذا الطوائف الست ، لأن آثارهم باقية ، ومواطنهم
هي الشام والعراق واليمن ، وهي مواطن قريبة من أرض العرب ، فكانوا
يمرون عليها في أسفارهم ، كما كانوا يعرفون الكثير من أخبارهم .
قال - تعالى - : « ولأنكم تملكون عليهم ، صبحين ، وبالليل أفلا تعقلون ، (١)
وقوله : « أتهم رسولهم بالبينات ، كلام مستأنف لبيان أنبأهم وأخبارهم .
أى : أن هؤلاء الاقوام المهلكين السابقين ، قد أتهم رسولهم بالحجج
الواضحات الدالة على وحدانية الله وعلى وجوب إخلاص العباد له . . .
والفاء في قوله : « فما كان الله ليظلمهم ، للعطف على كلام مقدر يدل
عليه المقام .

أى : أتهم رسولهم بالبينات ، فسكذبوا هؤلاء الرسل ، فعاقبتهم الله - تعالى -
على هذا التكذيب . وما كان من سنته - سبحانه - ليظلمهم ، لأنه لا يظلم الناس
شيئاً ولو لكانوا أنفسهم يظلمون ، بسبب كفرهم وجحودهم ، واستحبابهم
العمى على الهدى ، وإيثارهم الغى على الرشد .

هذا ، ومن هاتين الآيتين الكريمتين نرى بوضوح ، أن الغرور بالقوة ،

سؤال الافتتان بالأموال والأولاد ، والالتغاس في الشهوات والملاذات الخسيسة .
والخوض في طريق الباطل ، وعدم الاعتبار بما حل بالطغاة والعصاة
كل ذلك يؤدي إلى الخسران في الدنيا والآخرة ، وإلى التعرض لسخط
الله وعقابه .

كما نرى منهما أن من سنة الله في خلقه ، أنه — سبحانه — لا يعاقب
إلا بذنب ، ولا يأخذ العصاة والطغاة أخذ عزيز مقدر ، إلا بعد استمرارهم
في طريق الغواية ، وإعراضهم عن نصيح الناصحين ، وإرشاد المرشدين .
ومصدق الله إذ يقول : «لن الله لا يظلم الناس شيئاً» ، «لا يظلمون» .
وبعد أن تحدثت السورة الكريمة عن أحول المنافقين ، وصفاتهم ،
وسوء عاقبتهم . . .

أنبئت ذلك بالحديث عن المؤمنين الصادقين ، وعمّا أعده الله لهم من
نعيم مقيم ، فقال — سبحانه — :

وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ
وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ
اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧٦﴾
وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسْكَنٍ طَيِّبَةٍ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ
أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٧٧﴾

قال الإمام ابن كثير : لما ذكر — سبحانه — صفات المنافقين الذميمة ، عطف بذلك
صفات المؤمنين المحمودة فقال : «والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض» .

أى : يتناصرون ويتعاضدون كما جاء فى الحديث الصحيح : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » . وفى الصحيح — أيضاً — : « مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحلمى والسهر » (١) .

وقال — سبحانه — هنا « بعضهم أولياء بعض » ، بينما قال فى المنافقين « بعضهم من بعض » ، للإشعار بأن المؤمنين فى تناسرهم وتعاضدهم وتراحمهم مدفوعون بدافع العقيدة الدينية التى ألقت بين قلوبهم ، وجعلتهم أشبه ما يكونون بالجسد الواحد ، أما المنافقون فلا توجد بينهم هذه الروابط السامية ، وإنما الذى يوجد بينهم هو التقليد واتباع الهوى ، والسير وراء العصبية الممقوتة ، فهم لا ولاية بينهم ، وإنما الذى بينهم هو التقليد وكرامية ما أنزل الله على رسوله ﷺ .

وقوله « يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » ، بيان الآثار التى تقترب على تلك الولاية الخالصة ، وتفصيل للصفات الحسنة التى تحلى بها المؤمنون والمؤمنات .

أى : أن من صفات هؤلاء المؤمنين والمؤمنات الذين جمعتهم العقيدة الدينية على التناصر والتراحم . . . من صفاتهم أنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، أى يأمرون بكل خير دعا إليه الشرع ، وينهون عن كل شر تأباه تعاليم الإسلام الخفيف .

وقوله : « ويقيمون الصلاة » ، أى : يؤدونها فى أوقاتها بإخلاص وخشوع . .

وقوله : « ويؤتون الزكاة » ، أى يعطونها لمستحقها بدون من أو أذى . .

وقوله : « ويطيعون الله ورسوله » ، أى : فى سائر الأحوال بعدون ملل

أو انقطاع أو تسكاسل . . .

وقوله : « أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم » ، بيان للجزاء الطيب الذي ادخره الله — تعالى — لهم .

أى : أولئك المؤمنون والمؤمنات المتصفون بتلك الصفات السامية ، سيرحمهم الله — تعالى — برحمته الواسعة ، إنه — سبحانه — « عزيز » ، لا يعجزه شيء « حكيم » ، فى كل أفعاله وتصرفاته .

قال صاحب الكشف : « والسين هنا مفيدة لوجود الرحمة ، فهى تؤكد الوعى ، كما تؤكد الوعيد كما فى قولك : سأنتقم منك يوماً ، تعنى أنك لا تفوتنى وإن تباطأ ذلك ، ونحوه : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا » (١) .

ثم فصل — سبحانه — مظاهر رحمته للمؤمنين والمؤمنات أصحاب تلك الصفات السابقة فقال : « وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار ، أى : « وعد الله » ، بفضلته وكرمه « المؤمنين والمؤمنات جنات تجري ، من تحت بساطينها وأشجارها وقصورها الأنهار » خالدين ، فى تلك الجنات خلوداً أبدياً .

ووعدهم كذلك « مساكن طيبة » ، أى : منازل حسنة ، فنشرح لها الصدور وتستطيبها النفوس .

وقوله : « فى جنات عدن » ، أى فى جنات ثابتة مستقرة . يقال : فلان عدن بمكان كذا ، إذا استقر به وثبت فيه ، ومنه سمي المعدن معدناً لاستقراره فى باطن الأرض .

وقيل : إن كلمة « عدن » ، علم على مكان مخصوص فى الجنة ، أى فى جنات المسكان المسمى بهذا الاسم وهو « عدن » .

ثم بشرهم — سبحانه — بما هو أعظم من كل ذلك فقال : « ورضوان من الله أكبر » .

أى أن المؤمنين والمؤمنات ليس لهم هذه الجنات والمساكن الطيبة فحسبهم وإنما لهم ما هو أكبر من ذلك وأعظم وهو رضا الله — تعالى — عنهم ، وتجليه عليهم ، وتشرفهم بمشاهدة ذات الكريمة ، وشعورهم بأنهم محل رعايته الله وكرمه .

والتذكير في قوله : « ورضوان » للتعظيم والتهويل ، ولالإشارة إلى أن الشيء اليسير من هذا الرضا الإلهي على العبد ، أكبر من الجنات ومن المساكن الطيبة ، ومن كل حطام الدنيا .

روى الشيخان عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله — ﷺ — قال : « إن الله — عز وجل — يقول لأهل الجنة : يا أهل الجنة ، فيقولون : لبيك ربنا وسعديك والخير في يديك . فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون : وما لنا لا نرضى يا رب ، وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدا من خلقك ؟ فيقول : ألا أعطيكم أفضل من ذلك ؟ فيقولون : يا ربنا وأى شيء أفضل من ذلك ؟ فيقول : أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبدا . »

وروى البزار في مسنده عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — :

« إذا دخل أهل الجنة الجنة ، قال الله — تعالى — : هل تشتهون شيئا ؟ فآزيدكم ؟ »

قالوا : يا ربنا وما خير مما أعطيتنا ؟ قال : رضواني أكبر ، (١) . وقوله : « ذلك الفوز العظيم » أى : ذلك الذى وعد الله به المؤمنين والمؤمنات فى جنات ومساكن طيبة ، ومن رضا من الله عنهم ، هو الفوز العظيم الذى لا يقاربه فوز ، ولا يدانيه نعيم ، ولا يسامى شرفه شرف ... وهذا نرى أن هاتين الآيتين الكريمتين قد بشرتا المؤمنين والمؤمنات بأعظم البشارات ، ووصفتهم بأشرف الصفات ، وقابلت بين جزائهم وبين

جزاء الكفار والمنافقين ، بما يحمل العاقل على أن يسلك طريق المؤمنين ، وعلى أن ينهج نهجهم ، ويتحلى بأوصافهم . . . وبذلك يفوز بنعيم الله ورضاه كما فازوا ، ويسعد كما سعدوا ، وينجو من العذاب الذى توعده الله به المنافقين والكافرين ، بسبب إصرارهم على الكفر والنفاق ، وإيثارهم العنى على الرشد . ثم أمر الله — تعالى — رسوله ﷺ — بمجاهدة الكفار والمنافقين بكل وسيلة ، لأنهم جميعاً لا يريدون الانتهاء عن المكر السيء بالدعوة الإسلامية فقال — تعالى — :

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ
وَالْمُنَافِقِينَ وَأَغْلَظْ عَلَيْهِمْ وَمَا لَهُمْ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ السَّيِيرُ ﴿٧٣﴾

وقوله — سبحانه — « جاهد » من المجاهدة ، بمعنى بذل الجهد فى دفع ما لا يرضى ، سواء أ كان ذلك بالقتال أم بغيره .

وقوله . . « وأغلظ عليهم » من الغلظة التى هى نقيض الرقة والرافة . يقال . أغلظ فلان فى الأمر إذا اشتد فيه ولم يترفق .

ونحن عندما نقرأ السيرة النبوية ، نجد أنه — ﷺ — بعد هجرته إلى المدينة ، ظل فترة طويلة يلاين المنافقين ، ويغض الطرف عن ذائلهم . ويصفح عن مسيئتهم ... إلا أن هذه المعاملة الحسنة لهم زادتهم رجساً إلى رجسهم . . . لذا جاءت هذه السورة — وهى من أواخر ما نزل من القرآن . لتقول للنبي ﷺ — لقد آن الأوان لإحلال الشدة والحزم ، محل اللين والرفق ، فان للشدة مواضعها وللين مواضعه ...

والمعنى : عليك — أيها النبي الكريم — أن تجاهد الكفار بالسيوف إذا كان لا يصلحهم سواه ، وأن تجاهد المنافقين — الذين يظهرون الإسلام ويخفون الكفر — بما تراه مناسباً لردعهم وزجرهم وإرهابهم ، سواء أ كان ذلك باليد أم باللسان أم بغيرهما ، حتى تأمن شرهم .

قال الإمام ابن كثير ، أمر الله رسوله ﷺ - بجهاد الكفار والمنافقين ، كما أمره أن يخفض جناحه لمن اتبعه من المؤمنين . . . وقد تقدم عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب أنه قال : بعث رسول الله ﷺ بأربعة أسياف . سيف للمشركين ، فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم . . . ، وسيف للكفار أهل الكتاب ، قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب . . . ، وسيف للمنافقين ، جاهد الكفار والمنافقين ، وسيف للبيعة ، فقاتلوا متى تبغى حتى تنف إلى أمر الله . . . ، وهذا يقتضى أنهم يجاهدون بالسيوف إذا أظهروا النفاق ، وهو اختيار ابن جرير .

وقال ابن مسعود في قوله : جاهد الكفار والمنافقين ، قال بيده . فإن لم يستطع فليذكر في وجهه - أى فليلق المنافق بوجه عابس لإطلاقه فيه ولا انبساط .

وقال ابن عباس : أمره الله - تعالى - بجهاد المنافقين باللسان وأذهب الرفق عنهم .

وقد يقال أنه لا منافاة بين هذه الأقوال ، لأنه تارة يؤخذهم بهذا ، وتارة بهذا على حسب الأحوال . . . (١) .

والضمير المجرور في قوله : « واغلظ عليهم » يعود على الفريقين : الكفار والمنافقين أى : جاهدهم بكل ما تستطيع مجاهدتهم به ، مما يقتضيه الحال ، وأشد عليهم في هذه المجاهدة بحيث لا تدع مجالاً معهم للترفق واللين ، فإنهم ليسوا أهلاً لذلك ، بعد أن عموا وضموا عن النصيحة ، وبعد أن لجؤا في طغيانهم .

وقوله : « وما أواهم جهنم وبئس المصير » ، تذييل قصد به بيان سوء مصيرهم في الآخرة بعد بيان ما يجب على المؤمنين نحوهم في الدنيا .

أَمَّا : عليك — أيها النبي — أن تجاهدهم وأن تغلظ عليهم في الدنيا ،
أما في الآخرة فإن جهنم هي دارهم وقرارهم .

والمخصوص بالذم محذوف والتقدير : وبش المصير مصيرهم ، فانه
لا مصير أسوأ من الخلود في جهنم .

ومن هذه الآية الكريمة نرى أن على المؤمنين — في كل زمان ومكان —
أن يجاهدوا أعداءهم من الكفار والمنافقين . بالسلاح الذي يرونه كفيلا
بأن يجعل كلمة الله هي العليا وكلمة الدين كفروا السفلى .

ثم بين — سبحانه — ما كان عليه المنافقون من كذب وفجور ، ومن
خيانة وغدر ، وفتح أمامهم باب التوبة ، وأندبهم بالعذاب الأليم إذا
ما استمروا في نفاقهم فقال — سبحانه — :

يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ
وَهُمْ بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ
فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي
الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٦﴾

ذكر المفسرون في سبب نزول هذه الآية روايات منها : ما رواه ابن جرير
عن هشام بن عروة عن أبيه قال : نزلت هذه الآية : يخلفون بالله ما قالوا .
الآية ، في الجلاس بن سويد بن الصامت . أقبل هو وابن امرأته مصعب من
قباء . فقال الجلاس : إن كان ما يقول محمد حقاً لنحن أشد من حرنا هذه
التي نحن عليها !!

فقال مصعب : أما والله يا عدو الله لأخبرن رسول الله — ﷺ —
بما قلت : قال مصعب : فأنبت النبي — ﷺ — . وخشبت أن ينزل
في القرآن أو تصيبني . قالوا : أنت أشد من حرنا .

قواء . فقال كذا وكذا ، ولولا مخافة أن أخطأ بخطيئة أو تصيبني قارعة ما أخبرتك .

قال مصعب : فدعا رسول الله ﷺ . الجلاس فقال له : أقلت الذي قال مصعب ؟ فحلف الجلاس بأنه ما قال ذلك . فأنزل الله الآية (١) ،

وأخرج ابن إسحاق وابن أبي حاتم عن كعب بن مالك قال : لما نزل القرآن وفيه ذكر المنافقين قال الجلاس بن سويد : والله لئن كان هذا الرجل صادقا لئن شر من الخير . فسمعه عمير بن سعد فقال : والله يا جلاس إنك لأحب للناس إلى . وأحسنهم عندي أثرا . ولقد قلت مقالة لئن ذكرتها لتفضحنك ، ولئن شككت عنها هلكت ، وإلا حادها أشد على من الأخرى . فمضى عمير إلى رسول الله ﷺ - فذكر له ما قال الجلاس . فسأل رسول الله ﷺ . الجلاس عما قاله عمير ، فحلف بالله ما قال ذلك ، وزعم أن عميرا كذب عليه فنزلت هذه الآية (٢) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يزيد أخبرنا الوليد بن عبد الله بن جميع عن أبي الطفيل .

قال : لما أقبل رسول الله ﷺ . من غزوة تبوك أمر مناديا فنادى إن رسول الله ﷺ . أخذ طريق العقبة . وهو مكان مرتفع ضيق . فلا يأخذها أحد .

قال : فبينما رسول الله ﷺ . يقود ركابة حذيفة ويسرفه عمار ، إذا أقبل رهط مناهمون على الرواحل ، فغشوا عمارا وهو يسوق برسول الله ﷺ . صلى الله عليه وسلم ، فأقبل عمار يضرب وجوه الرواحل . فقال رسول الله ﷺ . صلى الله عليه وسلم لحذيفة : قد قد . أي حسبك حسبك . حتى هبط رسول الله ﷺ . صلى الله عليه وسلم . ورجع عمار .

(١) تفسير ابن جرير جرير ١٣ : ٣٦٢ . فتصرف يسير . طبعة دار المعارف

(٢) تفسير الألوسي ١٠ ص ١٣٨ :

فقال رسول الله . صلى الله عليه وسلم . يا أعمار : هل عرفت القوم ، ؟
فقال : لقد عرفت عامة الرواحل والقوم متلثمون . قال : هل تدري
ما أرادوا ، ؟ قال : الله ورسوله أعلم . قال : أرادوا أن ينفروا برسول
الله . صلى الله عليه وسلم . راحلته فيطرحوه ، ... (١)

هذه بعض الروايات التي وردت في سبب نزول هذه الآية ، وهي تكشف
عن كذب المنافقين وغدرهم .

وقوله . سبحانه . : يحلفون بالله ما قالوا ... استئناف مسوق لبيان
جانب مما صدر عنهم من جرائم تستدعي جهادهم والإغلاظ عليهم .
أى : يحلف هؤلاء المنافقون بالله كذباً وزوراً أنهم ما قالوا هذا القول
القيح الذي بلغك عنهم يا محمد .

والحق أنهم قد قالوا كلمة الكفر ، وهي تشمل كل ما نطقوا به من
أفوال يقصدون بها إيداعه . صلى الله عليه وسلم . ، كقولهم : هو أذن ،
وقولهم . د ائن كان ما جاء به حقاً فنحن أشر من حمرنا ... ، وغير ذلك من
الكلمات القبيحة التي نطقوا بها .

وأنهم قد كفروا بعد إسلامهم ، أى : أظهروا الكفر بعد إظهارهم
الإسلام .

وأنهم قد هموا بميل ينالوا ، أى : حاولوا إلحاق الأذى برسول الله
صلى الله عليه وسلم . ولكنهم لم يستطيعوا ذلك ، لأن الله . تعالى . عصمه
من شرورهم .

وقوله : د وما نقوموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله ، توبيخ لهم على
جهودهم وكنودهم ومقاباتهم الحسنة بالسئنة .

ومعنى : د نقوموا ، : كرهوا وعابوا وأنكروا يقال نقم منه الشئ إذا
أنكروه ، وكرهه وعابه ، وكذا إذا عاقبه عليه .

أى . وما أنكر هؤلاء المنافقون من أمر الإسلام شيئاً، إلا أنهم بسببه أغناهم الله ورسوله من فضله بالغنائم وغيرها من وجوه الخيرات التي كانوا لا يجدونها قبل حلول الرسول - ﷺ - وأصحابه بينهم .
وهذه الجملة الكريمة جاءت على الأسلوب الذى يسميه علماء البلاغة :
تأكيده المدح بما يشبه الذم .

قال الجمل : كأنه قال - سبحانه - ائس له - ﷺ - صفة تـكـره وتعب ، سوى أنه ترتب على قدومه إليهم وهجرته عندهم ، إغناء الله إياهم بعد شدة الحاجة ، وهذه ليست صفة ذم - بل هى صفة مدح - فحينئذ ليس له صفة تـذم أصلاً ، (١) .

وشبيه بهذا الأسلوب قول الشاعر يمدح . قوما بالشجاعة والإقدام .
ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم . بين فلول من قراع الكتائب

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بتوحيدهم وترهيبهم فقال : فإن يتوبوا يك خيراً لهم . وإن يتولوا يعذبهم الله عذاباً أليماً فى الدنيا والآخرة . . .
أى : فإن يتوب هؤلاء المنافقون عن نفاقهم وشقاقهم وقبائح أقوالهم وأفعالهم ، يكن المتاب خيراً لهم فى دنياهم وآخرتهم .
وإن يتولوا ، ويعرضوا عن الحق : ويستمروا فى ضلالهم ، يعذبهم الله عذاباً فى الدنيا والآخرة . .

أما عذاب الدنيا فمن مظاهره : حذرهم وخوفهم من أن يطلع المؤمنون على أسرارهم وجبنهم عن مجابهة الحقائق ؛ وشعورهم بالضعف أمام قوة المسلمين ؛ وإحساسهم بالعزلة والمقاطعة من جانب المؤمنين ، ومعاقبة الرسول - ﷺ - إياهم بالعقوبة المناسبة لجرمهم . . .

وأما عذاب الآخرة ، فهو أشد وأبقى ، بسبب إصرارهم على النفاق ، وإعراضهم عن دعوة الحق .

وقوله : « وما لهم في الأرض من ولي ولا نصير » تذييل قصد به تبييضهم من كل معين أو ناصر .

أي : أن هؤلاء المنافقين ليس لهم أحد في الأرض يدفع عنهم عذاب الله ، أو يحميهم من عقابه ؛ لأن عقاب الله لن يدفعه دافع إلا هو ، فعليهم أن يتوبوا إلى رشدهم ، وأن يتوبوا إلى ربهم قبل أن يحل بهم عذابه .

ثم حكى — سبحانه — بعد ذلك نماذج أخرى من حدودهم ، ونقضهم لعهودهم ، وبخلهم بما آتاهم الله من فضله فقال — سبحانه — .

وَمِنْهُمْ

مَنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَيْنَءَاتِنَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا ءَاتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سَرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾

قال الإمام ابن كثير ما ملخصه : وقد ذكر كثير من المفسرين منهم ابن عباس والحسن البصري ، أن سبب نزول هذه الآيات أن ثعلبة ابن حاطب الأنصاري قال لرسول الله ﷺ : يا رسول الله ، أدع الله أن يرزقني مالا . فقال له الرسول ﷺ : ويحك يا ثعلبة ، قليل تؤدى شكره خير من كثير لا تطيقه . ثم قال له مرة أخرى : « أما ترضى أن تكون مثل نبي الله ؟ فوالذي نفسي بيده »

فقال ثعلبة . والذي بعثك بالحق لئن دعوت الله فرزقني مالا لأعطين كل ذي حق حقه .

فقال رسول الله - ﷺ - : « اللهم أرزق ثعلبة ما لا ، » .

فاتخذ ثعلبة غنما فنمت ، ثم ضاقت عليه المدينة ففتحى عنها ونزل وادياً من أوديتها حتى جعل يصلي الظهر والعصر في جماعة ويقرك ما سواهما . ثم نمت وكثرت ففتحى حتى ترك الصلوات إلا الجمعة ، ثم ترك الجمعة . . .

وأزل الله - تعالى - قوله : « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها ، فبعث الرسول - ﷺ - ، رجلين على الصدقة من المسلمين . . . وقال لهما : « مرا على ثعلبة وعلى فلان . رجل من بنى سليم . فخذوا صدقاتهما ، » .

فخرجا حتى أتيا ثعلبة فسألاه الصدقة ، وأقرأه كتاب رسول الله . فقال : ما هذه إلا جزية ، ما هذه إلا أخت الجزية ، ما أدري ما هذا ؟ انطلقا حتى تفرغا ثم هودا إلى .

فانطلقا وسمع بهما السلي . فنظر إلى خيار أسنان إبله فجز لها للصدقة . ثم استقبلهم بها . فلما رأوها قالوا له : ما يجب عليك هذا ، وما نريد أن تأخذ هذا منك . فقال : بل خذوها فإن نفسى بذلك طيبة ، فأخذها منه ومرا على ثعلبة فقال لهما : أروني كتابكما فقرأه فقال : ما هذه إلا جزية . . . انطلقا حتى أرى رأيت .

فانطلقا حتى أتيا النبی - ﷺ - ، فلما رأهما قال : « يا ويح ثعلبة ، قبل أن يكلمهما . ودعا للسلي بالبركة . وأخبراه بالذى صنعه ثعلبة معهما . . .

فأنزل الله - تعالى - « ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن - ولنكونن من الصالحين . . . الآيات ، » .

فسمع رجل من أقارب ثعلبة هذه الآيات، فذهب إليه وأخبره بما أنزل فيه من قرآن .

فخرج ثعلبة حتى أتى النبي - ﷺ - وسأله أن يقبل منه صدقته فقال له : إن الله منعني أن أقبل منك صدقتك . . .

ثم لم يقبها منه بعد ذلك أبو بكر أو عمر أو عثمان ، وهلك ثعلبة في خلافة عثمان ، (:) .

هذا ، وقد ضعف بعض العلماء هذا الحديث ، لأسباب تتعلق بسنده وبصاحب القصة وهو ثعلبة بن حاطب .

والذي نراه أن هذه الآيات الكريمة تحكي صورة حقيقية وواقعية لبعض المنافقين المعاصرين للعهد النبوي . والذين عاهدوا الله فنقضوا عهدهم معه وقابلوا ما أعطاهم من نعم بالبخل والجحود . . .

وتلك الصورة قد تكون لشعبة بن حاطب وقد تكون لغيره ، لأن المهم هو حصولها فعلاً من بعض المنافقين .

وهذه الآيات - أيضاً - تنطبق في كل زمان ومكان على من يقابل نعم الله بالكفران ، إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

وإلى هذا المعنى أشار صاحب المنار بقوله : هذا بيان لحال طائفة من أولئك المنافقين الذين أغناهم الله ورسوله من فضله بعد الفقر والإملاق ويوجد مثلهم في كل زمان ، وهم الذين يلجأون إلى الله - تعالى - في وقت العسرة والفقر ، أو الشدة والضر ، فيدعونه ويعاهدونه على الشكر له ، والطاعة لشرعه ، إذ هو كشف ضرهم ، وأغنى فقرهم . فإذا استجاب لهم تكسو على رؤوسهم ، ونكصوا على أعقابهم ، وكفروا النعمة ، وبطروا الحق وهضموا حقوق الخلق وهذا مثل من شر أمثالهم ، (٢) .

(١) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٣٧٤ - بتصرف وتلخيص -

(٢) تفسير المنار ج ١٠ ص ٦٤٦ .

ومعنى الآيات السكينة : ومن المنافقين قوم ، عاهدوا الله ، وأكذبوا
عهودهم بالإيمان المغلظة فقالوا : « لئن آتانا ، الله - تعالى - من فضله ، مالا
وفيراً ، لنصدقن » ، منه على المحتاجين ، ولنعطين كل ذي حق حقه ، ولنكونن
من ، عباده ، الصالحين ، الذين يؤدون واجبهم نحو الله والناس ، والذين
يصلحون في الأرض ولا يفسدون .

قال الجمل وقوله : « من عاهد الله ، فيه معنى القسم ، وقوله : « لئن
آتانا من فضله » ، تفسير لقوله : عاهد الله . واللام موطئة لقسم مقدر . وقد
اجتمع هنا قسم وشرط ، فالله كور وهو قوله : « لنصدقن . . . » ، جواب
القسم ، وجواب الشرط محذوف ... واللام في قوله « لنصدقن . . . » واقعة
في جواب القسم ، (١) .

وقوله : « فلما آتاهم من فضله بخلوا به . . . » ، بيان لموقفهم الجحودي
من عطاء الله وكرمه .

أى : فلما أعطى الله - تعالى - من فضله هؤلاء المنافقين ما تمنوه من مال
وفير ، « بخلوا به » ، أى : بخلوا بهذا المال ، فلم ينفقوا منه شيئاً في وجوهه
المشروعة ، ولم يعترفوا فيه بحقوق الله أو حقوق الناس ؛ ولم يكتفوا بذلك
بل « تولوا وهم معرضون » .

أى : أديروا عن طاعة الله وعن فعل الخير ، وهم قوم دأبهم التولى عن
سماع الحق ، وشأنهم الانقياد للهوى والشيطان .
وقوله : « فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه . . . » ، تصريح بالآثار
الذميمة التي ترقبت على بخاهم وإعراضهم عن الحق والخير .

أى : لجعل الله - تعالى - عاقبة فعلهم ذلك نفاقا وسوء اعتقاد فى قلوبهم إلى يوم يلقونه للحساب ، فيجازيهم بما يستحقون على بخلهم وإعراضهم عن الحق .

فالضمير المستتر فى «أعقب» الله - تعالى - وكذا الضمير المنصوب فى قوله : « يلقونه » .

ويصح أن يكون الضمير فى «أعقب» يعود على البخل والتولى والإعراض ، فيكون المبنى : فأعقبهم وأورثهم ذلك البخل والتولى والإعراض الحق والخير ، نفاقا واسخا فى قلوبهم ، وامتدا فى نفوسهم إلى اليوم الذى يلقون فيه ربهم ، فيعاقبهم عقابا ألما على سوء أعمالهم .

والباء فى قوله : « بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون » ، للسببية . أى : أن النفاق قد باض وفرخ فى قلوبهم إلى يوم يلقوا الله - تعالى - ، بسبب إخلالهم لوعودهم مع خالقهم ، وبسبب استمرارهم على الكذب ، ومدامتهم عليه .

ثم ختم - سبحانه - هذه الآيات الكريمة ، بتوبيخهم على إصرارهم على المعاصى ، مع علمهم بأنه - عز وجل - عنهم رقيب عليهم ، ومطلع على أحوالهم فقال : « ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم ، وأن الله علام الغيوب » .

أى : ألم يعلم هؤلاء المنافقون أن الله - تعالى - يعلم ما يسرونه فى أنفسهم من نفاق ، وما يتناجون به فيما بينهم من أقوال فاسدة ، وأنه - سبحانه - لا يخفى عليه شئ فى الأرض ولا فى السماء ؟ بلى أنهم ليعلمون ذلك علم اليقين ، ولاكنهم لا ستيلاء الهوى والشيطان عليهم ، لم ينتفعوا بعلمهم .

فلاستفهام فى قوله : « ألم يعلموا ... » ، للتوبيخ والتهديد والتقريع ، وتنبيههم إلى أن الله عليهم بأحوالهم ، وسبب جازيهم عليها .

هذا ، ومن الأحكام والآداب التي أخذها العلماء من هذه الآيات ما يأتي :

١ - وجوب الوفاء بالعهود ، فإن نقض العهود ، وخلف الوعد ، والكذب كل ذلك يورث النفاق ، فيجب على المسلم أن يباليغ في الاحتراز عنه ، فإذا عاهد الله في أمر فليجتهد في الوفاء به .

ومذهب الحسن البصري - رحمه الله - أنه يوجب النفاق لاحتالة ، وتمسك فيه بهذه الآية وبقوله - ﷺ - ثلاث من كن فيه فهو منافق ، وإن صلى وصام وزعم أنه مؤمن : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا أتمن خان ، (١) .

٢ - أن للإمام أن يمتنع عن قبول الصدقة من صاحبها إذا رأى المصلحة في ذلك ، إقتداء بما فعله الرسول - ﷺ - مع ثعلبة ، فإنه لم يقبل منه الصدقة بعد أن جاء بها .

قال الإمام الرازي : فإن قيل إن الله - تعالى - أمره - أي ثعلبة - بإخراج الصدقة فكيف يجوز من الرسول - ﷺ - أن لا يقبلها منه ؟ قلنا : لا يبعد أن يقال أنه - تعالى - منع رسوله عن قبول الصدقة منه على سبيل الإهانة له ، ليعتبر غيره به ، فلا يمتنع عن أداء الصدقات . ولا يبعد - أيضا - أنه إنما أتى بها على وجه الرياء لا على وجه الإخلاص وأعلم الله رسوله بذلك ، فلم يقبل تلك الصدقة لهذا السبب .

ويحتمل - أيضا - أنه - تعالى - لما قال : دخذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها ، وكان هذا المقصود غير حاصل في ثعلبة مع نفاقه ، فإذا السبب امتنع رسول الله - ﷺ - عن أخذ تلك الصدقة (٢) .

٣ - أن النفس البشرية ضعيفة شحيحة - إلا من عصم الله - .

(١) تفسير الفخر الرازي ج ٤ ص ٤٧٨ . طبعة المطبعة الشرفية سنة ١٣٢٤ هـ

(٢) تفسير الفخر الرازي ج ٤ ص ٤٧٦ . طبعة المطبعة الشرفية سنة ١٣٢٤ هـ

وأن مما يعين الإنسان على التغلب على هذا الضعف والضعف ، أن يوطن نفسه على طاعة الله ؛ وأن يجبرها إجباراً على مخالفة الهوى والشيطان ، وأن يؤثر ما عند الله على كل شيء من حطام الدنيا ...
أما إذا ترك لنفسه أن تسير على هراها ، فإنها ستورده الممالك ، التي إن ينفع معها الندم ، وستجعله أسير شهواته وأطماعه ونفاقه إلى أن يلقي الله ، وصدق - سبحانه حيث يقول : « فآهت بهم نفاقا في قلوبهم إلى يوم يلقونه ، بما أخلفوا الله ما وعدوه ، وبما كانوا يكذبون » .
ثم حكى - سبحانه - موقف هؤلاء المنافقين من المؤمنين الصادقين الذين كانوا يبذلون أموالهم في سبيل الله ، فقال - سبحانه - :

الَّذِينَ يَلْمِزُوا

الْمُطَوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ
فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾

قال الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية : وهذا أيضاً من صفات المنافقين لا يسلّم أحد من عيبتهم ولمزهم في جميع الأحوال ، حتى ولا المصدّقون بسلّمون منهم . إن جاء أحد منهم بمال جزيل ، قالوا : هذا مرأى ، وإن جاء بشيء يسير قالوا : إن الله لغني عن صدقة هذا ؛ كما روى البخاري عن أبي مسعود - رضي الله عنه - قال : لما نزلت آية الصدقة كنّا نحامل على ظهورنا - أي : نؤاجر أنفسنا في الحمل - فجاء رجل فتصدق بشيء كثير ، فقالوا هذا يقصد الرياء ، وجاء رجل فتصدق بصاع فقالوا : إن الله لغني عن صدقة هذا . فنزلت هذه الآية (١) وأخرج ابن جرير عن عمر بن أبي سلمة عن أبيه : أن رسول الله - ﷺ - قال : تصدّ قروا فإنّي أريد أن أبعث بعثاً ، - أي إلى تبوك - قال :

فقال عبد الرحمن بن عوف : يا رسول الله ؛ إن عندي أربعة آلاف ؛ ألفين . أقرضهما الله ؛ وألفين لعيالي .

قال . فقال رسول الله ﷺ - : بارك الله لك فيما أعطيت . وبارك لك فيما أمسكت !! فقال رجل من الأنصار : وإن عندي صاعين من تمر ، صاعا لربي ، وصاعا لعيالي . قال : فلمز المنافقون وقالوا : ما أعطى ابن عوف هذا إلا رياء !!

وقالوا : أو لم يكن الله غنيا عن صاع هذا !! فأنزل الله - تعالى - والذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات . . . (١) ،

وقال ابن اسحاق : كان المطوعون من المؤمنين في الصدقات : عبد الرحمن ابن عوف وعاصم بن عدى - أخا بنى عجلان - . وذلك أن رسول الله ﷺ رغب في الصدقة وحض عليها . فقام عبد الرحمن بن عوف فتصدق بأربعة آلاف ، وقام عاصم بن عدى وتصدق بمائة وسق من تمر ، فلمزوهما ، وقالوا : ما هذا إلا رياء . وكان الذي تصدق بجمده أبا عقيل - أخا بنى أنيف - . أتى بصاع من تمر ، فأفرغها في الصدقة ، فتضاحكوا به ، وقالوا : إن الله أغنى عن صاع أبي عقيل ، (٢) .

هذه بعض الروايات التي وردت في سبب نزول هذه الآية ، وهناك روايات أخرى ، قريبة في معناها مما ذكرناه .

وقوله : « يلمزون ، من اللمز . يقال : لمز فلان فلانا إذا عابه وتنقصه . والمراد بالمطوعين : أغنياء المؤمنين الذين قدموا أموالهم عن طواعية واختيار ، من أجل إعلاء كلمة الله .

والمراد بالصدقات : صدقات التطوع التي يقدمها المسلم زيادة على الفريضة .

(١) تفسير ابن جرير ج ١٤ ص ٣٨٦ . طبعة دار المعارف .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٣٧٤ .

والمراد بالذين لا يجحدون إلا جهدهم : فقراء المسلمين الذين كانوا يقدمون أقصى ما يستطيعونه من مال مع قلته ؛ إذ الجهد : الطاقة ، وهى أقدار ما يستطيعه الإنسان .

والمعنى : إن من الصفات القبيحة - أيضاً - للمنافقين ، أنهم كانوا يعيبون على المؤمنين ، إذا ما بذلوا أموالهم لله ورسوله عن طواعية نفس ، ورده قلب ، وسماحة ضمير

وذلك لأن هؤلاء المنافقين - لخلو قلوبهم من الإيمان - كانوا لا يدركون الدوافع السامية ، والمقاصد العالية من وراء هذا البذل . . .

ومن أجل هذا كانوا يقولون عن المسكثير : إنه يبذل رياء ، وكان يقولون عن المقل : إن الله غنى عن صدقته ، فهم - لسوء نواياهم وبخل نفسوسهم - وخبت قلوبهم - لا يرضيهم أن يروا المؤمنين يتنافسون فى إرضاء الله ورسوله وقوله : والذين لا يجحدون إلا جهدهم ، معطوف على قوله : والمطوعين أى : أن هؤلاء المنافقين يلمزون الأغنياء المطوعين بالمال الكثير . ويلمزون الفقراء الباذلين المال القليل ؛ لأنه هو مبلغ جهدهم ، وآخر طاقتهم . وقوله : « فيسخرزون منهم » ، بيان لموقفهم الدميم من المؤمنين .

أى : إن هؤلاء المنافقين يستهزئون بالمؤمنين عندما يلبون دعوة رسول الله ﷺ - إلى الإنفاق فى سبيل الله .

وجاء عطف « فيسخرزون » على « يلمزون » ، بالفاء ، للإشعار بأنهم قو يسارعون إلى الاستهزاء بالمؤمنين ، بمجرد أن يصدر عن المؤمنين أى عمل من الأعمال الصالحة التى ترضى الله ورسوله .

وقوله : « سخر الله منهم ولهم عذاب أليم » ، بيان لجرائمهم وسوء عاقبتهم أى : إن هؤلاء الساخرين من المؤمنين ، جازاهم الله على سخريتهم فى الدنيا بيان فضحهم وأخزاهم ، وجعلهم محل الاحتقار والإزدراء ... أما جزاؤهم فى الآخرة فـ العذاب الأليم الذى لا يخف ولا ينقطع

وبذلك نرى الآية الكريمة قد بينت جانباً من طبائع المنافقين وردت عليهم بما يفضحهم ويخزهم ويبشرهم بالعذاب الاليم .

ثم عقب الله - تعالى - هذا الحكم عليهم بالعذاب الاليم ، بحكم آخر وهو عدم المغفرة لهم بسبب إصرارهم على الكفر والفسوق ، فقال - تعالى - :

أَسْتَغْفِرُ لَهُمْ

أَوْ لَا تَسْتَغْفِرُ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرُ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٨٠﴾

قال الجمل : قال المفسرون : لما نزلت الآيات المتقدمة في المنافقين ، وفي

بيان نفاقهم ، وظهر أمرهم للمؤمنين ، جاءوا إلى رسول الله - ﷺ - يعتذرون إليه ، ويقولون : استغفر لنا فنزلت هذه الآية .

وهذا كلام خرج مخرج الأمر ومعناه الخبر والتقدير : استغفارك وعدمه لهم سواء ، (١) .

ولأنما جاء هذا الخبر هنا في صورة الأمر للمبالغة في بيان استوائهما .

وقد جاء هذا الحكم في صورة الخبر في موضع آخر هو قوله - تعالى - :

«سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم ، لن يغفر الله لهم إن الله لا يهدي القوم الفاسقين» ، (٢) .

والمقصود بذكر السبعين في قوله : «إن تستغفر لهم سبعين مرة» ، إرادة

الكثير ، والمبالغة في كثرة الاستغفار ، فقد جرت عادة العرب في أساليبهم على استعمال هذا العدد للتكثير لا للتجديد ، فهو لا مفهوم له .

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٢ ص ٣٠٤ .

(٢) سورة المنافقون ، الآية ٦ .

ونظيره قوله - تعالى - «ذرعها سبعون ذراعاً» . (١)

أى : مهما استغفرت لهم يا محمد فلن يغفر الله لهم :

وقوله : «ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله والله لا يهدي القوم الفاسق»
بيان للأسباب التي أدت إلى عدم مغفرة الله لهم .

واسم الإشارة «ذلك» يعود إلى امتناع المغفرة لهم، المفهوم من قوله
«فإن يغفر الله لهم» .

أى : ذلك الحكم الذى أصدرناه عليهم بعدم مغفرة ذنوبهم مهما
استغفارك لهم سببه ، أنهم قوم : «كفروا بالله ورسوله» ، ومن كفر
بالله ورسوله ، فلن يغفر الله له ، مهما استغفر له المستغفرون ، وشفع
الشافعون .

وقوله : «والله لا يهدي القوم الفاسقين» ، تذييل مؤكد لما قبله ، أى و
- تعالى - لا يهدي إلى طريق الخير أولئك الذين فسقوا عن أمره ، وخرج
عن طاعته ، ولم يستمعوا إلى نصيح الناصحين ، وإرشاد المرشدين ، وإ
آثروا الغواية على الهداية .

هذا ، ويؤخذ من هذه الآية الكريمة ، شدة شفقته - ﷺ -
بأمتهم ، وحرصه على هدايتهم ، وكثرة دعائه لها بالرحمة والمغفرة ، وأنه
إذاء المنافقين له كان يستغفر لهم - أملاً فى توبتهم - إلى أن نهاه الله عن ذلك
روى ابن جرير عن ابن عباس أنه لما نزلت هذه الآية ، قال الرسول
- ﷺ - «أسمع ربي قد رخص لى فيهم ، فوالله لأستغفرن أكثر»
سبعين مرة ، فلعل الله أن يغفر لهم ، فقال الله - تعالى - من شدة غص
عليهم «سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم...»

(١) سورة الحاقة الآية ٣٠ .

وعن قتادة لما نزلت هذه الآية قال النبي - صلى الله عليه وسلم - : « قد خيرني ربي فلا يزيدهم على السبعين » فقال الله - تعالى - : « سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم ، لن يغفر الله لهم . . . » (١) وهكذا أصدر الله حكمه العادل في هؤلاء المنافقين ، بعدم المغفرة لهم ، بسبب كفرهم به وبرسوله . . .

وبعد هذا الحديث الطويل المتنوع عن أحوال المنافقين ومسالكتهم الخبيثة ، أخذت السورة الكريمة في الحديث عن حال المنافقين الذين تخلفوا في المدينة ، وأبوا أن يخرجوا مع الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلى تبوك ، فقال - تعالى - :

فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلَيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلَيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَعَذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ ﴿٨٣﴾

وقوله : « المخلفون » اسم مفعول مأخوذ من قولهم خلف فلان فلانا وراؤه إذا تركه خلفه .

والمراد بهم : أولئك المنافقون الذين تخلفوا عن الخروج إلى غزوة تبوك بسبب ضعف إيمانهم ، وسقوط همهم ، وسوء نيتهم . . .

قال الجمل : وقوله « خلاف رسول الله » فيه ثلاثة أوجه : أحدها : أنه منصوب على المصدر بفعل مقدر مدلول عليه بقوله « مقعدهم » ، لأنه في معنى تخلفوا أى : تخلفوا وخلاف رسول الله . الثانى : أن خلاف مفعول لأجله والعامل فيه إما فرح وإما مقعد . أى : فرحوا لأجل مخالفتهم رسول الله ﷺ - حيث مضى هو للجهاد وتخلفوا هم عنه . أو بقعودهم لمخالفتهم له ، وإليه ذهب الطبري والزجاج ، ويؤيد ذلك قراءة من قرأ : « خلاف رسول الله » - بضم الخاء واللام . . الثالث : أن ينتصب على الظرف . أى بعد رسول الله ، يقال : أقام زيد خلاف القوم ، أى : تخلف بعد ذهابهم ، وخلاف يكون ظرفاً ، وإليه ذهب أبو عبيدة وغيره ، ويؤيد هذا قراءة ابن عباس ، وأبي حيوة ، وعمرو بن ميمون ، « خلف رسول الله » - بفتح الخاء وسكون اللام (١) .

والمعنى : فرح المخلفون : من هؤلاء المنافقين ، بسبب قعودهم في المدينة ، وعدم خروجهم إلى تبوك للجهاد مع الرسول ﷺ . والمؤمنين ، وكرهوا أن يبذلوا شيئاً من أموالهم وأنفسهم من أجل إعلاء كلمة الله .

ولما فرحوا بهذا القعود ، وكرهوا الجهاد ، لأنهم قوم خلت قلوبهم من الإيمان بالله واليوم الآخر ، وهبطت نفوسهم عن الارتفاع إلى معالي الأمور ، وآثروا الدنيا وشهواتها الزائلة على الآخرة ونعيمها الباقي : وفي التعبير بقوله : « المخلفون » ، تحقير لهم ، وإهمال لشأنهم ، حتى أكانهم شيء من سقط المتاع الذى يخلف ويترك ويهمل ؛ لأنه لا قيمة له ، أو لأن ضرره أكبر من نفعه .

قال الألوسی : وإبشار ما في النظم البكریم على أن يقال . وكرهوا أن

يخرجوا مع رسول الله ﷺ. إيدان بأن الجهاد في سبيل الله مع كونه من أجل الرغائب التي ينبغي أن يتنافس فيها المتنافسون، قد كرهوه ، كما فرحوا بأقبح القبائح وهو القعود خلاف رسول الله ﷺ . وفي الكلام تعريض بالمؤمنين الذين آثروا ذلك وأحبوه ابتغاء لرضا الله ورسوله، (١) .

وقوله : د وقالوا لا تنفروا في الحر ، حكاية لأقوالهم التي تدل على ضعفهم وجبنهم ، وعلى أنه قوم لا يصلحون للأعمال التي يصلح لها الرجال . أى . وقال هؤلاء المنافقون المخلفون لغيرهم . أقعدوا معنا في المدينة ، ولا تخرجوا للجهاد مع المؤمنين . فإن الحر شديد ، والسفر طويل ، وقعودكم يريحكم من هذه المتاعب ، ويحمل غيرنا وغيركم على القعود معنا ومعكم . وبذلك ننان بغيتنا من تشبيط همة المجاهدين عن الجهاد في سبيل الله .

وقوله : د قل نار جهنم أشد حراً د رد على أقوالهم القبيحة ، وأفعالهم الخبيثة ، أى . قل يا محمد هؤلاء المنافقين على سبيل التكميم بهم ، والتحقيق من شأنهم : نار جهنم أشد حراً من هذا الحر الذي تخشونه وتروونه مانعاً من النفير بل هي أشد حراً من نار الدنيا . . .

روى الإمام مالك عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : د نار بنى آدم التي توقدونها . جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم . . . (٢) .

ورحم الله صاحب الكشف فقد قال : وقوله : د قل نار جهنم أشد حراً . استجهال لهم ، لأن من تصون مشقة ساعة ، فوقع بسبب ذلك النصون في مشقة الأبد ، كان أجهل من كل جاهل ، وابعضهم :

(١) تفسير الألوسي ج ١٠ ص ١٥١ .

(٢) راجع تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٣٧٦ فقد ساق هنا جملة من الأحاديث

في هذا المعنى .

مسرة أحقاب تلقيت بعدها مساء يوم أريها شبه الصاب
فكيف بأن تلقى مسرة ساعة وراء تقضيها مساء أحقاب (١)
أى : أن حزن يوم واحد يجعل المسرات الطويلة قبله تتحول إلى ما يشبه
الصاب المرارة ، فكيف يكون الحال إذا كانت المسرات ساعة واحدة تعقبها
أحقاب طويلة من المساءات ١١٤ .

وقوله : لو كانوا يفقهون ، تذييل قصده به الزيادة في توبيخهم وتحقيرهم .
أى : لو كانوا يفقهون أن نار جهنم أشد حراً ويعتبرون بذلك ، لما
فرحوا بمقعدهم خلاف رسول الله ، ولما كرهوا الجهاد ، ولما قالوا ما قالوا .
بل لحزنوا واكتأبوا على ما صدر منهم ؛ ولبادروا بالتوبة والاستغفار ، كما
فعل أصحاب القلوب والنفوس النقية من النفاق والشقاق .

وقوله : فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً ، وعبد لهم بسوء
مصيرهم ، وإخبار عن عاجل أمرهم وآجله ، من الضحك القليل فى الدنيا
والبكاء الكثير فى الآخرة .

والمعنى : إنهم وإن فرحوا وضحكوا طوال أعمارهم فى الدنيا ، فهو قليل
بالنسبة إلى بكائهم فى الآخرة ، لأن الدنيا فانية والآخرة باقية ، والمنقطع الفانى
قليل بالنسبة إلى الدائم الباقي .

قال صاحب المنار : وفى معنى الآية قوله - ﷺ - لو تعلمون
ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً ، متفق عليه ، بل رواه الجماعة إلا
أبا داود من حديث أنس . ورواه الحاكم من حديث أبي هريرة بلفظ
« لبكيتم كثيراً وضحكتم قليلاً » .

ثم قال : وإنما كان الأمر فى الآية بمعنى الخبر ، لأنه إنذار بالجزاء لا تكليف

(١) الأحقاب : الأزمان الطويلة . والأرى : السيل والصاب : نبات مر .

وقد قيل في فائدة هذا التعبير عن الخبر بالإفشاء ، إنه يدل على أنه حتم لا يحتمل الصدق والكذب كما هو شأن الخبر لذاته في احتماليهما، لأن الأصل في الأمر أن يكون للإيجاب وهو حتم . . . (١) .

وقوله : د جزاء بما كانوا يكسبون ، تذييل قصد به بيان عدالته . سبحانه . في معاملة عباده .

أى : أننا ما ظلمناهم بتوعدنا لهم بالضحك القليل وبالبكاء الكثير، وإنما هذا الوعيد جزاء لهم على ما اكتسبوه من فنون المعاصي، وما اجتروحه من محاربة دائمة لدعوة الحق .

وقوله : د جزاء ، مفعول للفعل الثاني . أى : ليكوا جزاء . ويجوز أن يكون مصدراً حذف ناصبه . أى : يحزون بما ذكر من البكاء الكثير جزاء . وجمع — سبحانه — في قوله د بما كانوا يكسبون ، بين صيغتي الماضي وللمستقبل دلالة على الاستمرار التجددى ما داموا في الدنيا .

ثم بين - سبحانه - ما يجب على الرسول نحو هؤلاء المخلفين الكارهين للجهاد ، فقال : د فإن رجعت الله إلى طائفة منهم فاستأذوك للخروج فقل إن تخرجوا معي أبداً ، ولن تقاتلوا معي عدوا . . .

قوله : د رجعت ، من الرجع بمعنى تصيير الشيء إلى المكان الذى كان فيه أولاً . والفعل رجع أحياناً يستعمل لازماً كقوله - تعالى - : د فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً . . .

وفي هذه الحالة يكون مصدره الرجوع . وأحياناً يستعمل متعدياً كآية التى معنا ، وكقوله - تعالى - فرجعناك إلى أمك كي تقر عينها ولا تحزن . . . وفي هذه الحالة يكون مصدره الرجع لا الرجوع .

قال الألوسى : و د رجع ، هنا متعد بمعنى رد ومصدره الرجع ، وقد

يكون لازماً ومصدره الرجوع ، وأوثر هنا استعمال المتعدى - وإن كان استعمال اللازم كثيراً - إشارة إلى أن ذلك السفر لما فيه من الخطر يحتاج الرجوع منه إلى تأييد إلهي ، ولذا أوثرت كلمة « إن » ، على إذا . . . (١)

والمعنى : فإن ردك الله - تعالى - من سفرك هذا - أيها الرسول الكريم - إلى طائفة من هؤلاء المنافقين الذين تخلفوا عن الخروج معك إلى تبوك « فاستأذفوك للخروج ، معك في غزوة أخرى بعد هذه الغزوة » فقل ، لهم على سبيل الإهافة والتحقير « إن تخرجوا معي أبداً ، مادمت على قيد الحياة » ولن تقاتلوا معي عدواً ، من الأعداء الذين أمرني الله بقتالهم ، والسبب في ذلك « إنكم ، أيها المنافقون » رضيتم بالعودة ، عن الخروج معي وفرحتهم به في « أول مرة » دعيتم فيها إلى الجهاد ، فجزاؤكم وعقابكم أن تفعّدوا « مع الخالفين ، أي : مع الذين تخلفوا عن الغزوة لعدم قدرتهم على تكاليفه - كالمريض والنساء والصبيان - أو مع الأشرار الفاسدين الذين يتشابهون معكم في الجبن والنفاق وسوء الأخلاق .

قال الإمام الرازي ما ملخصه ، ذكروا في تفسير الخائف وجوها :

الأول : قال أبو عبيدة الخافون جمع ، واحد خالف ، وهو من يخلف الرجل في قومه ، ومعناه : فاقعدوا مع الخالفين من الرجال الذين يخلفون في البيت فلا يبرحونه .

الثاني : أن الخالفين فسر بالمخالفين . يقال : فلان خالفة أهل بيته إذا كان مخالفاً لهم ، وقوم خالفون أي : كثيرو الخلفاء غيرهم .

الثالث : أن الخائف هو الفاسد . قال الأصمعي : يقال : خلف عن كل خير يخلف خلواً إذا فسد ، وخلف اللبن إذا فسد .

إذا عرفت هذه الوجوه الثلاثة فلا شك أن اللفظ يصلح حمله على كل

واحد منها ، لأن أولئك المنافقين كانوا موصوفين بجميع هذه الصفات السيئة ... ، (١)

وقال - سبحانه - : فإن رجعت الله إلى طائفة منهم ... ، ولم يقل فإن رجعت الله إليهم ، لأن جميع الذين تخلفوا عن الخروج مع الرسول - ﷺ - إلى تبوك . لم يكونوا من المنافقين ، بل كان هناك من تخلف بأعذار مقبولة ، كالذين أتوا إلى الرسول - ﷺ - ليحملهم معه ، فقال لهم : لا أجد ما أحملكم عليه ، فتولوا ، وأعينهم تفيض من الدمع حزنا . وسياتى الحديث عنهم بعد قليل .

وقوله : : لن تخرجوا معي أبداً ، وإن تقاتلوا معي عدو ، إخبار في معنى النهي للمبالغة وجمع - سبحانه - بين الجملتين زيادة في تبكيتهم ، وفي إهمال شأنهم ، وفي كراهة مصاحبتهم ...

وذلك ، لأنهم لو خرجوا مع المؤمنين مازادوهم إلا خيالا ، ولو قاتلوا معهم ، لكان قتالهم خاليا من الغاية السامية التي من أجلها قاتل المؤمنون وهي إعلاء كلمة الله ، وكل قتال خلا من تلك الغاية كان مآله إلى الهزيمة .. هذا ، وقد اشتملت هذه الآيات الكريمة على أسوأ صفات المنافقين ، كما اشتملت على أشد ألوان الوعيد لهم في الدنيا والآخرة جزاء بما كانوا يكسبون .

قال الجمل : وفي قوله - تعالى - : فإن رجعت الله إلى طائفة منهم ... الآية ، دليل على أن الشخص إذا ظهر منه مكر وخداع وبدعة ، يجب الانقطاع عنه ، وترك مصاحبته ، لأنه - سبحانه - منع المنافقين من الخروج مع الرسول - ﷺ - إلى الجهاد ، وهو مشعر بإظهار نفاقهم وذمهم وطردهم وإبعادهم لما علم من مكرهم وخداعهم إذا خرجوا إلى الغزوات ، (٢) .

(١) تفسير الفخر الرازي ج ٤ ص ٤٨٢

(٢) حاشية الجمل على الجلائن ج ٢ ص ٣٠٥

وبعد أن بين - سبحانه - ما يجب أن يفعله الرسول - ﷺ - معهم في حياتهم ، أتبع ذلك ببيان ما يجب أن يفعله معهم بعد مماتهم فقال - تعالى - :

وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَّتَّ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ ۚ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨٤﴾

قال الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية ما ملخصه : دأمر الله - تعالى - رسوله - ﷺ - أن يبرأ من المنافقين ، وأن لا يصلي على أحد منهم إذا مات ، وأن لا يقوم على قبره ليستغفر له ، أو يدعو له ؛ لأنهم كفروا بالله ورسوله ، وهذا حكم عام في كل من عرف نفاقه ، وإن كان سبب نزول الآية في عبد الله بن أبي بن سلول رأس المنافقين .

فقد روى البخاري عن ابن عمر قال : لما توفي عبد الله بن أبي جاء ابنه عبد الله إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فسأله أن يعطيه قيصه ليكفن فيه أباه ، فأعطاه إياه ، ثم سأله يصلي عليه ، فقام رسول الله - ﷺ - ليصلي عليه ، فقام عمر ، فأخذ بثوب رسول الله - ﷺ - وقال : يا رسول الله ، تصلي عليه ، وقد نهاك ربك أن تصلي عليه ؟ فقال الرسول - ﷺ - : « إنما خيرني الله ، فقال : « استغفر لهم أو لا تستغفر لهم ، إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ، وسأزيده على السبعين . قال : إنه منافق . قال : فضلى عليه رسول الله - ﷺ - فأنزل الله - تعالى - قوله : « ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ... الآية :

وروى الإمام أحمد عن ابن عباس قال : سمعت عمر بن الخطاب يقول : لما توفي عبد الله بن أبي دعى رسول الله - ﷺ - للصلاة عليه ، فقام عليه ، فلما وقف عليه - يريد الصلاة - تحولت حتى قمت في صدره فقلت : يا رسول الله ، أعلى عدو الله : عبد الله بن أبي الفائل يوم كذا ، كذا وكذا ؟ - وأخذ يعدد أيا - يتسم حتى إذا

أكثر عليه قال : تأخر عني يا عمر . إني خيرت فاخترت . قد قيل لي :
« استغفر لهم ... الآية » .

لو أعلم أني لو زدت على السبعين غفر له لزدت . قال : ثم صلى عليه
ومشى معه وقام على قبره ، حتى فرغ منه .

قال : فعجبت من جرأتي على رسول الله - ﷺ - والله ورسوله أعلم .

قال : فوالله ما كان إلا يسيراً حتى نزلت ولا تصل على أحد منهم مات .
أبدأ الآية ، . . .

قال : فما صلى رسول الله - ﷺ - بعد ذلك على منافق . ولا قام
على قبره ، حتى قبضه الله - عز وجل - ، (١) .

والمعنى : « لا تصل ، أيها الرسول الكريم - « على أحد ، من هؤلاء
المنافقين ، مات أبداً ، ولا تقم على قبره ، أي : ولا تقف على قبره عند
الدفن أو بعده بقصد الزيارة أو الدعاء له ، وذلك لأن صلاتك عليهم ، ووقوفك
على قبورهم شفاعاة لهم ، ورحمة بهم ، وتكريم لشأنهم . وهم ليسوا أهلاً لذلك .

وقوله : (إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون) تعليل
للهي عن الصلاة عليهم ، والوقوف على قبورهم .

أي : نهينيك - يا محمد - عن ذلك ، لأن هؤلاء المنافقين قد عاشوا
حياتهم كافرين بالله ورسوله ، ومحار بين لدعوة الحق ؛ وماتوا وهم
خارجون عن حظيرة الإيمان .

وجمع - سبحانه - بين وصفهم بالكفر ووصفهم بالفسق ؛ زيادة في تقييد
أمرهم ، وتحقير شأنهم ؛ فهم لم يكتفوا بالكفر وحده ، وإنما أضافوا إليه
الفسق ، وهو الخروج عن كل قول طيب ، وخلق حسن ، وفعل كريم .

(١) راجع تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٣٧٨ ففيه جملة من الأحاديث
في هذا المعنى .

قال بعضهم : فإن قلت : الفسق أدنى حالا من الكفر ، فما الفائدة في وصفهم بالفسق بعد وصفهم بالكفر ؟ قلت إن الكافر قد يكون عدلا بأن يؤدي الأمانة ، ولا يضر لأحد سواء ، وقد يكون خبيثاً كثير الكذب والمكر والخداع وإضرار السوء للغير ، وهذا أمر مستقبح عند كل أحد . ولما كان المنافقون بهذه الصفة الخبيثة ، وصفهم الله - تعالى - بكونهم فاسقين بعد أن وصفهم بالكفر ، (١) .

هذا ، ومن الأحكام التي أخذها العلماء من هذه الآية ما يأتي :

١ - تحريم الصلاة على الكافر ، والوقوف على قبره ومفهمه وجوب الصلاة على المسلم ودفعه ومشروعية الوقوف على قبره ، والدعاء له .

قال الإمام ابن كثير : ولما نهى الله - تعالى - عن الصلاة على المنافقين والقيام على قبورهم للاستغفار لهم ، كان هذا الصنيع من أكبر القربات في حق المؤمنين ، فشرع ذلك وفي فعله الأجر الجزيل ، كما ثبت في الصحاح وغيرها من حديث أبي هريرة أن رسول الله - ﷺ - قال : « من شهد الجنائزة حتى يصلّي عليها فله قيراط ، ومن شهدا حتى تدفن فله قيراطان ، قيل وما القيراطان ؟ قال : « أصغرهما مثل أحد » . وأما القيام عند قبر المؤمن إذا مات ، فروى أبو داود عن عثمان بن عفان قال : كان رسول الله - ﷺ - إذا فرغ من الميت وقف عليه وقال : « استغفروا لأخيكم واسألوا له التثبيت فإنه الآن يسأل » ، (٢) .

٢ - وجوب منع كل مظهر من مظاهر التكريم - في الحياة وبعد الممات - عن الذين يحاربون دعوة الحق ، ويقفون في وجه انتشارها وظهورها :
أما منع تكريمهم في حياتهم فتراه في قوله - تعالى - في الآية السابقة :

(١) حاشية الجمل على الجلايين ج ٢ ص ٣٠٦ - بتصرف يسير -

٢، الآية رقم ١١ من تفسيرنا لها .

« فإن رجعت الله إلى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج فقل إن تخرجوا معي أبداً ، ولن تقاتلوا معي عدواً ، ، ، ، ،
وأما منع تكريمهم بعد ثباتهم فنراه في هذه الآية : « ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ، ولا تقم على قبره ، ، ، ، ،
ولا شك أن حجب كل تكريم عن أولئك المنافقين في العهد النبوي ، كان له أثره القوي في إنهيار دولتهم ، وافتضاح أمرهم ، وذهاب ريحهم ، وتهوين شأنهم

هذا ، وما فعله الرسول - ﷺ - مع عبد الله بن أبي من الصلاة عليه ، والقيام على قبره إنما كان قبل نزول هذه الآية . . .
أو أنه - ﷺ - فعل ذلك تطييباً لقلب ابنه الذي كان من فضلاء الصحابة وأصدقهم إسلاماً .

فقد سبق أن ذكرنا ما رواه البخاري عن ابن عمر أنه قال : لما توفي عبد الله بن أبي جاء ابنه عبد الله إلى رسول الله - ﷺ - فسأله أن يعطيه قبضه ليعكفن فيه أباه ، فأعطاه إياه ثم سأله أن يصلي عليه ، ، ، ، الحديث .
ثم نهى الله - تعالى - كل من يصلح للخطاب عن الاعتزاز بما عند هؤلاء المنافقين من مال وولد ، فقال - تعالى - :

« وَلَا تُعْجِبْكَ

أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٨٥﴾

أى : عليك - أيها العاقل - أن لا تغتر بما عند هؤلاء المنافقين من أموال وأولاد ، وأن لا يداخل قلبك شيء من الإعجاب بما بين أيديهم من نعم ، فإن هذه النعم - التي من أعظمها الأموال والأولاد - إنما أعطاها الله إياها ، ليعذبهم بسببها في الدنيا عن طريق التعب في تحصيلها ، والحزن عند فقد ما وهلا كما :
وقوله : « وتزهد أنفسهم وهم كافرون » ، بيان لسوء مصيرهم في الآخرة ، بعد بيان عذابهم في الدنيا ، وزهوق النفس : خروجها من الجسد بمشقة وتعب .

أى : أنهم فى الدنيا تسكون النعم التى بين أيديهم ، مصدر عذاب لهم ، وأما
حقى الآخرة فعذابهم أشد وأبقى ؛ لأن أرواحهم قد خرجت من أبدانهم وهم
مصريون على الكفر والضلال .

فأنت ترى أن الآية الكريمة تدعو عدت هؤلاء المنافقين بسوء العاقبة فى
الدنيا والآخرة ، ومن كان مصيره كهذا المصير ، لا يستحق الإعجاب أو التكرم
ولإنما يستحق الاحتقار والإهمال .

وهذه الآية الكريمة ، قد سبقتهما فى السورة نفسها آية أخرى شبيهة بها .
وهى قوله — تعالى — : « فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم ، إنما يريد الله
ليعذبهم بها فى الحياة الدنيا ، وتزهق أنفسهم وهم كافرون » (١)

وقد أشار صاحب الكشف إلى سر هذا التكرار فقال : « وقد أعيد
قوله « ولا تعجبك ... » ، لأن تجدد النزول له شأنه فى تقرير ما نزل له
وتأكيد ، وإرادة أن يكون على بال من المخاطب لا ينساه ولا يسره عنه ،
وأن يعتقد أن العمل به مهم يقتدر إلى فضل عناية به ، لاسيما إذا تراخى ما بين
النزولين ، فأشبه الشيء الذى أهم صاحبه ، فهو يرجع إليه فى أثناء حديثه ؛
ويتخلص إليه ، وإنما أعيد هذا المادى لقوته فيما يجب أن يحذر منه » (٢) .
ثم بين — سبحانه — موقف المنافقين وموقف المؤمنين بالنسبة للجهاد ،

كما بين عاقبة كل فريق فقال — تعالى — :

وَإِذَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ

وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَعْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ

مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى

قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾

(١) الآية رقم ٥٦ وراجع تفسيرنا لها .

(٢) تفسير الكشف ج ٢ ص ٢٩٩ .

لَكِنَّ الرُّسُولَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ
 جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ
 هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
 خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾

والمراد بالسورة في قوله - سبحانه - ، وإذا أنزلت سورة : كل سورة
 ذكر الله - تعالى - فيها وجوب الإيمان به والجهاد في سبيله .
 أى : أن من الصفات الذميمة لهؤلاء المنافقين ، أنهم كلما نزلت سورة
 قرآنية ، تدعو في بعض آياتها الناس إلى الإيمان بالله والجهاد في سبيله ، ما كان
 منهم عند ذلك إلا الجبن والاستخذاء والتهرب من تكاليف الجهاد ...
 وقوله : «إسأذنك أولوا الطول منهم ...» ، بيان لحال هؤلاء المنافقين
 عند نزول هذه السورة .

والطول - بفتح الطاء - يطلق على الغنى والثروة ، مأخوذ من مادة الطول
 بالضم التي هي ضد القصر .
 والمراد بأولى الطول : رؤساء المنافقين وأغنياؤهم والقادرون على
 تكاليف الجهاد .

أى : عند نزول السورة الداعية إلى الجهاد ، يحى هؤلاء المنافقون أصحاب
 الغنى والثروة ، إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - ليستأذنوه في القعود وعدم
 الخروج ... وليقولوا له بجنب واستخذاء «ذرنا نكون مع القاعدين» .
 أى : أتركنا يا محمد مع القاعدين في المدينة من العجزة والنساء والصبيان ،
 واذهب أنت وأصحابك إلى القتال .

ولما خص ذوى الطول بالذكر ، تخليدا لمذمتهم واحتقارهم ؛ لأنه كان
 المتوقع منهم أن يتقدموا صفوف المجاهدين ، لأنهم يملكون وسائل الجهاد
 والبذل ، لا يتخاذلوا ويعتذروا ، ويقولوا ما قالوا مما يدل على جبنهم واتوائهم .

وقوله : « رضوا بأن يكونوا مع الخوالف ، زيادة في تحقيرهم وذمهم .
والخوالف : جمع خالفة ، ويطلق على المرأة المتخلفة عن أعمال الرجال
الضعفها . كما يطلق لفظ الخالفة - أيضاً - على كل من لا خير فيه .

والمعنى : رضى هؤلاء المنافقون لأنفسهم . أن يبقوا في المدينة مع النساء ،
ومع كل من لا خير فيه من الناس ، ولا يرضى بذلك إلا من هانت كرامته ،
وسقطت مروءته ، وألف الذل والصغار .

وقوله « وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون » ، بيان لما ترتب على استمرارهم
في النفاق ، وعدم رجوعهم إلى طريق الحق .

أى : أنه ترتب على رسوخهم في النفاق ، وإصرارهم على الفسوق والعصيان
أن ختم الله على قلوبهم ، فصارت لا تفقه ما في الإيمان والجهاد من الخير
والسعادة ، وما في النفاق والشقاق من الشقاء والهلاك .

وقوله - سبحانه - « لكن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم
وأنفسهم » ، استدرأك إيمان حال الرسول - صلى الله عليه وسلم - والمؤمنين ،
بمد بيان حال المنافقين .

أى : إذا كان حال المنافقين كما وصفنا من جبن وتخاذل وهوان
فإن حال المؤمنين ليس كذلك ، فإنهم قد وقفوا إلى جانب رسولهم - صلى الله
عليه وسلم - ، جاهدوا معه بأموالهم وأنفسهم من أجل إعلاء كلمة الله ، وأطاعوه
في السر والعلن ، وآثروا ما عند الله على كل شئ . في هذه الحياة ...

وقد بين - سبحانه - جزاءهم الكريم فقال : « أولئك لهم الخيرات »
أى : أولئك المؤمنون الصادقون لهم الخيرات التي تسر النفس ، وتشرح
الصدر في الدنيا والآخرة « وأولئك هم المفلحون » ، الفائزون بسعادة الدارين .

« أعد الله » - تعالى - لمؤلاء المؤمنين الصادقين « جنات تجري من تحت
ثمارها وأشجارها ومسكنها » الأنهار خالدين ، في تلك الجنات خلوداً أبدياً ،

وذلك ، العطاء الجزيل ، هو الفوز العظيم ، الذى لا يدانيه فوز ، ولا تقاربه سعادة .

وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة قد ذمت المنافقين لجبنهم ، وسوء نيتهم ، وتخلفهم عن كل خير . . . ومدحت الرسول — صلى الله عليه وسلم — والمؤمنين ، الذين نهضوا بتكاليف العقيدة ، وأدوا ما يجب عليهم نحو خالقهم وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم من أجل كلمته — سبحانه — .
وبعد أن بين — سبحانه — أحوال المنافقين من سكان المدينة ، أتبع ذلك بالحديث عن المنافقين من الأعراب سكان البادية فقال — تعالى — :

وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ

لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا

مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾

قال القرطبي ما ملخصه : قوله - تعالى - : « وجاء المعذرون من الأعراب » قرأ الأعرج والضحاك . المعذرون ، مخففا . ورواها أبو كريب عن أبي بكر عن عاصم . . . وهى من أعذر ، ومنه قد أعذر من أفذر ، أى : قد يبالغ فى العذر من تقدم إليك فأعذر . وأما . المعذرون ، بالتشديد — وهى قراءة الجمهور — ففيها قولان :

أحدهما : أنه يكون المحق ، فهو فى المعنى المعتذر ، لأن له عذرا . فيكون المعذرون ، على هذه أصله المعتذرون ، ثم أدغمت التاء فى الذال . . .
وثانيهما : أن المعذر قد يكون غير محق ، وهو الذى يعتذر ولا عذره . والمعنى ، أنهم اعتذروا بالكذب . . .

قال الجوهري : وكان ابن عباس يقول : لعن الله المعذرين . كأن الأمر عنده أن المعذر — بالتشديد — هو المظهر للعذر ، اعتلالا من غير حقيقة له . فى العذر (١) .

ومن هذه الأقوال التي نقلناها عن القرطبي يتبين لنا أن من المفسرين من يرى أن المقصود من المعذرين : أصحاب الأعذار المقبولة .

وقد رجح الإمام ابن كثير هذا الرأي فقال : بين الله - تعالى - حال ذوى الأعذار في ترك الجهاد ، وهم الذين جاءوا رسول الله - ﷺ - يعتذرون إليه ، ويبينون له ما هم فيه من الضعف وعدم القدرة على الخروج وهم من أحياء العرب ممن حول المدينة .

قال الضحاك عن ابن عباس : إنه كان يقرأ د وجاء المعذرون ، - بالتخفيف - ، ويقول ، هم أهل العذر . . . وهذا القول أظهر في معنى الآية ؛ لأنه - سبحانه - قال بعد هذا ، وقعد الذين كذبوا الله ورسوله ، . أى : لم يأتوا فيعتذروا . . . (١) .

وعلى هذا الرأي تكون الآية قد ذكرت قسمين من الأعراب : قسما جاء معتذرا إلى رسول الله - ﷺ - وقسما لم يحجى ولم يعتذر ، وهذا القسم هو الذى توعد الله بسوء المصير .

ومنهم من يرى أن المقصود بالمعذرين : أصحاب الأعذار الباطلة ، وقد سار على هذا رأى صاحب الكشف فقال : المعذرون ، من عذر في الأمر ، إذا قصر فيه وتوانى ولم يجد فيه . وحقيقته أنه يؤهم أن له عذرا فيما يفعل ولا عذر له .

أو المعتذرون بإدغام التاء في الذال ، وهم الذين يعتذرون بالباطل ، كقوله : يعتذرون إليكم إذا رجعتهم إليهم . . .

وقرىء المعذرون ، بالتخفيف : وهو الذى يجتهد في العذر ويحتشد فيه . قيل هم أسد وغطفان . قالوا : إن لنا عيالا ، وإن بنا جهدا فائذن لنا في التخلف .

وقيل : هم رهط عامر بن الطفيل ، قالوا : غزونا معك أغارت أعراب
 طيء على أهلينا ومواشينا ، فقال - ﷺ - « سيغنيني الله عنكم ،
 وعن مجاهد : نفر من غفار اعتذروا فلم يعذرهم الله - تعالى - . وعن قتادة :
 اعتذروا بالكذب . . . (١) .

وعلى هذا الرأي تكون الآية الكريمة قد ذكرت قسمين - أيضا - من
 الأعراب ، إلا أن أولهما قد اعتذر بأعذار غير مقبولة ، وثانيهما لم يعتذر ،
 بل قعد في داره مصرا على كفره ، وإذا قال أبو عمرو بن العلاء : كلا الفريقين
 كان مسيئا : قوم تكلفوا عذرا بالباطل وهم الذين عتابهم الله - تعالى - بقوله
 (وجاء المعذرون) . وقوم تخلفوا من غير عذر فقعدها جرأة على الله وهم
 المنافقون ، فتوعدهم الله بقوله : « سيصيب الذين كفروا منهم عذاب أليم » .
 والذي يبدو لنا أن الرأي الأول أقرب إلى الصواب ؛ لتناسقه مع ما يفيد
 ظاهر الآية ، لأن الآية الكريمة ذكرت نوعين من الأعراب ، أحدهما : المعذرون .
 أي أصحاب الأعذار ، وثانيهما : الذين قعدوا في بيوتهم مكذبين لله
 ولرسوله ، فتوعدهم . سبحانه . بالعذاب الأليم ، ولأنه لا توجد قرينة
 قوية تجعلنا نرجح أن المراد بالمعذرين هنا ، أصحاب الأعذار الباطلة ، لأن
 التفسير اللغوي للكلمة - كما نقلنا عن القرطبي - يجعلها صالحة للأعذار
 المقبولة ، فكان الحمل على حسن الظن أولى ، والله - تعالى - بعد ذلك هو
 العليم بأحوال العباد ، ما ظم منها وما بطن .

وعلى هذا يكون معنى الآية الكريمة : وعندما استنفر النبي ﷺ
 الناس إلى غزوة تبوك ، جاءه أصحاب الأعذار من الأعراب ليستأذنه في
 عدم الخروج معه ، فقبل - ﷺ - ما هو حق منها .
 وقوله : (وقعد الدين كذبوا الله ورسوله) بيان للفريق الثاني من
 الأعراب وهو الذي لم يجرى إلى الرسول - ﷺ - معتذرا .

أى : وقعد عن الخروج إلى تبوك ، وعن المجيء إلى رسول الله — ﷺ — للاعتذار ، أو أئامك الذين كذبوا الله ورسوله في دعوى الإيمان ، وهم الراسخون في النفاق والعصيان من الأعراب سكان البادية .
وفوله : سيصيب الذين كفروا منهم عذاب أليم ، وعيد لهم بسوء العاقبة في الدارين .

أى : سيصيب الذين أصروا على كفرهم ونفاقهم من هؤلاء الأعراب ، عذاب أليم في الدنيا والآخرة . أما الذين رجعوا عن كفرهم ونفاقهم منهم ، وتابوا إلى الله - تعالى - توبة صادقة ، ف هؤلاء عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفوا غفورا .

ثم ذكر - سبحانه - الأعذار الشرعية المقبولة عنده وعند رسوله ، والتي تجعل صاحبها لا حرج عليه إذا ما قعد معها عن القتال ، فقال - تعالى -

لَيْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ

تَفِضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ ﴿٩٢﴾

ذكر المفسرون في سبب نزول هاتين الآيتين روايات ، منها ما جاء عن زيد بن ثابت أنه قال كنت أكتب لرسول الله - ﷺ - فمكنت أكتب « براءة » ، فإني لو اضع القلم على أذنى ، إذ أمرنا بالقتال ، فجعل رسول الله - ﷺ - ينظر ما ينزل عليه ، إذ جاء أعمى فقال : كيف بي يا رسول الله . وأنا أعمى ؟ فنزلت « ليس على الضعفاء ولا على المرضى ... الآية » .

وروى العوفي عن ابن عباس أن رسول الله - ﷺ - أمر الناس أن ينبعثوا غازين معه . فجاءته عصابه من أصحابه ، فيهم عبد الله بن مقرن المزني . فقالوا : يا رسول الله ، أحملنا . فقال لهم : والله لأجد ما أحملكم عليه ، فتولوا وهم يبكون . وعز عليهم أن يجلسوا عن الجهاد ، ولا يجدون نفقة ولا محملاً ، فلما رأى الله حرصهم على محبته ومحبة رسوله ، أنزل عندهم في كتابه فقال : **ليس على الضعفاء ولا على المرضى . . .**

وقال محمد بن إسحاق - في سياق غزوة تبوك - : ثم إن رجالاً من المسلمين أتوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهم البكاء ونهم سبعة نفر من الأنصار وغيرهم . . . فاستحملوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وكانوا أهل حاجة فقال . لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدفع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون .

والضعفاء : جمع ضعيف ، وهو من ليس عنده القوة على القيام بتكاليف الجهاد ، كالشيوخ والنساء والصبيان . . .

والمرضى : جمع مريض ، وهم الذين عرضت لهم أمراض حالت بينهم وبين الاشتراك في القتال ، وهؤلاء عندهم ينتهى بزوال أمراضهم .

والمعنى : ليس على الضعفاء العاجزين عن القتال لعلّة في تسكينهم ، أو لشيخوخة أقعدتهم ، ولا على المرضى الذين حالت أمراضهم بينهم وبين الجهاد ، ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون ، وهم الفقراء القادرون على الحرب ، ولكنهم لا يجدون المال الذين ينفقونه في مطالب الجهاد ، ولا يجدون المال الذى ينفقونه في مطالب الجهاد ، ولا يجدون الرواحل التى يسافرون عليها إلى أرض المعركة ، ليس على هؤلاء جميعاً حرج ، أى : لائم أو ذنب بسبب عدم خروجهم مع النبي - ﷺ - إلى تبوك لقتال الكافرين . . .

وقوله : إذا انصحوها الله ورسوله ، : بيان لما يجب عليهم في حال قعودهم . قال الجمل : ومعنى النصح - هنا - أن يقيموا في البلد ، ويحترزوا عن

إنشاء الأراجيف ، وإثارة الفتن ، ويسعوا في إيصال الخير إلى أهل المجاهدين الذين خرجوا إلى الغزو ، ويقوموا بمصالح بيوتهم ، ويخلصوا الإيمان والعمل لله ؛ ويتابعوا الرسول - ﷺ - ، فجملة هذه الأمور تجرى مجرى النصيحة لله ورسوله ، (١) .

وقوله : « ما على المحسنين من سبيل ، استئناف مقرر لمضمون ما قبله . والمحسنون . جمع محسن ، وهو الذي يؤدي ما كلفه الله به على وجه حسن والسبيل : الطريق السهل الممهد الموصل إلى البغية . ، ومن ، زائدة لتأكيد النفي .

أى : ليس لأحد أى طريق يسلكها لمؤاخضة هؤلاء المحسنين ، بسبب تخلفهم عن الجهاد ، بعد أن نصحو الله ورسوله ، وبعد أن حالت الموانع الحقيقية بينهم وبين الخروج للجهاد .

قال الآلوسى : والجملة استئناف مقرر لمضمون ما سبق على أبلغ وجه ، وألطف سبك ، وهو من بليغ الكلام ، لأن معناه : لا سبيل لعائب عليهم . أى : لا يرميهم العائب ، ولا يجوز فى أرضهم ، فما أبعد العتاب عنهم ، وهو جار مجرى المثل .

ومحتمل أن يكون تعليلا لنفى الحرج عنهم و المحسنين ، على عمومهم . أى : ليس عليهم حرج ، لأنه ما على جنس المحسنين سبيل ، وهم من جماعتهم (٢) . وقال صاحب المنار : « والشرع الإلهى يجازى المحسن بأضعاف إحسانه ، ولا يؤخذ المسمى إلا بقدر إساءته . فإذا كان أولئك المعذورون فى القعود عن الجهاد محسنين فى سائر أعمالهم بالنصح المذكور . انقطعت طرق المؤاخضة دونهم والإحسان أعم من النصيحة المذكور فالجملة الكريمة تتضمن تعليلا

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٢ ص ٢٠٨ .

(٢) تفسير الآلوسى ج ١ ص ١٥٨ .

رفع الحرج عنهم مقروناً بالدليل ، فشكل ناصح لله ورسوله محسن ، ولا سبيل إلى موازنة المحسن وإيقاعه في الحرج ، وهذه المبالغة في أعلى مكانة من أساليب البلاغة (١) .

وقوله : « والله غفور رحيم ، أي ، والله تعالى - واسع المغفرة ، كثير الرحمة » يستر على عباده المخلصين ما يصدر عنهم من تقصير تقتضيه طبيعتهم على البشرية .

وقوله : « ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه ... » معطوف على ما قبله ، من عطف الخاص على العام . اعتناء بشأنهم ، وجعلهم كأنهم امتعزهم جنس آخر ، مع أنهم مندرجون مع الذين وصفهم الله قبل ذلك « لا يجدون ما ينفقون » .

أي : لا حرج ولا إثم على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون ، إذا ما تخلفوا عن الجهاد ، وكذلك لا حرج ولا إثم - أيضاً - على فقراء المؤمنين ، الذين إذا ما أتوك لتحملهم ، على الرواحل التي يركبونها لكي يخرجوا معك إلى هذا السفر الطويل ، قلت لهم ، يا محمد ، لا أجد ما أحملكم عليه .

وفي هذا التعبير ما فيه من تطيب قلوب هؤلاء السائلين فكانه - ﷺ - يقول لهم إن ما تطلبونه أنا أسأل عنه ، وأفتش عليه فلا أجد ، ولو وجدته لقدمته إليكم .

وقوله : « تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً أن لا يجدوا ما ينفقون » بيان للآثار التي ترتبت على عدم وجود ما يحملهم من رواحل : لكي يخرجوا مع الرسول ﷺ إلى تبوك .

أي : أن هؤلاء المؤمنين الفقراء ، عندما اعتذرت لهم بقولك : « لا أجد

ما أحملكم عليه ، انصرفوا من مجالسك ، وأعينهم تسيل بالدموع من شدة الحزن لأنهم لا يجيدون المال الذي ينفقونه في مطالب الجهاد، ولا الرواحل التي يركبونها في حال سفرهم إلى تبوك .

فالجملة المكرمة تعطي صورة صادقة مؤثرة للارغبة الصادقة في الجهاد ، وللألم الشديد للحرمان من نعمة أدائه :

وبمثل هذه الروح ارتفعت راية الإسلام ، وعزت كلمته ، وافتشت دعوته .

هذا ، ومن الأحكام والآداب التي نستطيع أن نأخذها من هاتين الآيتين ما يأتي :

١ - أن التكاليف الإسلامية تقوم على اليسر ورفع الحرج : ومن مظاهر ذلك : أن الجهاد . وهو ذروة سنام الإسلام . قد أعفى الله تعالى . عنه الضعفاء والمرضى والذين لا يجدون وسائله ومطلباته .

قال الإمام القرطبي (١) : قوله تعالى . ليس على الضعفاء ولا على المرضى . . . هذه الآية أصل في سقوط التكليف عن العاجز فكل من عجز عن شيء سقط عنه ، ولا فرق بين العجز من جهة القوة أو العجز من جهة المال . ونظير هذه الآية قوله . تعالى - : لا يكلف الله نفسا إلا وسعها (٢) ، وقوله : لا يكلف الله شيئا عسرا . ولا على الأعرج حرج ، ولا على المريض حرج ، (٣) .

٢ - أنه متى وجدت النية الصادقة في فعل الخير . حصل الثواب وإن لم يكن هناك عمل ، بدليل أن المؤمنين الذين لم يخرجوا للجهاد لعذر شرعي ، بشرهم النبي ﷺ بأنهم مشاركون لمن خرج في الأجر .

قال الإمام ابن كثير : في الصحيحين من حديث أنس أن رسول الله -

(١) تفسير القرطبي - بنصرف يسير ٨ ص ٢٢٦ .

(٢) سورة البقرة الآية ٢٨٦ . (٣) سورة الفتح الآية ١٦ .

ﷺ قال : « إن بالمدينة أقواماً ما قطعتم وادياً ، ولا سرتهم سيراً إلا حرم معكم ، قالوا : وهم بالمدينة » قال نعم حبسهم العذر .

وروى الإمام أحمد عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : لقد خلفتم بالمدينة رجلاً ، ما قطعتم وادياً ، ولا سلكتم طريقاً ، إلا شاركوكم في الأجر ، حبسهم المرض (١) .

٢ - أن الصحابة - رضى الله عنهم - ضربوا : أروع الأمثال في الحرص على الجهاد والاستشهاد وأن أعذارهم الشرعية لم تمنع بعضهم من المشاركة في القتال . . .

فهذا عبد الله ابن أم مكتوم وكان يخرج إلى غزوة أحد ويطلب أن يحمل اللواء . . . وهذا عمرو بن الجموح - وكان أعرج - يخرج في مقدمة الجيوش فيقول له الرسول - ﷺ - : « إن الله قد عذرك » فيقول : « والله لأحفرن بعرجي هذه الجنة » - أى لأثر كن آثار أقدامي فيها .

أى كان يؤتى به وهو يمشى بين الرجلين معتمداً عليهما من شدة ضعفه ، ومع ذلك يقف في صفوف المجاهدين :

وبهذه القلوب السليمة ، والعزائم القوية والنفوس النقية التى خالط الإيمان شغافها .. ارتفعت كلمة الحق ، وعزت كلمة الإسلام :

وبعد أن بين - سبحانه - أحكام أصحاب الأعذار المقبولة ، أتبع ذلك ببيان أحكام الأعذار المكاذبة ، والصفات القبيحة ، فقال تعالى .

إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى

لَّذِينَ يَسْتَعِذُّونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ
يَطْبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾ يَعْتَدِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا
رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَدِرُوا لَنَا نُوْمِنُ لَكُمْ قَدْ نَبَأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ
وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ
فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ
إِلَيْهِمْ لَتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجِسٌ وَمَؤْنُهُمْ
جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لَتَرْضُوا عَنْهُمْ
لَئِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٩٦﴾

فهذه الايات الكريمة بيان لما سيكون من أمر المنافقين الذين قعدوا في
المدينة بدون عذر ، بعد أن يرجع الرسول ﷺ إليهم والمؤمنون من قبوك
والمعنى : إذا كان الضعفاء والمرضى ومن في حكمهم ، لا لائم ولا عقوبة
عليهم بسبب تخلفهم عن الجهاد ، فان السبيل ، أى الإثم والعقوبة دعى الذين
يستأذنونك ، فى التخلف «وهم أغنياء» أى يملكون كل وسائل الجهاد من
مال وقوة وعدة...

وقوله : رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ ، استئناف تعليلى مسوق لمز يد مذمتهم .
أى : استأذنونك فى العقود مع غناهم وقدرتهم على القتال ، لأنهم لخلو
قلوبهم من الإيمان ، ولسقوط همهم وحبهم ، ، رَضُوا لأنفسهم أن يقبِعُوا
فى المدينة مع الخالف من النساء والصبيان والعجزة .
وقوله : «وطع الله على قلوبهم فهم لا يعلمون» بيان أسوء مصيرهم .

أى : وبسبب هذا الإصرار على النفاق، والتماذى فى الفسوق والعصيان - ختم الله - تعالى - على قلوبهم ، فصارت لا تعلم ما يترتب على ذلك من مصائب دينية ودنيوية وأخروية .

وقوله : « يعتذرون إليكم إذا رجعت إليهم ، ، ، ، إخبار عما سيقولونه المؤمنون عند لقائهم بهم .

أى : أن هؤلاء المنافقين المتخلفين عن الجهاد مع قدرتهم عليه، سيعتذرون إليكم - أيها المؤمنون - إذا رجعت إليهم من تبوك، بأن يقولوا لكم مثلاً إن قعودنا فى المدينة وعدم خروجنا معكم كانت له معمراته القوية . فلا تؤاخذونا . وهذه الجملة الكريمة من الأنبياء التى أنبأ الله بها نبيه - ﷺ - عن أحوال المنافقين وعما سيقولونه له وللمؤمنين بعد عودتهم إليهم ، وهذا يدل على أن هذه الايات نزلت فى أثناء العودة ، وقبل وصول الرسول وأصحابه إلى المدينة من تبوك .

وقوله : « قل لا تعتذروا لن يؤمن لكم قد نبأنا الله من أخباركم ، إبطال للمعاذيرهم : وتلقين من الله - تعالى - لرسوله بالرد الذى يخرس ألسنتهم .

أى : قل لهم - أيها الرسول الكريم - عندما يعتذرون إليكم إذا رجعت إليهم : قل لهم : دعواكم من هذه المعاذير الكاذبة ، ولا تنفوهوا بها أمامنا ، فإننا نؤمن بكم ، وإن نصدق أقوالكم ، فإن الله - تعالى - قد كشف لنا عن حقيقتكم ، ووضح لنا أحوالكم ، وبين لنا ما أنتم عليه من نفاق وفسوق وعصيان ، ، ، وما دام الأمر كذلك ، فوفروا على أنفسكم هذه المعاذير الكاذبة وقال - سبحانه - : « قد نبأنا الله من أخباركم ، ولم يقل قد نبأنى ، للاشعار بأن الله - تعالى - قد أمر رسوله - ﷺ - أن يبالغ المذهنين بأحوال هؤلاء المنافقين حتى يكونوا على بينة من أمرهم .

وقوله : « ويرى الله عملكم ورسوله ، تهديد لهم على نفاقهم وكذبهم .

أى : دعوا عنكم هذه الأعذار الباطلة ، فإن الله - تعالى - مطلع على أحوالكم ، وسيعلم سركم وجرركم علماً يترتب عليه الجزاء العادل لكم ، وسيلبغ رسواه - ﷺ - بأخباركم ، هذا فى الدنيا ، أما فى

الآخرة ، فأنتم « ستردون » يوم القيامة ، إلى عالم الغيب والشهادة ، الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء « فينبئكم بما كنتم تعملون » أي : فيخبركم بما كنتم تعملونه في الدنيا من أعمال قبيحة ، وسيجازيكم عليها بما تستحقونه من عقاب .

ثم أخبر - سبحانه - رسوله - ﷺ - بأن هؤلاء المنافقين ، سيؤكدون أعتادهم الكاذبة بالإيمان الفاجرة فقال : « سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم ... » أي : أنهم سيحلفون بالله لكم - أيها المؤمنون - إذا ما رجعت إليهم من تبوك وذلك لكي تعرضوا عنهم ، فلا تؤبخوهم على قعودهم ، ولا تعنفوهم على تخلفهم .

وقوله « فأعرضوا عنهم إنهم رجس » تعليل لوجوب الإعراض عنهم ، لا على سبيل الصفح والعفو ، بل على سبيل الإهمال والترك والاحتقار . أي : فأعرضوا - أيها المؤمنون - عن هؤلاء المنافقين المتخلفين ، لأنهم « رجس » .

أي : قدروا نجس لسوء نواياهم ، وخبث طواياهم : وقد جعلهم - سبحانه - نفس الرجس ، مبالغة في نجاسة أعمالهم ، وقبح بواطنهم .

وقوله : « وما أواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون » بيان لسوء مصيرهم في الآخرة .

أي : أنهم في الدنيا محل الاحتقار والازدراء لنجاسة بواطنهم ، أما في الآخرة فستقرهم وموطنهم جهنم بسبب ما اكتسبوه من أعمال قبيحة ، وما أجتروه من أفعال سيئة .

وقوله : « يحلفون لكم لتعرضوا عنهم » بدل مما قبله .

(١٨ - سورة التوبة)

ولم يذكر — سبحانه — المحلوف به لظهوره، أى: يحلفون بالله لترضوا عنهم، ولتصفحوا عن سيئاتهم...

وقوله: «فإن ترضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين»، بيان لحكم الله — تعالى — فيهم، حتى يكون المؤمنون على حذر منهم. أى: إن هؤلاء المنافقين المتخلفون عن الجهاد يحلفون بالله لكم بأنهم ما تخلفوا إلا لعذر. لى تصفحوا عنهم. أيها المؤمنون، على شيل الفرض فإن الله — تعالى — لا يصفح ولا يرضى عن القوم الذين فسقوا عن أمره، وخرجوا عن طاعته.

وقال الألوسى: والمراد من الآية السكرية، نهى المخاطبين عن الرضا عنهم، وعن الاغترار بمعاذيرهم الكاذبة على أبلغ وجه وآكده، فإن الرضا عن لا يرضى عنه الله. تعالى. مما لا يكاد يصدر عن المؤمنين، والآية نزلت على ما روى عن ابن عباس في جد بن قيس، ومعتب بن قشير، وأصحابهما من المنافقين، وكانوا ثمانين رجلاً، أمر النبى — ﷺ — المؤمنين لما رجعوا إلى المدينة، ألا يجالسوهم ولا يكلموهم فامثلوا، (١).

وقال. سبحانه. فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين، ولم يقل فإن الله لا يرضى عنهم، لتسجيل الفسق عليهم، وللإيدان بشمول هذا الحكم لكل من كان مثلهم لله فى الفسوق وفى الخروج عن طاعة الله. تعالى.

وجواب الشرط فى قوله: «فإن ترضوا عنهم»، محذوف، والتقدير: فإن ترضوا عنهم على سبيل الفرض، فإن رضاكم عنهم لن ينفعهم، لأن الله تعالى لا يرضى عن القوم الذين خرجوا عن طاعته.

وبذلك نرى أن هذه الآيات السكرية قد ذكرت جانبا آخر من الأحوال القبيحة للمنافقين. وردت على معاذيرهم الكاذبة. وإيمانهم الفاجرة بما يفضحهم ويخزيهم، وتوعدتهم بسوء العاقبة فى الدنيا والآخرة.

ثم بعد هذا الحديث الطويل عن النفاق والمنافقين، أخذت السورة السكرية

في الحديث عن طوائف أخرى منها الصالح ومنها غير الصالح ، وقد بدأت بالحديث عن الأعراب سكان البادية فقال . تعالى .

الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَنْ لَا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبًا عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سِوَا ذَلِكَ فَمِنْهُمْ قَوْمٌ لَاحِقُونَ ﴿٩٩﴾

قال صاحب المنار : قوله . سبحانه . : د الأعراب أشد كُفْرًا وَنِفَاقًا . بيان مستأنف لحال سكان البادية من المنافقين ، لأنه لما يسأل عنه بعدما تقدم في منافق الحضر من سكان المدينة وغيرها من القرى . والأعراب : اسم جنس لبدو العرب واحده أعرابي ، والأنثى أعرابية ، والجمع أعاريب . والعرب اسم جنس لهذا الجيل الذي ينطق بهذه اللغة ، بدوه وحضره واحده عربى . (١) .

والمراد بالأعراب هنا : جنسهم لا كل واحد منهم ، بدليل أن الله تعالى . قد ذم من يستحق الذم منهم ، ومدح من يستحق المدح منهم ، فالآية الكريمة من باب وصف الجنس بوصف بعض أفراده . وقد بدأ . سبحانه . بذكر المنافقين من الأعراب قبل المؤمنين منهم ، إلحاقاً لهم بمنافق المدينة الذين تحدثت السورة عنهم قبل ذلك مباشرة حديثاً . مستفيضاً ، وبهذا الترتيب الحكيم تكون السورة الكريمة قد واصلت الحديث عن منافق الحضر والبدو .

والمعنى : « الأعراب ، سكان البادية ، أشد كفراً ونفاقاً ، من الكفار والمنافقين الذين يسكنون الحضر والقرى .
وذلك ، لأن ظروف حياتهم البدوية ، وما يصاحبها من عزلة وكروفر في الصحراء ، وخشونة في الحياة ... كل ذلك جعلهم أقسى قلوباً ، وأجنى قولاً ، وأغلظ طبعاً ، وأبعد عن سماع ما يهدى نفوسهم إلى الخير من غيرهم . سكان المدن .

وقوله : « واجدر أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله ، معطوف على ما قبله لتعديد صفاتهم الذميمة .
قال القرطبي : قوله : « واجدر ، عطف على « أشد » ومعناه : « أخلق - وأحق - ، يقال : فلان جدير بكذا ، أى : خليك به . وأنت جدير أن تفعل كذا ، والجمع جدراء وجدرون . وأصله من جدر الحائط وهو رفعه بالبناء . فقوله : هو أجدر بكذا ، أى : أقرب إليه وأحق به (١) .

والمعنى : الأعراب أشد كفراً ونفاقاً من أهل الحضر الكفار والمنافقين ، وهم كذلك أحق وأخلق من أهل الحضر بأن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله ، بسبب ابتعادهم عن مجالس رسول الله ﷺ ، وعدم مشاهدتهم لما ينزل عليه . من شرائع وآداب وأحكام .

وقوله : « والله عليم حكيم ، أى : « عليم ، بأحوال عباده الظاهرة والباطنة لا يخفى عليه شئ . من صفاتهم وطباعهم ، « حكيم ، في صنعهم ، وفي حكمه عليهم ، وفيما يشرعه لهم من أحكام ، وفيما يجازيهم به من ثواب أو عقاب . هذا ، وقد ذكر المفسرون هنا أمثلة متعددة لجفاء الأعراب وجهلهم ، ومن ذلك قول الإمام ابن كثير :

قال الأعمش عن إبراهيم قال : جلس أعرابي إلى زيد بن صومان ، وهو يحدث أصحابه ، وكانت يده قد أصيبت يوم « نها » وند ، فقال الأعرابي : والله -

إن حدثك ليعجبني وإن يدك لتعزيني !! فقال زيد : وما يريك من يدى ؟
لأنها الشمال !! فقال الأعرابي : والله ما أدرى اليمين يقطعون أو الشمال !!
فقال زيد : صدق الله إذ يقول : « الأعراب أشد كفرا ونفاقا وأجدر أن
لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله . . . »

وروى الإمام أحمد عن ابن عباس عن رسول - ﷺ - قال : من
سكن البادية جفا ، ومن اتبع الصيد غفل ، ومن أتى السلطان افتتن .
وروى الإمام مسلم عن عائشة قالت : قدم ناس من الأعراب على
رسول الله - ﷺ - فقالوا : أتعلمون صبيانكم ؟ فقال - ﷺ -
نعم . قالوا : لسكننا والله ما نقبل !! فقال - ﷺ - « وما أملك إن
كان الله نزع منكم الرحمة ، (١) »

ثم بين - سبحانه - حال فريق آخر من منافقى الأعراب فقال :
« ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرما . »

أى : ومن الأعراب قوم آخرون يعبرون ما ينفقونه فى سبيل الله
غرامة وخسارة عليهم لأنهم لا ينفقون ما ينفقونه طمعا فى ثواب ، أو
خوفا من عقاب وإنما ينفقونه تقية ورياء ومدارة للمسلمين ، لا مساعدة
للفزاة والمجاهدين ، ولا حبا فى انتصار المؤمنين .

قال الجمل : وقوله : « من يتخذ ما ينفق مغرما » من مبتدأ ، وهى
موصولة أو موصوفة ، ومغرما . مفعول ثان ، لأن أتخذ هنا بمعنى صير ،
والمفعول الأول قوله : « ما ينفق » .

والمغرم : الخسران ، مشتق من الغرم وهو الهلاك لأنه سببه ، وقيل
أصله الملازمة ، ومنه الغريم للزومة من يطالبه (٢)
وقوله : « ويترصد بكم الدوائر » معطوف على ما قبله والترصد : الانتظار

(١) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٢٨٣ بتصرف وتلخيص .

(٢) حاشية الجمل على الجلالين ج ٢ ص ٢٦١ .

والترقب والدوائر : جمع دائرة . وهو ما يحيط بالإنسان من مصائب ونكبات ، كما تحيط الدائرة بالشيء الذى بداخلها .

أى : أنهم بجانب اعتبارهم ما ينفقونه غرامة وخسارة ، ينتظرون بكم - أيها المؤمنون - صروف الدهر وفوائبه التى تبدل حالكم من الخير إلى الشر ومن النصر إلى الهزيمة ، ومن الصحة إلى المرض والأسقام ، ومن الأمان والأطمئنان إلى القلق والاضطراب . .

وقوله : « عليهم دائرة السوء » جملة معترضة ، جىء بها للدعاء عليهم .
أى : عليهم لا عليكم - أيها المؤمنون - تدور دائرة السوء ، التى تبدل بها حالهم إلى الهلاك والفساد .

والسوء - بفتح السين - مصدر ساءه بسوءه سوءاً ، إذا فعل به ما يكره والسوء - بالضم - اسم منه . وقيل المفتوح بمعنى الذم ، والمضمون بمعنى العذاب والضرر .

وإضافة الدائرة إلى السوء من إضافة الموصوف إلى صفته للمبالغة ، كما فى قولهم : رجل صدق :

وفى هذا التعبير ما فيه من الذم لهؤلاء المنافقين ، لأنه - سبحانه - جعل السوء كأنه دائرة تطبق عليهم فلا تفلتهم ، وتدور بهم فلا تدع لهم مهرباً أو منجاة من عذابها وضررها
وقوله : والله سميع عليم تفيدل قصد به تهديدهم وتحذيرهم مما ارتكسوا فيه من نفاق وكفر وشقاق .

والله تعالى - سميع لكل ما يتفوهون به من أقوال ، عليم بكل ما يظهرونه وما يطنونه من أحوال ، وسيحاسبهم على ما صدر منهم حساباً عسيراً يوم القيامة : وينزل بهم العقاب الذى يناسب جرائمهم . . .

وبعد أن ذكر - سبحانه - حال هؤلاء الأعراب المنافقين ، أتبعه ببيان حال المؤمنين الصادقين منهم فقال : ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر .

أى : ومن الأعراب قوم آخرون من صفاتهم أنهم يؤمنون بالله إيماناً صادقاً ، ويؤمنون باليوم الآخر وما فيه من ثواب وعقاب .

وقوله : « ويتخذ ما ينفق قربات عند الله وصلوات الرسول ، مدح لهم على إخلاصهم وسخائهم وطاعتهم . . . »

والقربات : جمع قربة وهى ما يتقرب به الإنسان إلى خالقه من أعمال الخير والمراد بصلوات الرسول : دعواته للمتقربين إلى الله بالطاعة .

أى : ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر إيماناً حقاً ، ويعتبر كل ما ينفقه في سبيل الله وسيلة للتقرب إليه — سبحانه — وتعالى بالطاعة ، ووسيلة للحصول على دعوات الرسول له بالرحمة والمغفرة ، وبحسنات الدنيا والآخرة .

ولقد كان من عادة النبي ﷺ — أن يدعو للمتصدقين بالخير والبركة ، فقد ورد في الحديث الشريف أن رسول الله — ﷺ — دعا لآل أبي أو في عندما تقدموا إليه بصدقاتهم فقال : اللهم صلى على آل أبي أو في ، أى : أرحمهم وبارك لهم في أموالهم . .

وقوله : « إلا أنها قربة لهم ، شهادة لهم منه سبحانه — بصدق إيمانهم ، وخلص نياتهم ، وقبول صدقاتهم .

والضمير في قوله « إنها ، يعود على النفقة التى أنفقوها في سبيل الله . «وآلا ، أداة استفتاح جىء بها لتأكيد الخبر والاهتمام به . أى : ألا

إن هذه النفقات التى تقربوا بها إلى الله ، مقبولة عنده — سبحانه — قبولاً مؤكداً ، وسيجازيهم عليها بما يستحقون من أجر جزيل . . . »
وقوله « سيدخلهم الله في رحمته ، وعد لهم بإحاطة رحمته بهم . والسين للتحقيق والتأكيد .

أى : أن هؤلاء المؤمنين بالله واليوم الآخر ، والمتقربين إليه سبحانه بالطاعات ، سيغمرهم الله تعالى برحمته التى لا شقاء معها .

قال صاحب الكشاف : وقوله : « ألا إنها قربة لهم سيدخلهم الله في رحمته شهادة من الله للمتصدق بصحة ما أعقده من كون نفقته قربات وصلوات وتصديقاً لرجائه على طريق الاستئناف مع حرقى التنبيه والتحقيق المزدبتين

بشبات الأمر وتممكته . وكذلك قوله : سيدخلهم ، وما في السين من تحقيق الوعد . وما أدل هذا الكلام على رضا الله تعالى عن المتصدقين ، وأن الصدقة منه بمكان ، إذا خلصت النية من صاحبها^(١) .

وقوله : إن الله غفور رحيم ، تذييل مقرر لما قبله على سبيل التعليل : أى : إن الله تعالى - واسع المغفرة ، كثير الرحمة للمخلصين الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللطم .

وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة قد ذمت من يستحق الذم من الأعراب ومدحت من يستحق المدح منهم ، وبينت مصير كل فريق ليكون عبرة للمعتبرين وذكرى للمتذكرين .

وبعد هذا التقسيم للأعراب ، انتقلت السورة للحديث عن المؤمنين الصادقين الذين وقفوا إلى جانب الرسول - ﷺ ، وأطاعوه في السر والعلن ، فقال - تعالى :

وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ

وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ
وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ

الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٠﴾

فهذه الآية الكريمة قد مدحت ثلاث طوائف من المسلمين المعاصرين للعهد النبوي . الطائفة الأولى ، السابقون الأولون من المهاجرين ، وهم الذين تركوا ديارهم وأموالهم بمكة ، وهاجروا إلى الحبشة . ثم إلى المدينة من أجل إعلاء كلمة الله واستمروا في المدينة مع رسول الله - ﷺ - إلى أن سم الفتح ودخل الناس في دين الله أفواجا .

وقيل المراد بهم : الذين صلوا إلى القبلتين، وقيل الذين شهدوا غزوة بدر .
والطائفة الثانية : السابقون الأولون من الأنصار، وهم الذين بايعوا النبي ﷺ قبل أن يهاجر إليهم إلى المدينة ؟ بيعة العقبة الأولى والثانية .
وكانت بيعة العقبة الأولى في السنة الحادية عشرة من البعثة، وكان عدد المشتركين فيها سبعة أفراد .

أنا بيعة العقبة الثانية فكانت في السنة الثانية عشرة من البعثة، وكان عدد المشتركين فيها سبعين رجلاً وامرأتين .

ثم يلي هؤلاء أولئك المزمعون من أهل المدينة الذين دخلوا في الإسلام على يد مصعب بن عمير ، قبل وصول الرسول ﷺ إليها .
ثم يلي هؤلاء جميعاً أولئك الذين آمنوا بالنبي ﷺ بعد مقدمه إلى المدينة :

والطائفة الثالثة : الذين أتبعوهم بإحسان ، أي : الذين اتبعوا السابقين في الإسلام من المهاجرين والأنصار ، أتباعاً حسناً في أقوالهم وأعمالهم وجهادهم ونصرتهم لدعوة الحق .

قال الألوسي ما ملخصه : وكثير من الناس ذهب إلى أن المراد بالسابقين الأولين ، جميع المهاجرين والأنصار . ومعنى كونهم سابقين : أنهم أولون بالنسبة إلى سائر المسلمين .

روى عن حميد بن زياد قال : قلت يوماً لمحمد بن كعب القرطبي ، ألا تخبرني عن الصحابة فيما كان بينهم من الفتن ؟ فقال لي : إن الله - تعالى - قد غفر لجميعهم ، وأوجب لهم الجنة في كتابه ، محسنهم ومسيئهم . فقلت له : وفي أي موضع أوجب لهم الجنة ، فقال : سبحانه الله !! ألم تقرأ قوله ، تعالى - :
« والسابقون الأولون ... الآية » ، فقد أوجب سبحانه لجميع الصحابة الجنة وشرط على تابعيهم أن يقتدوا بهم في أعمالهم الحسنة وألا يقولوا فيهم إلا حسناً لا سوءاً ... (١) .

وقوله: «رضى الله عنهم ورضوا عنه» بيان لسمو منزلاتهم، وارتفاع منزلاتهم .
 أى : رضى الله عنهم فى إيمانهم وإخلاصهم ، فتقبل أعمالهم ، ورفع درجاتهم وتجاوز عن ذلالتهم ، ورضوا عنه ، بما أسبغهم عليه من نعم جلييلة ، وبما نالوه منه . سبحانه . من هداية وثواب .

ثم ختم . سبحانه . الآية الكريمة ببيان ما هيأ لهم فى الآخرة من إكرام فقال : « وأعد لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً . ذلك الفوز العظيم . »

أى : أنه . سبحانه . بجانب رضاه عنهم ورضاهم عنه فى الدنيا ، فقد أعد لهم - سبحانه - فى الآخرة جنات تجري من تحت أشجارها الأنهار خالدين فيها - خلوداً أبدياً وذلك الرضا والخلود فى الجنات هو الفوز العظيم الذى لا يقاربه فوز ، ولا تدافيه سعادة .

قال الإمام ابن كثير : أخبر الله . تعالى . فى هذه الآية ، أنه قد رضى عن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان . فهاويل من أبغضهم ، أو سبهم ، أو أبغض أو سب بعضهم ، ولا سيما سيد الصحابة بعد الرسول ، وخيرهم وأفضلهم ، أعنى الصديق الأكبر والخليفة الأعظم أبابكر بن أبى قحافة ؛ فإن الطائفة المخدولة من الرافضة يعادون أفضل الصحابة ، ويبغضونهم ويسبونهم ؛ عياذا بالله من ذلك ، وهذا يدل على أن عقولهم معكوسة وقلوبهم منكوسة ، فأين هؤلاء . من الإيمان بالقرآن إذ يسبون من رضى الله عنهم ؟

وأما أهل السنة فإنهم يترضون عن رضى الله عنه ، ويسبون من سبه الله ورسوله ، ويوالون من يوالى الله ، ويعادون من يعادى الله ، وهم متبعون لا مبتدعون ، وهؤلاء هم حزب الله المفلحون ، وعباده المؤمنون (١) .
 وبهذا نرى أن هذه الآية الكريمة قدمت على السابقين الأولين من المهاجرين .

والانصار ومن تبعهم بإحسان ، وذلك لقوة إيمانهم ، وصفاء نفوسهم ، وإبشارهم ما عند الله على هذه الدنيا وما فيها ...

ثم تحدثت السورة بعد ذلك عن اصناف أخرى من الناس ، منهم قوم - أجادوا النفاق ، ومرتوا عليه ، ولجوا فيه . ومنهم قوم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً ، ومنهم قوم موقوف أمرهم إلى أن يظمر الله حكمه فيهم فقال تعالى :

وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنْفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يَرُدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَىٰ اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّا اللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَابُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فُبَيِّنُكُمْ لِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ وَآخَرُونَ مَرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾

قال القرطبي : ومعنى : «مردوا على النفاق» أقاموا عليه ولم يتوبوا منه ،

أو لجوا فيه وأبوا عنه . أصل الكلمة من اللين والملاسة والتجرد ، فكانهم

تجردوا للنفاق ، ومنه رملة مرداء أى لا نبت فيها ، وغصن أمرد أى : لا ورق له ... ويقال : مرد يمرد مروده ، (١) .

والمعنى : أذكروا أيها المؤمنون أنه يسكن من حول مدينةكم قوم من الأعراب منافقون ، فاحترسوا منهم ، واحترسوا - أيضاً - من قوم آخرين يسكنون معكم داخل المدينة ، مردوا على النفاق ، أى : مرفوا عليه ، وأجادوا فنونه ، حتى بلغوا فيه الغاية .

قال الآلوسى ما ملخصه : والمراد بالموصول . فى قوله « ومن حولكم » . قبائل جهينة ، ومزينة وأشجع ، وأسلم ... وكانت منازلهم حول المدينة . وإلى هذا ذهب جماعة من المفسرين .

واستشكل ذلك بأن النبى - ﷺ - مدح بعض هذه القبائل ودعا لبعضها ، فقد أخرج الشيخان وغيرهما عن أبى هريرة أنه قال : قریش ، والأنصار ، وجهينة ، ومزينة ، وأشجع وأسلم ، وغفار ، موالى الله . تعالى . ورسوله . لا والى لهم غيره .

وأجيب ذلك باعتبار الأغلب منهم ، (٢) .

وقوله : « لا تعلمهم نحن نعلمهم » . بيان لقردهم فى النفاق وتمهرهم فيه . أى : أنت . أيها الرسول الكريم . لا تعرف هؤلاء المنافقين . مع كمال فطنتك ، وصدق فراستك لأنك تعامل الناس بظواهرهم ، وهم قد أجادوا النفاق وحذقوه ، واجتهدوا فى الظهور بمظهر المؤمنين ، أما نحن فإننا نعلمهم لأننا لا يخفى علينا شئ من ظواهرهم أو بواطنهم ...

قال الإمام ابن كثير : وقوله . تعالى « لا تعلمهم نحن نعلمهم » ، لا ينافى قوله تعالى « ولو نشاء لأريناكمهم » ، فلعرفتهم بسيماهم ، ولتعرفنهم فى لحن القول ... لأن هذا من باب التوسم فيهم بصفات يعرفون بها لأنه يعرف جميع من عنده من أهل النفاق والريب على التعيين ، وقد كان - ﷺ - . يعلم أن فى بعض من يخالطه من أهل المدينة نفاقا ، وإن كان يراه صباحا ومساء .

(١) تفسير القرطبي بتصرف ، وتلخيص > ٨ ص ٢٤٠ .

(٢) تفسير الآلوسى > ١١ ص ١٠ .

وشاهد هذا بالصحة ما رواه الإمام أحمد عن جبير بن مطعم قال: قلت: يا رسول الله، أنهم يزعمون أنه ليس لنا أجر بمكة، فقال: لئلا تبتكم أجوركم ولو كنتم في جحر ثعلب، وأصغى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم — برأسه فقال: «إن في أصحابي منافقين»، ومعناه أنه قد يوح بعض المنافقين والمرجفين بما لا صحة له من الكلام، ومن مثلهم صدر هذا الكلام الذي سمعه جبير بن مطعم ثم قال: وقد تقدم في تفسير قوله: «تعالى» وهو ما لم ينالوا، أنه — ﷺ أعلم حذيفة بأعيان أربعة عشر أو خمسة عشر منافقاً. وهذا تخصيص لا يقتضي أنه أطلع على أسماهم وأعيانهم كلهم.

وروى الحافظ بن عساكر عن أبي الدرداء، أن رجلاً يقال له حرمله أتى النبي ﷺ. فقال: الإيمان ها هنا وأشار بيده إلى لسانه، والنفاق ها هنا وأشار بيده إلى قلبه فقال رسول الله ﷺ: «اللهم أجعل له لساناً ذا كراً، وقلباً شاكراً، وأرزقني حياً، وحب من يحبني، وصير أمره إلى خير». فقال الرجل يا رسول الله: إنه كان لي أصحاب من المنافقين وكنت رأساً فيهم، أفلا آتيك بهم؟ فقال ﷺ: «ومن أنا أنا استخفرتنا له، ومن أصر فالله أولى به، ولا تخرفن على أحد سترأ، (١)»

وقال الألويسي. واستدل بالآية على أنه لا ينبغي الإقدام على دعوى معرفة الأمور الخفية من أعمال القلب ونحوها، فقد أخرج عبد الرزاق وابن المنذر وغيرهما عن قتادة: أنه قال: ما بال أقوام يتكلفون عن الناس يقولون: فلان في الجنة وفلان في النار، فإذا سألت أحدهم عن نفسه قال: لا أدري. لعمرى لانت بنفسك أعلم منك بأعمال الناس، ولقد تكلفت شيئاً ما تسكفني بنى.

فقد قال نوح. عليه السلام: «وما علمي بما كانوا يعملون»، وقال شعيب عليه السلام: «وما أنا عليكم بحفيظ»، وقال الله تعالى: لنبيه محمد ﷺ لا تعلمهم نحن نعلمهم.

وهذه الآيات ونحوها أقوى دليل في الرد على من يزعم الكشف والاطلاع على المغيبات بمجرد صفاء القلب، وتجرد النفس عن الشواغل.

ثم قال: والجملة السكرية لا تعلمهم نحن نعلمهم، تقرير لما سبق من مهارتهم

فى النفاق ، أى : لا يقف على سرائرهم المذكورة فيهم ، إلا أن لا تخفى عليه خافية ، لما هم عليه من شدة الاهتمام بإبطان الكفر وإظهار الإخلاص (١) ، وقوله : سنعذبهم مرةين ، ثم يردون إلى عذاب عظيم ، وعيد لهم بسوء المصير فى الدنيا والآخرة .

أى : هؤلاء المنافقون الذين مردوا على النفاق ، سنعذبهم فى الدنيا مرتين ، مرة عن طريق فضحيتهم وهتك أستارهم وجعلهم يعيشون فى قلق وهم دائم والأخرى عن طريق ضرب الملائكة لوجوههم وأدبارهم عند قبض أرواحهم وما يقع ذلك من عذابهم فى قبورهم إلى أن تقوم الساعة ، فيجدون العذاب الأكبر الذى عبر عنه - سبحانه - بقوله : ثم يردون إلى عذاب عظيم ،

أى : ثم يعودون ويرجعون إلى خالقهم - سبحانه - يوم القيامة فيعذبهم عذاباً عظيماً بسبب إصرارهم على النفاق ، ورسوخهم فى المكر والخداع . قال أبو السعود : ولعل تكرير عذابهم ، لما فيهم من الكفر المشفوع بالنفاق ، أو النفاق المؤكد بالتمرد فيه . ويجوز أن يكون المراد بالمرتين مجرد الكثير ، كما فى قوله تعالى . « فارجع البصر هل ترى من فطور (٢) ، أى : كرة بعد أخرى (٣) » .

ثم بين - سبحانه - حال طائفة أخرى من المسلمين فقال : « وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً ... »

قال الألوسى : قوله : « وآخرون اعترفوا بذنوبهم ... » بيان لحال طائفة من المسلمين ضعيفة الهمم فى أمر الدين ، ولم يكونوا منافقين على الصحيح . وقيل هم طائفة من المنافقين إلا أنهم وفقوا للتوبة فتاب الله عليهم ، (٤) .

والمعنى : ويوجد معكم أيها المؤمنون قوم آخرون من صفاتهم أنهم اعترفوا بذنوبهم ، أى أقرروا بها ولم ينكروها .

وقوله : « خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً أى خلطوا أعمالهم الصالح وهو جهادهم فى سبيل الله قبل غزوة تبوك ، بعمل سيئ وهو تخلفهم عن الخروج إلى هذه الغزوة . »

(١) ، تفسير الألوسى ١١ ص ١١ . (٢) سورة الملك الآية ٣

(٣) ، تفسير أبى السعود ٢ ص ٩٣ ، (٤) ، تفسير الألوسى ١١ ص ١١ .

وقوله : د عسى الله أن يتوب عليهم ، أن عسى الله تعالى - أن يقبل توبتهم ، ويغسل ، حوبتهم ، ويتجاوز عن خطاياهم .
وعبر سبحانه - بعسى للإشعار بأن ما يفعله تعالى ليس إلا على سبيل التفضل منه ، حتى لا يتكل الشخص ، بل يكون على خوف وحذر .
وقد قالوا إن كلمة عسى متى صدرت عن الله تعالى - فهي متحققة الوقوع ، لأنها صادرة من كريم والله تعالى : أكرم من أن يطمع أحد في شيء لا يعطيه إياه .
وقوله : إن الله غفور رحيم ، تعليل لرجاء قبول توبتهم ، إذ معناه ، إن الله تعالى كثير المغفرة التائبين ، واسع الرحمة للمحسنين .

هذا ، وقد ذكر المفسرون هنا روايات متعددة في سبب نزول هذه الآية ولعل أرجح هذه الرويات ما رواه ابن جرير من أن هذه الآية نزلت في أبي لبابة وأصحابه ، وكانوا تخلفوا عن النبي - ﷺ - في غزوة تبوك . فلما قفل رسول الله - ﷺ - من غزوته ، وكان قريباً من المدينة ندموا على تخلفهم عن رسول الله وقالوا : نكون في الظلال والأطعمة والنساء ونرى الله في الجهاد والأرواء . والله لنوثقن أنفسنا بالسوارى : ثم لا نطلقها حتى يكون نبي الله هو الذي يطلقنا . .

وأوثقوا أنفسهم . وبقي ثلاثة لم يوثقوا أنفسهم بالسوارى فقدم رسول الله ﷺ من غزوته فمر بالمسجد فأبصرهم فسأل عنهم ، فقبل له : إنه أبو لبابة وأصحابه تخلفوا عنك يا نبي الله ، فصنعوا بأنفسهم ما ترى ، وعاهدوا الله ألا يطلقوا أنفسهم حتى تكون أنت الذي تطلقهم .

فقال ﷺ : لا أطلقهم حتى أمر بإطلاقهم ، ولا أعذرهم حتى يعذرهم الله ، قد رغبوا بأنفسهم عن غزوة المسلمين ، فأزل الله تعالى : وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً . . . الآية . فأطلقهم رسول الله ﷺ وعذرهم (١) .

(١) تفسير ابن جرير ج ١٤ ص ١٠٠ طبعة دار المعارف .

ثم أمر الله تعالى - نبيه ﷺ أن يأخذ الصدقات من هؤلاء الذين اعترفوا بذنوبهم ومن غيرهم، فقال خذ أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها. أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : لما أطلق رسول الله ﷺ أبا لبابه وأصحابه جاءوا بأموالهم إلى رسول الله ﷺ فقالوا له يا رسول الله هذه أموالنا فتصدق بها عنا ، واستغفر لنا : فقال : ما أمرت أن آخذ من أموالكم شيئا .

فأنزل الله تعالى (خذ من أموالهم صدقة . . . الآية) (١) .

وقال الإمام ابن كثير : أمر الله تعالى - رسوله أن يأخذ من أموالهم صدقة يطهرهم ويزكيهم بها . وهذا عام وإن أعاد بعضهم الضمير في أموالهم إلى الذين اعترفوا بذنوبهم .

ولهذا اعتقد بعض مانعي الزكاة من أحياء العرب أن دفع الزكاة إلى الإمام لا يكرن ، وإنما كان هذا خاصا بالرسول - ﷺ - ؛ ولهذا احتجوا بقوله : - تعالى - : خذ من أموالهم صدقة . . . الآية ، .

وقد رد عليهم هذا التأويل والفهم الفاسد أبو بكر الصديق وسائر الصحابة ، وقتلوه حتى أدوا الزكاة إلى الخليفة كما كانوا يؤدونها إلى رسول الله - ﷺ - حتى قال الصديق : والله لو منعوني عناقا كانوا يؤدونه لرسول الله - ﷺ - لقاتلتهم على منعه ، (٢) .

والمعنى : خذ - أيها الرسول الكريم - من أموال هؤلاء المعترفين بذنوبهم ، ومن غيرهم من أصحابك صدقة ، معينة ، كالزكاة المفروضة ، أو غير معينة كصدقة التطوع .

وقوله : « تطهيرهم وتزكيهم بها » ، بيان للفوائد المترتبة على هذه الصدقة

(١) تفسير ابن جرير ج ١٤ ص ١٠٢

(٢) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٣٨٦

أى : من فوائد هذه الصدقة أنها تطهر النفوس من رذائل الشح والبخل والطمع... وتزكى القلوب من الأخلاق الذميمة ، وتنمى الأموال والحسنات قال بعضهم : قوله : « تطهرهم » ، قرئ مجزوماً على أنه جواب الأمر . وقرئ مرفوعاً على أنه حال من ضمير المخاطب فى قوله : « خذ » ، أو صفة لقوله « صدقة » ، والعائد على الأول محذوف ثقة بما بعده أى : تطهرهم بها . . . وقوله : « وتزكهم بها » ، لم يقرأ إلا بإثبات الياء ، على أنه خبر لمبتدأ محذوف ، والجملة حال من الضمير فى الأمر أو فى جوابه . أى : وأنت تزكهم بها .

هذا على قراءة الجزم فى « تطهرهم » ، وأما على قراءة الرفع فيكون قوله « وتزكهم بها » معطوف على قوله « تطهرهم » ، حالاً أو صفة (١) . وقوله : وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم ، أى : وادع لهم بالرحمة والمغفرة ، وقبول القوبة ، فإن دعائك لهم تسكن معه نفوسهم ، وتطمئن به قلوبهم ، ويجعلهم فى ثقة من أن الله - تعالى - قد قبل توبتهم ، فأنت رسولهم الأمين ، ونبيه الكريم .

فالمراد بالصلاة هنا : الدعاء لهم بالرحمة والمغفرة .

قال بعضهم : « وظاهر » ، قوله : « وصل عليهم » ، أنه يجب على الإمام أو نائبه إذا أخذ الزكاة أن يدعو للمتصدق . وبهذا أخذ داود وأهل الظاهر .

وأما سائر الفقهاء فقد حملوا الأمر هنا على الذنب والاستحباب ، لأن الرسول - صلى الله عليه وسلم - قال لمعاذ « أعلمهم أن عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم » ، ولم يأمره بالدعاء . . .

أما صيغة الدعاء فلم يرد فيها تعيين إلا ما رواه الستة - غير الترمذى - من

(١) تفسير القاسمى - بتصرف وتلخيص - ج ٨ ص ٣٢٥٢ .

(١٩ - سورة التوبة)

قواه - صلى الله عليه وسلم - اللهم صل على آل أبي أوفى ، - عندما أخذ منهم الزكاة - .

ومن هنا قال الحنابلة وداود وأهل الظاهر ، لا مانع من أن يقول آخذ الزكاة : اللهم صل على آل فلان .

وقال باقى الأئمة لا يجوز أن يقال : اللهم صل على آل فلان، وإن ورد فى الحديث، لأن الصلاة صارت مخصوصة فى لسان السلف بالأنبياء - صلوات الله عليهم - ، كما أن قولنا : - عز وجل - صار مخصوصا بالله - تعالى - . قالوا : وإنما أحدث الصلاة على غير الأنبياء مبتدع والرافضة فى بعض الأئمة ، والنسبة بأهل البدع منهى عنه .

ولا خلاف فى أنه يجوز أن يجعل غير الأنبياء تبعاً لهم فىقال : اللهم صل على محمد وعلى آله وأصحابه وأزواجه وذريته ... لأن السلف استعملوا ذلك ، وأمرنا به فى التشهد ، ولأن الصلاة على التابع تعظيم للمتبوع ... (١) . وقوله : « والله سميع عليم ، أى : سميع لا عترافهم بذنوبهم ، وسميع لدعائكم سماع قبول وإجابة ، وعليم بندمهم وتوبتهم ، وبكل شىء فى هذا الكون ، وسيجازى كل إنسان بما يستحقه من ثواب أو عقاب .

ثم حرضهم - سبحانه - على التوبة النصوح ، وحثهم على بذل الصدقات فقال : « ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده يأخذ الصدقات ... ، أى : ألم يعلم هؤلاء التائبون من ذنوبهم ، أن الله - تعالى - وحده ، هو الذى يقبل التوبة الصادقة من عباده المخلصين ، وأنه - سبحانه - هو الذى يأخذ الصدقات . .

أى : يتقبلها من أصحابها قبول من يأخذ شيئاً ليؤدى بدله ؛ فالتعبير بالآخذ للترغيب فى بذل الصدقات ، ودفعها للفقراء . والاستغناءم للتقرير والتحضيض على تجديد التوبة وبذل الصدقة .

وقوله : « وأن الله هو التواب الرحيم » تذييل قصد به تقرير ما قبله سوفاً كيده .

أى : وأن الله وحده هو الذى يقبل توبة عباده المرة بعد الأخرى ، وأنه هو الواسع الرحمة بهم ، الكثير المغفرة لهم :

قال ابن كثير : قوله : « ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات .. » هذا تهيج إلى التوبة والصدقة اللتين كل منهما يحط الذنوب ويمحقها ، وأخر — تعالى — أن كل من تاب إليه تاب عليه ، ومن تصدق بصدقة من كسب حلال فإن الله يتقبلها بيمينه ، فيريها لصاحبها حتى تصير الثمرة مثل أحد ، كما جاء بذلك الحديث عن رسول الله — ﷺ — .
فعن أبي هريرة أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال : « إن الله يقبل الصدقة ويأخذها بيمينه فيريها لأحدكم كما يري أحدكم مهره ، حتى إن اللقمة لتكون مثل أحد » ، وتصديق ذلك في كتاب الله قوله : « ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات » .

وقوله : « يمحى الله الربا ويرى الصدقات » .
وعن عبد الله بن مسعود قال : إن الصدقة تقع في يد الله — تعالى — قبل أن تقع في يد السائل ، ثم قرأ هذه الآية . « ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات ... » (١)

ثم أمر — سبحانه — بالتزود من العمل الصالح ، وحذر من الوقوع في العمل السيئ . فقال — تعالى — : « وقل أعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون » .
أى : وقل — أيها الرسول الكريم — لهؤلاء التائبين وغيرهم ، قل لهم : أعملوا ما تشاءون من الأعمال ، فإن الله مطلع عليها ، وسيطلع رسوله والمؤمنون عليها كذلك .

وخص — سبحانه — رسوله والمؤمنين بالذكر ، لأنهم هم الذين يهتم بالمخاطبون باطلاعهم .

قال الآلوسى ما ملخصه : وقوله : « فسيرى الله عملكم... » تعليل لما قبله ، أو تأكيد لما يستفاد منه من الترغيب والترهيب : « والسين للتأكيد... » والمراد من رؤية العمل - عند جمع - الإطلاع عليه ، وعلمه علما جليا . ونسبة ذلك للرسول - ﷺ - والمؤمنين ، باعتبار أن الله - تعالى - لا يخفى ذلك عنهم ، بل يعلمهم عليه... (١) .

وقوله : « وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون » بيان لما سيكون عليه حالهم في الآخرة .

أى : « وسترجعون بعد موتكم إلى الله - تعالى - الذى لا يخفى عليه شيء » ، فينبئكم بما كنتم تعملونه في الدنيا من خير أو شر ، وسيجازيكم بما تستحقونه من ثواب أو عقاب .

ثم بين - سبحانه - حال قسم آخر من أقسام المتخلفين عن غزوة تبوك ، فقال - تعالى - : « وآخرون مرجون لأمر الله ، إما يعذبهم وإما يتوب عليهم... » .

قال الجمل : قوله : « وآخرون مرجون... » ، قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عمر وأبو بكر عن عاصم « مرجأون » همزة مضمومة بعدها واو ساكنة . وقرأ الباقر « مرجون » دون تلك الهمزة... وهما لغتان ، يقال أرجأته وأرجتيه... (٢) .

وهذه الآية الكريمة معطوفة على قوله - تعالى - قبل ذلك : « وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا... » .

والمعنى : « ومن المتخلفين عن الخروج معك إلى تبوك - يا محمد - قوم آخرون موقوف أمرهم إلى أن يحكم الله فيهم بحكمه العادل ، فهو - سبحانه - إما يعذبهم ، بأن يمتهم بلا توبة وإما يتوب عليهم ، أى : يقبل توبتهم » .

(١) تفسير الآلوسى ج ١١ ص ١٦ .

(٢) حاشية الجمل على الجلايين ج ٢ ص ٣١٦ .

وهذا التردد الذي يدل عليه لفظ «إما» ، إنما هو بالنسبة للناس ، وإلا .
فأفاته - تعالى - عليم بما هو فاعله بهم .

والحكمة من إيهام أمرهم ، إثارة الهم والخوف في قلوبهم لتصح توبتهم ؛
لأن التوبة عندما تجيء بعد ندم شديد ، وتأديب نفسي ... تكون مرجوة
القبول منه - سبحانه - .

وقوله «والله عليم» أي : والله - تعالى - عليم بأحوال خلقه ، وبما
يصلحهم في أمورهم ، حكيم فيما يشرعه لهم من أحكام ...

قال الآلوسی : والمراد بهؤلاء ، المرجون لأمر الله ... ، كما جاء في
الصحيحين : هلال بن أمية ، وكعب بن مالك ، ومرارة بن الربيع ، كانوا قد

تخلفوا عن رسول - ﷺ - في غزوة تبوك ، وهموا باللاحاق به
فلم يتيسر لهم ذلك - ففعدوا في المدينة كسلا وميلا إلى الدعة - ولم يكن

تخلفهم عن نفاق ، فلما قدم النبي - ﷺ - وكان ما كان من أمر
المتخلفين - قالوا : لا عذر لنا إلا الخطيئة ، ولم يعتذروا كما اعتذر غيرهم ،

فأمر رسول الله - ﷺ - باجتناهم ... إلى أن نزل قوله - تعالى -
بعد ذلك : «لقد تاب الله على النبي والمهاجرين ...» وعلى الثلاثة الذين

خلفوا ... ، فأمر - صلى الله عليه وسلم - بمخالطتهم ، وكانت مدة وقفهم
خمسین ليلة بقدر مدة التخلف ، إذ كانت مدة غيبته - ﷺ - عن

المدينة خمسین ليلة ، فلما تمتعوا بالراحة في تلك المدة مع تعب إخوانهم في
السفر ، عوقبوا بهجرهم ووقفهم تلك المدة ... (١) :

وبذلك تكون هذه الآيات الكريمة قد ذكرت ثلاث طوائف من
المتخلفين عن غزوة تبوك

أما الطائفة الأولى فهي التي مردت على النفاق ، وقد عبر عنها - سبحانه -
بقوله : «ومن حولكم من الأعراب منافقون ، ومن أهل المدينة مردوا
على النفاق ...» .

وأما الطائفة الثانية فهي التي سارعت إلى الاعتذار والاعتراف بالذنب ،
(١) تفسير الآلوسی - بتصرف - ج ١١ ص ١٧ .

فقبل الله قلوبهم، وقد عبر عنها - سبحانه - بقوله : « وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا . . . » .

وأما الطائفة الثالثة فهي التي لم تجد عذرا تعتذر به ، فأوقف الله أمرهم إلى أن يحكم بقبول قلوبهم بعد خمسين ليلة ، وقد عبر عنها - سبحانه - بقوله : « وآخرون مرجون لأمر الله ، إما يعذبهم وإما يتوب عليهم . . . » .

ثم ختمت السورة الكريمة حديثها الطويل المتنوع عن النفاق والمنافقين ، بالحديث عن مسجد الضرار الذي بناه المنافقون ليكون مكانا للإضرار بالإسلام والمسلمين ، فقال - تعالى - .

وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا

مَسْجِدَ اضْرَارٍ أَوْ كُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِصْرًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلِيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ

إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدَ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ

مِنْ أَوَّلٍ يَوْمَ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا

وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أُسِّسَ بُنْيَنُهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنْ

اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أُسِّسَ بُنْيَنُهُ عَلَى شَفَا جُرْفٍ هَارٍ فَانْهَارَ

بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ

بُنْيَنُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيْبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ

حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾ قال الإمام ابن كثير : سبب نزول هذه الآيات الكريمت ، أنه كان

بالمدينة قبل مقدم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إليها ، رجل من الخزرج يقال له أبو عامر الراهب ، وكان قد تنصر في الجاهلية ، وقرأ علم أهل

الكتاب ، وكان فيه عبادة في الجاهلية ، وله شرف في الخزر ج كبير ، فلما قدم رسول الله ﷺ — مهاجرا إلى المدينة ، واجتمع المسلمون عليه وصار للإسلام كلمة عالية ، وأظهرهم الله يوم بدر ، شرق اللعين أبو عامر بريقة وبارز العداوة ، وظاهر بها ، وخرج فارا إلى كفار مكة ليمانهم على حرب المسلمين فاجتمعوا بمن وافقهم من أحياء العرب ، وقدموا عامداً ، فكان من أمر المسلمين ما كان ، وامتحنهم الله - تعالى - وكانت العاقبة للمتقين .

وكان هذا الفاسق قد حفر حفائر فيما بين الصفين ، فوقع في إحداهن رسول الله ﷺ — وأصيب في ذلك اليوم ، فجرح وجهه وكسرت ربايته اليمنى والسفلى وشج رأسه . وتقدم أبو عامر في أول المبارزة إلى قومه من الأنصار ، فخطبهم ، واستمالهم إلى نصره وموافقة : فلما عرفوا كلامه قالوا : لا أنعم الله لك عينا يا فاسق يا عدو الله ، ونالوا منه وسبوه . . .

وكان رسول الله ﷺ — قد دعاه إلى الله قبل فراره - إلى مكة - وقرأ عليه القرآن ، فأبى أن يسلم وتمرد . فدعا عليه رسول الله ﷺ — أن يموت بعيداً طريداً فنالته هذه الدعوة .

وذلك أنه لما فرغ الناس من دأبه ، ورأى أمر الرسول - صلى الله عليه وسلم - في ارتفاع وظهور ، ذهب إلى هرقل ملك الروم يستنصره على النبي - صلى الله عليه وسلم - ، فوعده ومناه ، وأقام عنده ، وكتب إلى جماعة من قومه من الأنصار من أهل النفاق والريب بعدهم ويمنيهم ، أنه سيقدم بجيش ليقاتل به النبي - صلى الله عليه وسلم - ويغلبه ، ويرده عما هو فيه . وأمرهم أن يتخذوا له معقلا يقدم عليهم فيه من يقدم من عنده لاداء كتبه ، ويكون مرصدا له إذا قدم عليه بعد ذلك .

فشرعوا في بناء مسجد مجاور لمسجد قباء ، فبنوه وأحكموه ، وفرغوا منه قبل خروج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى قبوك ، وجاءوا فسألوه أن يأتي إليهم فيصلي في مسجدهم ، ليحتجوا بصلاته فيه على تقريره وإثباته وذكروا

أنهم إنما بنوه للضعفاء منهم ، وأهل العلة في الليلة الشاتية ١١ فعصمه الله من الصلاة فيه فقال : « إنا على سفر وإسكننا إذا رجعنا - إن شاء الله . أتيناكم فصلينا لكم فيه ،

فلما قفل راجعاً إلى المدينة من قبوك ، ولم يبق بينه وبينها إلا يوم أو بعض يوم ، نزل عليه جبريل بنخبه مسجد الضرار وما أعتمده بانوه من الكفر ، والتفريق بين جماعة المؤمنين في مسجدهم . مسجد قباء . الذي أسس من أول يوم على التقوى فبعث رسول الله ﷺ إلى مسجد الضرار من هدمه قبل مقدمه إلى المدينة .

وقوله : « والذين اتخذوا مسجداً ضرراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين .. منصوب على الذم .

أى : « وأذن الذين اتخذوا مسجداً ضرراً .. أو معطوف على ما سبق من أحوال المنافقين ، والتقدير : « ومنهم الذين اتخذوا مسجداً ضرراً ... » وقوله « ضرراً » مفعول لأجله أى : « اتخذوا هذا المسجد لا من أجل العبادة والطاعة لله تعالى . وإنما اتخذوه من أجل الإضرار بالمؤمنين . وإيقاع الأذى بهم .

وقوله « وكفراً » معطوف على « ضرراً » ؛ وهو علة ثانية لاتخاذ هذا المسجد .

أى : « اتخذوه الإضرار بالمؤمنين ، وللازدىاد من الكفر الذى يضمرونه ومن الغل الذى يخفونه ... »

وقوله : « وتفريقاً بين المؤمنين » علة ثالثة .

أى : « واتخذوه أيضاً للتفريق بين جماعة المؤمنين الذين كانوا يصلون في مسجد واحد هو مسجد قباء ، فأراد هؤلاء المنافقون من بناء مسجد الضرار إلى جوار مسجد قباء ، أن يفرقوا وحدة المؤمنين ، بأن يجعلوهم يصلون في أماكن متفرقة . حسداً لهم على نعمة الإخاء والتآلف والاتحاد التى غرسها الإسلام في قلوب أتباعه . »

وقوله : « وإرسادا لمن حارب الله ورسوله ، علة رابعة لا تتخاذل هذا المسجد .
 أى : واتخذوه لـ يكون مكانا يرفعون فيه قدوم « من حارب الله ورسوله »
 هو هو أبو عامر الراهب ، الذى أعلن عداوته لدعوة الإسلام « من قبل » ،
 بناء مسجد الضرار .

فقد سبق أن ذكرنا فى أسباب نزول هذه الآيات ، أن أبا عامر هذا ،
 كتب إلى جماعة من قومه . وهو عند هرقل . يعدهم ويمنيهم ، ويطلب منهم
 أن يتخذوا له معقلا يقدم عليهم فيه فشرعوا فى بناء هذا المسجد . .
 فأتت ترى أن هذه الآية الكريمة ، قد ذكرت أربعة من الأغراض
 الخبيثة التى حملت المنافقين على بناء هذا المسجد ، وهى : مضارة المؤمنين ،
 وتقوية الكفر ، وتفريق كلمة أهل الحق وجعله معقلا لالتقاء المحاربين
 الله ورسوله . . .

وقد خيب الله تعالى مسعاهم ؛ وأبطل كيدهم ، بأن أمر نبيه — ﷺ —
 بهدمه وإزالته . . .

وقوله : « وإيحلفن أن أردنا إلا الحسنى » ، ذم لهم على إيمانهم الفاجرة ،
 وأقوالهم الكاذبة .

أى : أن هؤلاء المنافقين قد بنوا مسجد الضرار لتلك المقاصد الخبيثة .
 ومع ذلك فهم يقسمون بأغلظ الإيمان بأنهم ما أرادوا إيمانهم إلا الخصلة الحسنى
 التى عبروا عنها قبل ذلك . كذبا . بقولهم : « إنما بنيناه للضعفاء . وأهل
 العلة فى الليلة الساتية . . »

وقوله : والله يشهد إنهم لكاذبون ، زيادة فى مذمتهم وتحقيرهم .
 أى : والله — تعالى — يعلم ويشهد أن هؤلاء المنافقين لكاذبون فى إيمانهم
 . . بأنهم ما أرادوا من بناء مسجدهم إلا الحسنى ، فانهم فى الحقيقة لم يريدوا
 ذلك ، وإنما أرادوا تلك الأغراض القبيحة السابقة ، وهى مضارة المؤمنين ،
 . . وتفريق كلمتهم . . .

ثم نهى الله - تعالى - رسوله والمؤمنين عن الصلاة في هذا المسجد نهياً مؤكداً فقال - سبحانه - : « لا تقم فيه ، أبداً ، » .

أى : لا تصل . أيها الرسول الكريم . في هذا المسجد في أى وقت من الأوقات لأنه لم يبن لعبادة الله ، وإنما بنى للشقاق والنفاق .
قال القرطبي : قوله . تعالى . « لا تقم فيه أبداً » ، يعنى مسجد الضرار . لا تقم فيه للصلاة ، وقد يعبر عن الصلاة بالقيام . يقال : فلان يقوم الليل أى : يصلى ، ومنه الحديث الصحيح : « من قام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه ، » .

وقد روى أن رسول الله . ﷺ . لما نزلت هذه الآية كان لا يمر بالطريق التى فيها هذا المسجد ، وأمر بموضعه أن يتخذ كناسة تلقى فيها الجيف والأفذار (١) .

وقوله : « لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه » جملة مسوقة لمذح مسجد قباء وتشريفه . .

أى : لمسجد بنى أساسه ، ووضعت قواعده على تقوى الله وإخلاص العبادة له منذ أول يوم بديء فى بنائه . أحق أن تقوم للصلاة فيه من غيره .

قال الألوسى ما ملخصه : واللام فى قوله « لمسجد » ، إما للإبتداء أو للقسم ، أى : والله لمسجد ، وعلى التقديرين فمسجد مبتدأ ، والجملة بعده صفة ، وقوله « أحق أن تقوم فيه » ، خبر المبتدأ : « وأحق » ، أفعل تفضيل ، والمفضل عليه كل مسجد . أو مسجد الضرار على الفرض والتقدير ، أو على زعمهم ، رقيق لأنه بمعنى حقيق ، أى : ذلك المسجد بأن تصلى فيه (٢) .

وقوله : « فيه رجال يحبون أن يتطهروا » والله يحب المطهرين ، جملة مسوقة

(١) تفسير القرطبي ج ٨ ص ٢٥٨ .

(٢) تفسير الألوسى ج ١١ ص ١٩ .

لتكريم رواد هذا المسجد ومديحهم .

أى : فى هذا المسجد رجال أتقياء الظاهر والباطن ، إذ هم يحبون الطهارة من كل رجس حسى ومعنوى ، ومن كان كذلك أحبه الله ورضى عنه .

ثم بين - سبحانه - أنه لا يستوى من أسس بنيانه على الحق ، ومن أسس بنيانه على الباطل فقال : « أفن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير ، أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار ، فانهار به فى نار جهنم ... »

قال صاحب الكشف : قرئ أسس بنيانه ، وأسس بنيانه على البناء للفاعل والمفعول . والشفا . الحرف والشفير . وحرف الوادى : جانبه الذى يتحفر أصله بالماء وتجرفه السيول ، فيبقى واهياً والهار وهو المنصدع الذى أوشك على التهدم - وهار صفة لجرف ، أى جرف موصوف بأنه هائر أى متساقط .

والمعنى : أفن أسس ببيان دينه على قاعدة قوية محكمة ، وهى الحق الذى هو تقوى الله ورضوانه « خير أم من ، أسسه على قاعدة هى أضعف القواعد وأرعاها وأقلها بقاء ، وهو الباطل والنفاق الذى مثله مثل ، شفا جرف هار » فى قلة الثبات والإستمسك . وضع شفا الجرف فى مقابلة التقوى ، لأنه جعل مجازاً عما ينافى التقوى .

فان قلت : فما معنى قوله : « فانهار به فى نار جهنم » . قلت : لما جعل الجرف الهائر مجازاً عن الباطل ، قيل : فانهار به فى نار جهنم ، على معنى : فطاح به الباطل فى نار جهنم ، إلا أنه رشح المجاز فجاء بلفظ الانهيار الذى هو للجرف ، وليتصور أن المبطل كأنه أسس بنيانه على شفا جرف من أودية جهنم . فانهار به ذلك الجرف فهو فى قعرها . ولا ترى أبلغ من هذا الكلام ، ولا أدل منه على حقيقة الباطل وكنه أمره ، (١) .

وقال صاحب المنار ما ملخصه : والمراد بالمثل هنا بيان ثبات الحق الذي هو دين الإسلام وقوته ، ودوامه ، وسعادة أهله به ، وذكره بأثره وثمرته في عمل أهله وجماعها التقوى ، وبيان ضعف الباطل واضمحلاله وقرب زواله ، وخيبة صاحبه ، وسرعة انقطاع آماله ..

وقد ذكر في وصف بنيان الفريق الأول وهم المؤمنون المشبهون المشبه به لأنه هو المقصود بالذات ؛ وذكر من وصف الفريق الثاني - وهم المنافقون - الهيئة المشبه بها دون المشبه ، لأنه ذكر قبل ذلك مقاصدهم الخبيثة من بناء مسجد الضرار . وهذا من دقائق إيجاز القرآن ، (١) .

وقوله : « والله لا يهدي القوم الظالمين » أى : مضت سنة الله - تعالى - في خلقه أنه - سبحانه - لا يهدي إلى طريق الخير ، أولئك الذين استجبوا العمى على الهدى وظلموا أنفسهم بوضعهم الأمور في غير مواضعها .

ثم بين - سبحانه - الآثار التي ترتبت على هدم مسجد الضرار ، في نفوس هؤلاء المنافقين الأشرار فقال - تعالى - : « لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم ، إلا أن تقطع قلوبهم » ، والله عليم حكيم .

الريبة : اسم من الريب بمعنى الشك والقلق والحيرة ، وقطع - بفتح التاء - أصلها تتقطع فحذفت إحدى التاءين ، من التقطع بمعنى التمزق . وقرأ بعضهم . « تقطع » - بضم التاء - من التقطيع بمعنى التفريق والتمزيق .

والاستثناء مفرغ من أعم الأوقات والأحوال ، والمستثنى منه محذوف ، والتقدير : لا يزال ما بناء هؤلاء المنافقون موضع ريبة وقلق في نفوسهم في كل وقت وحال إلا في وقت واحد وهو وقت أن تتمزق قلوبهم بالموت والهلاك أى : أنهم لا يزالون في قلق وحيرة ماداموا أحياء ، أما بعد موتهم فستكشف لهم الحقائق ، ويجدون مصيرهم الآليم .

والسبب في أن هذا النبا كان مثار ريبتهم وقلعهم حتى بعد هدمه ، أنهم بنوه بنية سيئة ، واثلك المقاصد الأربعة الخبيثة التي يفتشها الآية الأولى ... فكانوا يخشون أن يطلع الله نبيهم على مقاصدهم الذميمة ، فذه الخشية أو رثهم القلق والريبة ، فلما أطلع الله - تعالى - نبيه على أغراضهم ، وتم هدم مسجد الضرار ، وأنهار الجرف المتداعي المنساقط ، استمر قلعهم وريبتهم ؛ لأنهم لا يدرون بعد ذلك ماذا سيفعل المؤمنون بهم .

وهكذا شأن الماكرين في كل زمان ومكان ، لأنهم يعيشون طول حياتهم في فزع وقلق وخوف من أن يـكشف مكرهم . ويظهر خداعهم :

وقوله : « والله عليم حكيم ، قذيل قصد به تهديدهم وزجرهم .
أى : والله - تعالى - عليم بكل شىء في هذا السكون ، وبكل ما يقوله ويفعله هؤلاء المنافقون سرا وجهراً ، حكيم في كل تصرفاته وأفعاله وفي صنعه بهم ، وسيجازيهم يوم القيام بما يستحقونه من عقاب .

هذا ، ومن الأحكام والآداب التي أخذها العلماء من هذه الآيات ما يأتي :

١ - وجوب بناء المساجد على تقوى من الله ورضوان ، لأنها إذا بنيت على هذا الأساس ، كانت محل القبول والثواب من الله ، أما إذا بنيت لأى مقصد يتنافى مع آداب الإسلام وأحكامه وتشريعاته ، فإنها تكون بعيدة عن رضا الله - تعالى - وقبوله .

قال بعض العلماء ؛ دلت الآيات على أن كل مسجد بنى على مابنى عليه مسجد الضرار ، أنه لا حكم له ولا حرمة ، ولا يصح الوقف عليه . وقد حرق الراضى بالله - الخليفة العباسى - كثيرا من مساجد الباطنية والمشبهة والمجبرة (١) . وقال الزمخشري : قيل كل مسجد بنى مباهاة أو رياه وسمعة ، أو لغرض سوى ابتغاء وجه الله ، أو بمال غير طيب ، فهو لاحق بمسجد الضرار .

وعن عطاء : لما فتح الله . تعالى . الأمصار على يد عمر بن الخطاب . رضي الله عنه . أمر المسلمين أن يبنوا المساجد ، وألا يتخذوا في مدينة مسجدين ، يضار أحدهما صاحبه (١) .

٢ - أن مسجد قباء هو المقصود بقوله - تعالى - : « لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه . . . » ، وذلك لأن سياق الآيات في الحديث عنه ، وفي بيان أحقية الصلاة فيه ، وقد كان رسول الله ﷺ - يزوره راكبا وماشيا ويصلي فيه ركعتين .

ولا منافاة بين كون مسجد قباء هو المقصود هنا ، وبين الأحاديث التي وردت في أن المسجد الذي أسس من أول يوم على تقوى من الله ورضوان ، هو المسجد النبوي ، لأن كليهما قد أسس على ذلك .

قال الإمام ابن كثير : وقد صرح بأن مسجد قباء جماعة من السلف منهم ابن عباس ، وعروة بن الزبير ، والحسن البصري ، وسعيد بن جبير ، وقتادة . وقد ورد في الحديث الصحيح أن مسجد رسول الله ﷺ - الذي في جوف المدينة هو المسجد الذي أسس على التقوى ، وهذا صحيح .

ولا منافاة بين الآية وبين هذا ، لأنه إذا كان مسجد قباء قد أسس على التقوى من أول يوم ، فمسجد رسول الله ﷺ - بطريق الأولى والأخرى ، (٢) .

٣ - أن المحافظة على الطهارة من الصفات التي يحبها الله - تعالى - ، فقد قال . تعالى . :

« فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين » .

وقد ساق الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية جملة من الأحاديث

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٣١٠

(٢) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٣٧٩

عنهما : ماجاء عن ابن عباس أنه قال : لما نزلت هذه الآية ، بعث رسول الله ﷺ - إلى عويم بن مسعدة فقال له : ما هذا الطهور الذي أتى الله عليكم به ، ؟

فقال : يا رسول الله ما خرج منا رجل ولا امرأة من الغائط إلا غسل فرجه . فقال - ﷺ - : هو هذا ، (١) .

٤ - كذلك يؤخذ من الآيات الكريمة ، استحباب الصلاة في المساجد القديمة المؤسسة من أول بنائها على عبادة الله وحده لا شريك له ، وعلى استحباب الصلاة مع الجماعة الصالحة ، والعباد العاملين المحافظين على إسباغ الوضوء ، والتنزه عن ملابس القاذورات (٢) .

وبعد أن بين - سبحانه - أنواع المتخلفين عن غزوة تبوك ، أتبع ذلك بالتزغيب في الجهاد وفي بيان فضله فقال - تعالى - :

{إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ
لَهُمْ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا
لَهُ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ
مِنْ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ ۚ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ
الْعَظِيمُ ﴿١١١﴾}

قال الفخر الرازي : اعلم أنه - تعالى - لما شرع في شرح فضائح المنافقين وقبائحهم لسبب تخلفهم عن غزوة تبوك ، فلما تم ذلك الشرح والبيان وذكر أقسامهم وفرع كل قسم ما كان لا نقا به ، عاد إلى بيان فضيلة الجهاد وحقيقته فقال - تعالى - : { إن الله اشترى من المؤمنين الآية } ، (٣) .

(١) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٣٨٩ (٢) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٣٩٠

(٣) تفسير الفخر الرازي ج ٤ ص ٥٠٦

وقال القرطبي : ونزلت هذه الآية في البيعة الثانية ، وهي بيعة العقبة الكبرى ، وهي التي أناف فيها رجال الأنصار على السبعين ، وذلك أنهم اجتمعوا إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عند العقبة ، فقال عبد الله بن رواحة للنبي - ﷺ - : اشترط لربك ولنفسك ما شئت ، فقال النبي - ﷺ - : أشترط أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، وأشترط لنفسي أن تمنعوني عما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم قالوا : فإذا فعلنا ذلك فما لنا ؟ قال : لكم الجنة ، قالوا : ربح البيع ، لا نقبل ولا نستقيل فنزلت هذه الآية .

ثم هي بعد ذلك عامة في كل مجاهد في سبيل الله من أمة محمد - ﷺ - إلى يوم القيامة .

وقوله - سبحانه - : « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، تمثيل للشواب الذي منحه الله - تعالى - للمجاهدين في سبيله .

فقد صور - سبحانه - جهاد المؤمنين ، وبذل أموالهم وأنفسهم فيه ، وإثابته - سبحانه - لهم على ذلك بالجنة ، صور كل ذلك بالبيع والشراء .

أي : أن الله - تعالى - وهو المالك لكل شيء ، قد اشترى من المجاهدين أنفسهم وأموالهم التي بذلوها في سبيله ، وأعطاهم في مقابل ذلك الجنة .

قال أبو السعود : الآية الكريمة ترغيب للمؤمنين في الجهاد... وقد بولغ في ذلك على وجه لا مزيد عليه ، حيث دبر عن قبول الله - تعالى - من المؤمنين أنفسهم وأموالهم التي بذلوها في سبيله - تعالى - ، وإثابته إياهم بمقابلتها الجنة بالشراء على طريقة الاستعارة التبعية . ثم جعل المبيع الذي هو العدة والمقصد في العقد ، أنفس المؤمنين وأموالهم ، والتمن الذي هو الوسيلة في الصفقة الجنة .

ولم يجعل الأمر على العكس بأن يقال : إن الله باع الجنة من المؤمنين بأنفسهم وأموالهم ؛ ليدل على أن المقصد في العقد هو الجنة ، وما بذله المؤمنون في مقابلتها من الأنفس والأموال وسيلة إليها ، إذ انا بتعليق كمال العناية بهم وبأموالهم .

ثم إنه لم يقل د بالجنة ، بل قال : د بأن لهم الجنة ، مما الغة في تقرر وصول الثمن إليهم واختصاصه بهم ، فكأنه قيل : بالجنة الثابتة لهم ، المختصة بهم (١) وقوله : د يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون ، جملة مسأفة جى بها لبيان الوسيلة التي توصلهم إلى الجنة وهي القتال في سبيل الله .

أى : أنهم يقاتلون في سبيل الله ، فمنهم من يقتل أعداء الله ، ومنهم من يقتل على أيدي هؤلاء الأعداء ، وكلا الفريقين القاتل والمقتول جزاء الجنة . وقرأ حمزة والكسائي د فيقتلون ويقتلون ، بتقديم الفعل المبني للمفعول على الفعل المبني للفاعل .

وهذه القراءة فيها إشارة إلى أن حرص المؤمنين الصادقين على الاستشهاد أشد من حرصهم على النجاة من القتل ؛ لأن هذا الاستشهاد يوصلهم إلى جنة عرضها السموات والأرض ، وإلى الحياة الباقية الدائمة . . . وقوله : د وعدا عليه حقا في التوراة والإنجيل والقرآن ، تأكيد للثمن الذي وعدهم الله به .

أى : أن هذه الجنة التي هي جزاء المجاهدين ، قد جعلها سبحانه تفضلا منه وكرما ، حقا لهم عليه ، وأثبت لهم ذلك في الكتب السماوية التي أنزلها على رسله .

قال الألوسي ما ملخصه : قوله : د وعدا عليه ، مصدر مؤكد لمضمون الجملة وقوله د حقا ، نعت له ، وقوله د عليه ، في موضع الحال من قوله د حقا ،

(١) تفسير أبي السعود ج ٢ ص ٢٩١ .

لتقدمه علمية ، وقوله : « في التوراة والإنجيل والقرآن ، متعلق بمحذوف وقع
نعتا لقوله « وعدا ، أيضاً .

أى : وعدا مثبتاً في التوراة والإنجيل كما هو مثبت في القرآن ، فالمراد إلحاق
مالا يعرف بما يعرف ، إذ من المعلوم ثبوت هذا الحكم في القرآن ، ثم إن ما في
الكتابين إما أن يكون أن أمة محمد - ﷺ - اشترى الله منهم أنفسهم
وأموالهم بذلك ، أو أن من جاهد بنفسه وماله . من حقه ذلك ، وفي كلا
الأمرين ثبوت موافق لما في القرآن . . . (١) .

وقوله : « ومن أوفى بعهده من الله ، جملة معترضة مسوقة لتأكيد
مضمون ما قبلها من حقيقة الوعد وتقريره : والاستفهام للنفي .

أى : لا أحد أوفى بعهده من الله - تعالى - لأنه إذا كان خلف الوعد
لا يكاد يصدر من كرام الخلق مع إمكان صدوره منهم ، فكيف يكون الحال
من جانب الخالق - عز وجل - المنزه عن كل نقص ، المتصف بكل كمال .

وقوله : « فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم ،
تحريض على القتال ، وإعلام لهم بأنهم رابحون في هذه الصفقة .

والاستبشار : الشعور بفرح البشرى ، شعوراً تنبسط له أسارير الوجه .
أى : إذا كان الأمر كذلك فافرحوا ببيعكم الذي بايعتم به غاية الفرح ،
وارضوا به نهاية الرضى ، فإن ذلك البيع هو الفوز العظيم الذي لا فوز
أعظم منه .

قال بعض العلماء : ولا ترى زغباً في الجهاد أحسن ولا أبلغ من هذه الآية
لأنه أبرزه في صورة عقد عقده رب العزة ، وثمنه مالا عين رأت ، ولا أذن
سمعت ، ولا خطر على قلب بشر . ولم يجعل المعقود عليه كونهم مقتولين فقط
بل إذا كانوا قاتلين أيضاً لإعلاء كلمته ، ونصر دينه ، وجعله مسجلاً في الكتب

السموية ، وناهيك به من صك . وجعل وعده حقاً ، ولا أحد أوفى من وعده .
ففسيته أقوى من نقه . غيره . وأشار إلى ما فيه من الربح والتموز العظيم .
وهو استعارة تمثيلية ، حيث صور جهاد المؤمنين ، وبذل أموالهم وأنفسهم فيه
ولإثابة الله لهم على ذلك الجنة ، بالبيع والشراء . وأتى بقوله : « يقاتلون ... »
بيانا لما كان التسليم وهو المعركة ، وإليه الإشارة بقوله ﷺ -
« الجنة تحت ظلال السيوف » ، ثم أمضاه بقوله : « وذلك هو الفوز العظيم » (١)
ويروى عن الحسن البصري أنه قرأ هذه الآية فقال : أنظروا إلى كرم
الله . تعالى . : أنفس هو خالقها ، وأموال هو رازقها ، ثم يكافئنا عليها متى
بذلناها في سبيله بالجنة .

ثم وصف الله - تعالى - هؤلاء المؤمنين الصادقين بجملة من الأوصاف
الكرامة ، فقال :

التَّائِبُونَ الْعَبِيدُونَ الْحَمِيدُونَ الَّسَّيِّحُونَ الرَّاكِعُونَ
السَّجِدُونَ الْأَمْرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْخَفِظُونَ
لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾

قال الجمل ما ملخصه : ذكر الله . تعالى . في هذه الآية تسعة أوصاف
للمؤمنين ، الستة الأولى منها تتعلق بمعاملة الخالق ، والوصفان السابع والثامن
يتعلقان بمعاملة المخلوق ، والوصف التاسع بهم القبيحين .
وقوله : « التائبون » ، فيه وجوه من الأعراب منها : أنه مرفوع على المدح ،
فهو خبر لمبتدأ محذوف وجرباً للمبالغة في المدح أى : المزمنون المذكورون
التائبون ، ومنها أن الخبر هنا محذوف ، أى : التائبون الموصوفون بهذه
الأوصاف من أهل الجنة . (٢) .

(١) تفسير القاسمي ٨ ص ٣٢٧٣ .

(٢) حاشية الجلاء ، الإجلالين ، نفس ، تلخيص ، ٢ ص ٣٢١ .

والمعنى : « التائبون ، عن المعاصي وعن كل ما نهى عنه شريعة الله ، العابدون ، لحاقيهم عبادة خالصة لوجهه ، « الحامدون ، له . سبحانه . في السراء والضراء ، وفي المنشط والمكروه ، وفي العسر واليسر ، والسأخون ، في الأرض للتبر والإعتبار وطاعة الله ، والعمل على مرضاته ، الراكعون الساجدون ، لله . تعالى . عن طريق الصلاة التي هي عماد الدين وركنه الركين « الأمور ، غيرهم « بالمعروف ، أى : بكل ما حسنه الشرع « والناهون ، له « عن المنكر ، الذى تأباه الشرائع والعقول السليمة ، « والحافظون لحدود الله ، أى : لشرائعه وفرائضه وأحكامه وآدابه ... هؤلاء المتصفون بتلك الصفات الحميدة ، بشرهم . يا محمد . بكل ما يسعدهم ويشرح صدورهم ، فهم المؤمنون حقاً ، وهم الذين أعد الله تعالى لهم الأجر الجزيل ، والرزق الكريم .

ولم يذكر . سبحانه . المبشر به في قوله : « وبشر المؤمنين » ، للإشارة إلى أنه أمر جليل لا يحيط به الوصف ، ولا تحده العبارة .

ولم يذكر . سبحانه . في الآية لهذه الأوصاف متعلقاً ، فلم يقل « التائبون ، من كذا ، لفهم ذلك من المقام ، لأن المقام في مدح المؤمنين الصادقين الذين أخلصوا نفوسهم لله . تعالى . فصاروا ملتزمين طاعته في كل أقوالهم وأعمالهم .

وعبر عن كثرة صلاتهم وخشوعهم فيها بقوله . « والراكعون الساجدون » ، للإشارة إلى أن الصلاة كأنها صفة ثابتة من صفاتهم ، وكأن الركوع والسجود طابع يميز لهم بين الناس . وإنما عطف النهى عن المنكر على الأمر بالمعروف للإيذان بأنهما فريضة واحدة لتلازمهما في الغالب ، أو لما بينهما من تباين إذ الأمر بالمعروف طلب فعل ، والنهى عن المنكر طلب ترك أو كف .

وكذلك جاء قوله . « والحافظون لحدود الله » ، بحرف العطف .

وبما قالوه في تعليل ذلك . أن سر العطف هنا التنبيه على أن ما قبله مفصل للفضائل وهذا مجمل لها ، لأنه شامل لما قبله وغيره ، ومثله يؤثر به معطوفاً ،

نحو زيد وعمر ووسائر قبيلتهما كرماء، فلها غيرته لما قبله بالإجمال والتفصيل والعموم والخصوص عطف عليه (١).

هذا، وما ذكرناه من أن المراد بقوله: «السائحون»، أي: السائرون في الأرض، للتدبر والاعتبار والتفكير في خلق الله، والعمل على مرضاته... هذا الذي ذكرناه رأى بعض العلماء، ومنهم من يرى أن المراد بهم: الصائمون ومنهم من يرى أن المراد بهم: المجاهدون.

قال الألوسي: وقوله: «السائحون»، أي الصائمون، فقد أخرج ابن مردويه عن أبي هريرة أن النبي ﷺ — سئل عن ذلك فأجاب بما ذكر، وإليه ذهب جماعة من الصحابة والتابعين. وجاء عن عائشة: «سياحة هذه الأمة الصيام،...»

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد أن السائحين هم المهاجرون، وليس في أمة محمد ﷺ — سياحة إلا الهجرة.

وعن عكرمة أنهم طلبة العلم، لأنهم يسبحون في الأرض لطلبه. وقبل: هم المجاهدون في سبيل الله، لما أخرج الحاكم وصححه والطبراني وغيرهما، عن أبي أمامة أن رجلاً استأذن رسول الله ﷺ — في السياحة فقال: إن سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله (٢).

والذي نراه أقرب إلى العوَاب أن المراد بالسائحين هنا: السائرون في الأرض لمقصد شريف، وغرض كريم. كتحصيل العلم، والجهاد في سبيل الله، والدبر في ملكوته. سبجانه. والتفكير في سفته في كونه، والاعتبار بما اشتمل عليه هذا الكون من عجائب.

ولعل مما يؤيد ذلك أن لفظ «السائحون»، معناه السائرون، لأنه مأخوذ

(١) تفسير القاسمي ج ٨ ص ٢٢٨.

(٢) تفسير الألوسي ج ١ ص ٢١٠.

من السبع وهو الجرى على وجه الأرض ، والذهب فيها . وهذه المادة تشعر بالانتشار ، يقال : ساح الماء أى جرى وانتشر . . .

وما دام الأمر كذلك فمن الأولى حمل اللفظ على ظاهره ، مادام لم يمنع مانع من ذلك ، وهنا لا مانع من حمل اللفظ على حقيقته وظاهره .

أما الأحاديث والآثار التى استشهد بها من قال بأن المراد بالسائحين الصائمون فقد ضعفها علماء الحديث .

قال صاحب المنار : وأقول ، وروى ابن جرير من حديث أبى هريرة مرفوعاً وموقوفاً حديث : السائحون هم الصائمون ، لا يصح رفعه . (١) وفضلاً عن كل هذا ، فإن تفسير السائحين بأنهم السائرون فى الأرض لسكل مقصد شريف ، وغرض كريم ... يتناول الجهاد فى سبيل ، كما يتناول الرحلة فى طلب العلم ، وغير ذلك من وجوه الخير .

وما أكثر الآيات القرآنية التى حضت على السير فى الأرض ، وعلى التفكير فى خالق الله ، ومن ذلك قوله تعالى : « قل سيروا فى الأرض ثم أنظروا كيف كان عاقبة المكذابين » .

وقوله تعالى : « أفلم يسروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها ، أو آذان يسمعون بها ، فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور » . قال الإمام الرازى : للسياحة أثر عظيم فى تكميل النفس لأن الإنسان يلقي الآكابر من الناس ، فيجتقر نفسه فى مقابلتهم ، وقد يصل إلى المراتب الكثيرة فينتفع بها ، وقد يشاهد اختلاف أحوال الدنيا بسبب ما خلق الله . تعالى . فى كل طرف من الأحوال الخاصة بهم ، وقد يشاهد اختلاف أحوال بسبب ما خلق الله تعالى فى كل طرف من الأحوال الخاصة بهم ، فتقوى معرفته . وبالجملة فالسياحة لها آثار قوية فى الدين .

(١) راجع تفسير المنارج ١١ ص ٥٤ (٢) سورة الحج الآية ٤٦

(٣) سورة الأنعام الآية ١٢ (٤) تفسير الفخر الرازى ج ٤ ص ٥٠٩

ثم بين سبحانه أنه لا يصح للنبي - ﷺ - ولأهل المؤمنين أن يستغفروا للمشركين مهما بلغت درجة قرابتهم ، لأن رابطة العقيدة هي الوشيجة الأساسية فيما بينهم فقال . تعالى :

مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ
يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ
أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ أَسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ
مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ
لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَهُمْ حَتَّى
يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ اللَّهَ لَهُ
مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ
مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾

قال الفخر الرازي : أعلم أنه - تعالى - لما بين من أول هذه السورة إلى هذا الموضوع وجوب إظهار البراءة عن الكفار والمنافقين من جميع الوجوه ، بين في هذه الآية أنه يجب البراءة عن أمواتهم وإن كانوا في غاية القرب من الإنسان ، كما أوجبت البراءة عن أحيائهم . والمقصود منه بيان وجوب مقاطعتهم على أنهي الغايات ، والمنع من مواصلةهم بسبب من الأسباب (١) . والمعنى : ما كان من شأن النبي - ﷺ - ولا من شأن أصحابه المؤمنين ، أن يدعو الله - تعالى - بأن يغفر للمشركين في حال من الأحوال . ولو كان هؤلاء المشركون من أقرب أقربائهم ومن بعد ماتبين لهم ، أى : للرسول - صلى الله عليه وسلم - ولأصحابه ، أن هؤلاء

المشركين من أصحاب الجحيم ، بسبب موتهم على الكفر، وإصرارهم عليه، وعدم أعترافهم بدين الإسلام .

قال الألوسي ما ملخصه : والآية على الصحيح نزلت في أبي طالب، فقد أخرج الشيخان وغيرهما عن المسيب بن حزن قال : لما حضرت أبا طالب الوفاة ، دخل عليه النبي ﷺ وعنده أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية فقال النبي - صلى الله عليه وسلم - أي عم ، قل لا إله إلا الله أحاج اليك بها عند الله . فقال أبو جهل يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرضها عليه . وأبو جهل وعبد الله بن أمية يعاودانه بتلك المقالة. فقال أبو طالب آخر ما كلمهم: هو على ملة عبد المطلب وأبي أن يقول : لا إله إلا الله . فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - . لأستغفرن لك ما لم أنه عن ذلك فنزلت : وما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ... الآية ،

ثم قال . واستبعد بعضهم ذلك ، لأن موت أبي طالب كان قبل الهجرة بثلاث سنين ، وهذه السورة من أواخر ما نزل بالمدينة .

وهذا الاستبعاد مستبعد ، لأنه لا بأس من أن يقال : كان النبي صلى الله عليه وسلم يستغفر لأبي طالب من ذلك الوقت إلى وقت نزول هذه الآية وعليه فلا يراد من قوله « فترأت » في الخبر أن النزول كان عقيب القول بل يراد أن ذلك سبب النزول فحسب . فتكون الفاء للسببية لا للتعقيب ، (١) وقال القرطبي : هذه الآية تضمنت قطع موالاة الكفار حبيهم وميتهم ، فإن الله لم يجعل للمؤمنين أن يستغفروا للمشركين ، فطلب الغفران للمشرك عما لا يجوز . ، وقال كثير من العلماء . بأنه لا بأس أن يدعو الرجل لأبيه الكافرين ما دام حيين ، فأما من مات على الكفر فقد انقطع عنه الرجاء فلا يدعى له : (٢) .

ثم بين - سبحانه - السبب الذي حمل إبراهيم على الاستغفار لأبيه ، ثم على ترك هذا الاستغفار فقال : « وما كان استغفار لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه ، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه . . . »

قال القرطبي : روى النسائي عن علي بن أبي طالب قال : سمعت رجلا يستغفر لأبويه وهما مشركان . فقلت أتستغفر لهما وهما مشركان فقال : أو لم يستغفر إبراهيم لأبيه . فأثبت النبي - ﷺ - فذكرت له ذلك فنزلت « وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه الآية . »

والمعنى : لاحجة لكم أيها المؤمنون في استغفار إبراهيم ، لأبيه ، لأن استغفاره له إنما كان بسبب وعد صدر له بذلك ، فلما أصرد آزر ، أبو إبراهيم على كفره ، ومات مشركا بالله ، تبرأ إبراهيم منه ومن عمله .

والمراد بهذا الوعد ما جاء في القرآن من قوله له : « سلام عليك سأستغفر لك ربى إنه كان بي حفيوا ، (١) . »

وقوله : « لأستغفرن لك وما أملك من الله من شيء . » (٢) .

وقوله : « إن إبراهيم لأواه حلیم ، جملة مستأنفة مسوقة لبيان الداعى الذى دعا إبراهيم إلى الاستغفار لأبيه قبل التبين : أى : إن إبراهيم لكثير التأوه والتوجع من خشية الله ، وكثير الحلم والصبر عن آذاه . »

قال الألوسى : قوله « إن إبراهيم لأواه حلیم ، أى لكثير التأوه وأصل التأوه قوله آه ونحوه مما يقوله الحزين . . . وهو عند جماعة كناية عن كمال الرأفة . ورقة القلب . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وغيرهما عن عبد الله بن شداد ، قال رجل : يا رسول الله ما الأواه ؟ قال : الخاشع المتضرع الكثير الدعاء . (٣) .

(١) سورة مريم الآية ٤٧ (٢) سورة الممتحنة الآية ٥

(٣) تفسير الألوسى ج ١١ ص ٣٥ — بتصرف وتلخيص -

ويؤخذ من هاتين الآيتين ، أنه لا يجوز لمسلم أن يستغفر لمشرك بعد موته على الشرك مهما بلغت درجة قرابته له .

ثم بين - سبحانه - سنة من سننه العامة في خلقه ، وهي تدل على سعة رحمته ، ووافر عدله فقال : « وما كان الله ليضل قوما بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون . . . »

أى : وما كان من شأن الله - تعالى - في لطفه وعدله . . . أن يصف قوما بالاضلال عن طريق الحق ، بعد إذ هداهم ، إلى الإسلام ، لمجرد قول أو عمل صدر عنهم عن طريق الخطأ في الاجتهاد .

ولأنما يصفهم بذلك بعد أن يبين لهم ما يجب اتقاؤه من الأقوال والأفعال ، فلا يطيعون أمره ، ولا يستجيبون لتوجيهه - سبحانه -

قال صاحب الكشف : يعنى - سبحانه - أن ما أمر باتقائه واجتنابه كاستغفار المشركين وغيرها مما نهى عنه وبين أنه محذور ، لا يؤاخذ به عباده الذين هداهم للإسلام ، ولا يسميهم ضلالا ، إلا إذا أقدموا عليه بعد بيان حظره عليهم ، وعلمهم أنه واجب الاتقاء والاجتناب . وأما قبل العلم والبيان فلا سبيل عليهم ، كما لا يؤاخذون بشرب الخمر ، ولا يبيع الصاع بصاعين قبل التحريم .

وهذا بيان لعذر من خاف المؤاخذة بالاستغفار للمشركين قبل ورود النهى عنه . وفي هذه الآية شريعة ما ينبغي أن يغفل عنها : وهي أن المهدى للإسلام إذا أقدم على بعض محظورات الله صار داخل في حكم الإضلال ، (١) . وقال صاحب المنار : أخرج ابن المنذر أن عبد الله بن مسعود كان يخاطب أصحابه كل عشية خميس ثم يقول : فمن استطاع منكم أن يغدو عالما أو متعلما فليفعل ، ولا يغدو لسوى ذلك ، فإن العالم والمتعلم شريكان في الخير . أيها الناس : إني والله لا أخاف عليكم أن تؤخذوا بما لم يبين لكم ، وقد قال

— تعالى — وما كان الله ليضل قوما بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون . . . (١) .

وقوله : « إن الله بكل شيء عليم ، تعليل لما قبله ، أى إن الله - تعالى - عليم بكل شيء ، ولا يخفى عليه شيء من أقوال الناس وأفعالهم ، وسيجاسبهم يوم القيامة على ذلك ، وسيجازى الذين أسأوا بما عملوا ، ويجازى الذين أحسنوا بالحسنى .

ثم ختمه سبحانه هذه الآيات ببيان أنه سبحانه - هو المالك لكل شيء ، والخالق لكل شيء ، فقال : « إن الله له ملك السموات والأرض يحيى ويميت » . أى : إن الله - تعالى - هو المالك للسموات والأرض وما بينهما ، ولا شريك له فى خلقهما ، ولا فى تدبير شئونهما ، وهو - سبحانه - الذى يحيى من يريد إحياءه ، ويميت من يريد إماتته ، لا راد لقضائه ، ولا معقب لحكمه . « وما لكم من إدون الله من ولى ولا نصير ، أى : وليس لكم - أبها الناس - أحد سوى الله يتولى أمركم وينصركم على أعدائكم .

وبذلك نرى أن هذه الآيات السكرية قد نهت المؤمنين عن الاستغفار للمشركين المصيرين على شركهم ، كما بشرتهم بأنه - سبحانه - لا يؤاخذهم على استغفارهم لهم قبل نهيهم عن ذلك . كما أخبرتهم بأن ملك هذا الكون إنما هو لله وحده ، فعليهم أن يستجيبوا لأمره ، لئسكى ينالوا رحمته ورضاه . ثم ذكر - سبحانه - جانباً من مظاهر فضله على عباده المؤمنين ، حيث تقبل توبتهم ، وتحاوز عن زلاتهم ، فقال - تعالى - :

لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ

وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ

قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١١٧﴾

قال الإمام الرازي : أعلم أنه - تعالى - لما استقصى في شرح أحوال غزوة تبوك ، وبين أحوال المتخلفين عنها ، وأطال القول في ذلك على الترتيب الذي لخصناه فيما سبق ، عاد في هذه الآية إلى شرح ما بقي من أحكامها ، ومن بقية تلك الأحكام أنه قد صدر عن رسول الله - ﷺ - ما يجري مجرى ترك الأولى ، وصدر عن المؤمنين كذلك نوع زلة ، فذكر - سبحانه - أنه تفضل عليهم ، وتاب عليهم ، في تلك الزلات ، فقال - تعالى - : « لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار ... » (١) .

وللعلماء أقوال في المراد بالتوبة التي تابها الله على النبي - ﷺ - وعلى المهاجرين والأنصار : فمنهم من يرى أن المراد بها قبول توبتهم ، وغفران ذنوبهم ، والتجاوز عن زلاتهم التي حدثت منهم في تلك الغزوة أو في غيرها ، وإلى هذا المعنى أشار القرطبي بقوله :

قال ابن عباس : كانت التوبة على النبي - ﷺ - لاجل أنه أذن للمنافقين في القعود ، بدليل قوله - سبحانه - قبل ذلك : « عفا الله عنكم لم أذنت لهم ... » . وكانت توبته على المؤمنين من ميل قلوب بعضهم إلى التخلف عنه - أي : إلى التخلف عن الخروج معه إلى غزوة تبوك (٢) .

ومنهم من يرى أن المقصود بذكر التوبة هنا ، التنوية بفضلها ، والخص على تجديدها ، وإلى هذا المعنى أتجه صاحب الكشاف فقال : « تاب الله على النبي » كقوله : « ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر » ، وكقوله : « واستغفر لذنوبك » . وهو بعث للمؤمنين على التوبة ، وأنه مامن مؤمن إلا وهو محتاج إلى التوبة والاستغفار ، حتى النبي والمهاجرون والأنصار ، وإبانة لفضل التوبة ومقدارها عند الله ، وأن صفة التوابين الأوابين صفة الأنبياء كما وصفهم بالصالحين ليظهر فضيلة الصلاح . (٣) .

(١) تفسير الفخر الرازي ج ٤ ص ٥١٥ (٢) تفسير القرطبي ج ٨ ص ٢٨٧

(٣) تفسير الكشاف ج ٢ ص ١١٦ .

ومنهم من يرى أن المراد بالتوبة هنا : دوامها لا أصلها ، وإلى هذا المعنى أشار بعضهم بقوله : لقد تاب الله على النبي . . . ، أى : أدام توبته على النبي والمهاجرين والأنصار . وهذا جواب عما يقال : من أن النبي معصوم من الذنب ، وأن المهاجرين والأنصار لم يفعلوا ذنبا في هذه القضية ، بل اتبعوه من غير تلغم ، قلنا : المراد بالتوبة في حق الجميع دوامها لا أصلها . . . (١) .

ومنهم من يرى أن ذكر النبي هنا إنما هو من باب التشریف ، والمراد بقبول توبة المهاجرين والأنصار فيما صدر عن بعضهم من زلات . وقد وضع هذا المعنى الإمام الألوسی فقال : قال أصحاب المعاني : المراد ذكر التوبة على المهاجرين والأنصار ، إلا أنه جرى في ذلك بالنبي - صلى الله عليه وسلم - تشريفا لهم ، وتعظيما لقدركم ، وهذا كما قالوا في ذكره - تعالى - في قوله : « فأن الله خمسته وللرسول ... » الآية أى : عفا - سبحانه - عن زلات صدرت منهم يوم أحد ويوم حنين ... ، (٢) .

ويبدو لنا أن الرأي الأول أقرب الآراء إلى الصواب ، لأن الآية الكريمة مسوقة لبيان فضل الله - تعالى - على رسوله وعلى المؤمنين ، حيث غفر لهم ما فرط منهم من هفوات وقعت في هذه الغزوة وهذه الهفوات صدرت منهم بمقتضى الطبيعة البشرية ، وبمقتضى الاجتهاد في أمور لم يبين الله - تعالى - حكمه فيها ، فهي لا تنقص من منزلة الرسول - صلى الله عليه وسلم - ولا من منزلة أصحابه الصادقين في إيمانهم .

والمعنى . لقد تقبل الله - تعالى - توبة النبي - صلى الله عليه وسلم - كما تقبل توبة أصحابه المهاجرين والأنصار ، الذين اتبعوه عن طواعية واختيار وإخلاص في ساعة العسرة . أى في وقت الشدة والضيق ، وهو وقت غزوة تبوك ، فالمراد بالساعة هنا مطلق الوقت .

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٢ ص ٣٢٤ - بتصرف يسير -

(٢) تفسير الألوسی ج ١١ ص ٣٩ .

وقد كانت غزوة تبوك تسمى غزوة العسرة ، كما كان الجيش الذى اشترك فيها يسمى بجيش العسرة ، وذلك لأن المؤمنين خرجوا إليها فى سنة مجدية ، وحر شديد ، وفقر فى الزاد والماء والراحلة .

قال ابن كثير : قال مجاهد وغير واحد : نزلت هذه الآية فى غزوة تبوك ، وذلك أنهم خرجوا إليها فى شدة من الأمر ، فى سنة مجدية ، وحر شديد ، وعسر فى الزاد والماء .

وقال قتادة : خرجوا إلى الشام عام تبوك فى طمان الحر - أى شدة - على ما يعلم الله من الجهد ، أصابهم فيها تعب شديد ، حتى لقد ذكر لنا أن الرجلين كانا يشقان التمرة بينهما (١) .

وقال الحسن : كان العشرة منهم يعتقبون بعيرا واحداً ، يركب الرجل منهم ساعة ثم ينزل فيركب صاحبه كذلك ، وكان النفر منهم يخرجون وليس معهم إلا التمرات اليسيرة فإذا بلغ الجوع من أحدهم أخذ التمرة فلا كما حتى يجد طعامها ، ثم يشرب عليها جرعة من الماء . . ومضوا مع النبى - صلى الله عليه وسلم - على صدقهم وبقينهم - رضى الله عنهم - (٢) .

وقوله : « من بعدما كاد يزيغ قلوب فريق منهم » بيان لتناهى الشدة ، وبلوغها الغاية القصوى .

أى : قاب - سبحانه - على الذين اتبعوا رسوله من المهاجرين والأنصار ، من بعد أن أشرف فريق منهم على الميل عن التخلّف عن الخروج إلى غزوة تبوك ، لما لا بسا وصاحبها من عسر وشدة وتعب .

وفى ذكر « فريق منهم » إشارة إلى أن معظم المهاجرين والأنصار ، مضوا معه - صلى الله عليه وسلم - إلى تبوك دون أن تؤثر هذه الشدائد فى قوة إيمانهم وصدق بقينهم ، ومضاء عزيمتهم ، وشدة إخلاصهم .

(١) راجع تفسير ابن كثير ٢ ص ٣٩٦ .

(٢) حاشية الجمل على الجلالين ج ٢ ص ٣٢٤ .

قال الألوسي ما ملخصه : « وفي كاد، ضمير الشأن و دقلوب، فاعل «يزيع»، والجملة في موضع الخبر لسكاد . . . وهذا على قراءة «يزيع» ، بالياء ، وهي قراءة حمزة ، وحفص ، والأعمش . وأما على قراءة «يزيع» ، بالتاء ، وهي قراءة الباقيين . فيحتمل أن يكون «دقلوب» ، لاسم كاد و «يزيع» ، خبرها ، وفيه ضمير يعود على اسمها ، (١) .

وقوله : « ثم تاب عليهم لأنه بهم رؤوف رحيم » ، تذييل مؤكد لقبول التوبة ولعظيم فضل الله عليهم . ولطفه بهم .
 أى : ثم تاب عليهم - سبحانه - بعد أن كابدوا ما كابدوا من العسر والمشقة ومجاهدة النفس ، لأنه بهم رؤوف رحيم .
 قال بعضهم : فإن قلت : قد ذكر التوبة أولاً ثم ذكرها ثانياً فما فائدة التكرار ؟

قلت : لأنه - سبحانه - ذكر التوبة أولاً قبل ذكر الذنب تفضيلاً منه وتطييباً لقلوبهم ، ثم ذكر الذنب بعد ذلك وأردفه بذكر التوبة مرة أخرى ، تعظيماً لشأنهم ، وليعلموا أنه - تعالى - قد قبل توبتهم ، وعفا عنهم ، ثم أتبعه بقوله - سبحانه - أنه بهم رؤوف رحيم ، تأكيداً لذلك . والرافعة عبارة عن السعى في إزالة الضرر ، والرحمة عبارة عن السعى في إيصال النفع ، (٢) .

وقال القرطبي : قوله « ثم تاب عليهم » ، قبل توبته عليهم أن تدارك قلوبهم حتى لم تنزع ؛ وتلك سنة الحق - سبحانه - مع أوليائه إذا أشرفوا على العطب ووطنوا أنفسهم على الهلاك ، أمطار عليهم سبحانه الجود فأحيا قلوبهم .
 قال الشاعر :

منك أرجو ولست أعرف ربا يرتجى منه بعض مامنك أرجو

(١) راجع تفسير الألوسي ج ١١ ص ٤٠ .

(٢) حاشية الجمل على الجلالين ج ٢ ص ٣٢٥ .

وإذا اشتدت الشدائد في الأرض ض على الخلق فاستغاثوا وعجوا
وابتليت العباد باخوف والجوع ، وصرخوا على الذنوب واجو
لم يكن لى سواك ربى ملاذ فتيقنت أننى بك أنجـو
وكما تقبل الله - تعالى - توبة المهاجرين والأنصار الذين اتبعوا رسولهم
- صلى الله عليه وسلم - فى ساعة العسرة . . . فقد تقبل توبة الثلاثة الذين
تخلفوا عن الاشتراك فى غزوة تبوك ، فقال - تعالى - :

وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا
رَحَبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمُ أُنْفُسُهُمْ وَظَنُّوْا أَن لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ
ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمُ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾

فهذه الآية الكريمة معطوفة على الآية السابقة لها . والمعنى : لقد تقبل الله
- تعالى - بفضله وإحسانه توبة النبي والمهاجرين والأنصار ، وتقبل كذلك
توبة الثلاثة الذين تخلفوا عن هذه الغزوة كسلا وحبلا للراحة ، والذين سبق
أن أرجأ الله حكمه فيهم بقوله : وآخرون مرجون لأمر الله إما يعذبهم
وإما يتوب عليهم . . . (١) .

وقوله : حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، وضاقت عليهم أنفسهم
وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ، كناية عن شدة تحيرهم ، وكثرة حزنهم ،
واستسلامهم لحكم الله فيهم :

أى : حتى إذا ضاقت عليهم الأرض على سعتها ، بسبب إعراض الناس
عنهم ، ومقاطعتهم لهم ، وضاقت عليهم أنفسهم ، بسبب الهم والغم الذى ملأها
واعتقدوا أنهم لا ملجأ ولا مهرب لهم من حكم الله وقضائه إلا إليه . . .
حتى إذا كان أمرهم كذلك ، جاءهم فرج الله ، حيث قبل توبتهم ، وغفر
خطأهم وعفا عنهم . . .

(١) راجع تفسير الآية رقم ١٠٦ من هذه السورة .

وقوله : « ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم » أى : بعد هذا التأديب الشديد لهم ، تقبل - سبحانه - توبتهم ليتوبوا إليه توبة صادقة نصوحا ، لا تكاسل معها بعد ذلك عن طاعة الله وطاعة رسوله ، إن الله - تعالى - هو الكثير القبول لتوبة التائبين ، وهو الواسع الرحمة بعباده المحسنين .

هذا ، والمقصود بهم هؤلاء الثلاثة الذين خلفوا : كعب بن مالك ، وهلال ابن أمية ، ومرارة بن الربيع ؛ وكلهم من الأنصار . وقد ذكرت قصتهم فى الصحيحين وفى غيرهما من كتب السنة والسيرة ، وهالك خلاصة لها :

قال الإمام ابن كثير : روى الإمام أحمد أن كعب بن مالك قال ، لم أنخلف عن رسول الله - ﷺ - فى غزوة غزاها قط إلا فى تبوك . وكان من خبرى حين تخلفت عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى غزوة تبوك . أنى لم أكن قط أقوى ولا أيسر منى حين تخلفت عنه فى تلك الغزوة . . .

وغزا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال ، وتجهز لها المؤمنون معه ، فطفقت أغدو السكى أتجهز معهم . فأرجع ولم أقض من جهازى شيئا . . . فأقول لنفسى أنا قادر على ذلك إذا أردت . . ولم يزل ذلك شأنى حتى أسرعوا وتفارط الغزو ، فهممت أن أرتحل فألقهم - وإيتنى فعلت - ولمكن لم يقدر لى ذلك . . .

ولم يذكرنى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حتى بلغ تبوك فقال : ما فعل كعب بن مالك ؟ فقال رجل من بنى سلمة : حبسه برداه والنظر فى عاتقيه . . فقال معاذ بن جبل : بئسما قلت . والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيرا فسكت رسول الله - ﷺ - . قال كعب : فلما بلغنى أن رسول الله (٢١ - سورة التوبة)

قد توجه قافلا من تبوك ، حضرنى بشى ، وطفقت أتذكر الكذب وأقول :
بماذا أخرج من سخطه غدا ؟ ...

وعندما عاد الرسول - ﷺ - إلى المدينة جاءه المتخلفون ،
نظفقوا يعتذرون إليه ... وجئت إليه فقال : تعالى ما خلفك ألم تكن قد
اشتريت ظهرا ؟

فقلت يا رسول الله ؛ إنى لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أن أخرج
من سخطه بعذر . والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم بحديث كاذب ترضى به
عنى ، ليوشكن الله أن يسخطك على . وائمن حدثتك بصدق تغضب على فيه ،
إنى لأرجو عقوبى ذلك من الله - تعالى - والله ما كان لى من عذر ...
فقال - صلى الله عليه وسلم - أما هذا فقد صدق ، فقم حتى يقضى الله
فيك . وكان هناك رجلان قد قالوا مثل ما قلت هما مرارة بن الربيع ، وهلال
ابن أمية ..

قال : ونهى رسول الله - ﷺ - كلامنا ، فاعتزلنا الناس
وتغيروا لنا ... ولبشنا على ذلك خمسين ليلة ... ثم أمرنا أن نعتزل نساءنا
نفعلنا ...

قال : ثم صليت صلاة الصبح صباح خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتها
نبينا أنا على الحال التى ذكرها الله عنا ، قد ضاقت على نفسى ... سمعت صارخا
يقول بأعلى صوته : أبشر يا كعب بن مالك ..

وذهبت إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال : أبشر بخير يوم
مر عليك منذ ولدتك أمك . قال : وأزل الله - تعالى - وعلى الثلاثة الذين
خلفوا ... الآية ..

قال الإمام ابن كثير بعد أن ساق هذا الحديث بتمامه : هذا حديث صحيح
أثبت يتفق على صحته ، وقد تضمن تفسير الآية بأحسن الوجوه وأبسطها ، (١).

(١) راجع الحديث بتمامه فى تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٣٩٧ .

وبذلك نرى أن هاتين الآيتين قد ذكرنا جانباً من فضل الله على عباده ، حيث قبل توبتهم ، وغسل حوبتهم . أنه بهم رموف رحيم .
ثم وجه - سبحانه - فداء إلى المؤمنين أمرهم فيه بأن يتقوا الله حق تقائه وأن يكونوا مع الصادقين ، وأوجب عليهم الغزو مع رسول الله - ﷺ - ووعدهم عليه لمجزي الشواب ، وتوعد المتخلفين عنه بشديد العقاب فقال - تعالى - :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ

آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿١١٩﴾ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ۚ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا يَحْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْغُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نِيلاً ۖ إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾

والمعنى : يا من آمنتم بالله واليوم الآخر . اتقوا الله حق تقائه ، بأن تفعلوا ما كلفكم به . وتتركوا ما نهاكم عنه ، وكونوا مع الصادقين ، ودين الله نية وقولا وعملا وإخلاصا ؛ فإن الصدق ما وجد في شيء إلا إزالته ، وما وجد الكذب في شيء إلا شانه .

قال القرطبي : حق من فهم عن الله وعقل عنه ؛ أن يلزم الصدق في الأقوال والإخلاص في الأعمال ، والصفاء في الأحوال ، فمن كان كذلك لحق بالآبرار ووصل إلى ربنا الغفار

قال - صلى الله عليه وسلم - عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة ، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً .

والكذب على الضد من ذلك . قال - صلى الله عليه وسلم - إياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور ، وإن الفجور يهدي إلى النار . وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً .
فالكذب عار ؛ وأهله مسلوبو الشهادة ، وقد رد - ﷺ - شهادة رجل في كذبة كذبها

وسئل شريك بن عبد الله فقيلاً له : يا أبا عبد الله ؛ رجل سمعته يكذب متعمداً ، أصلى خلفه ؟ قال : لا (١) .

ثم أوجب - سبحانه - على المؤمنين مصاحبة رسولهم - ﷺ - في غزواته فقال : وما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله

والمراد بالنفي هنا النهي . أى : ليس لأهل المدينة أو لغيرهم من الأعراب سكان البادية الذين يسكنون في ضواحي المدينة ، كقبائل مزينة وجهينة وأشجع وغفار

ليس هؤلاء جميعاً أن يتخلفوا عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إذا ما خرج للجهاد ، كما فعل بعضهم في غزوة تبوك ؛ لأن هذا التخلف يتنافى مع الإيمان بالله ورسوله .

وليس لهم كذلك ، أن يرغبوا بأنفسهم عن نفسه ، أى : ليس لهم أن يؤثروا أنفسهم بالراحة على نفسه ، بأن يتركوه يتعرض للآلام والأخطار ، دون أن يشاركوه في ذلك ، نل من الواجب عليهم أن يكونوا من حوله في البأساء والضراء ، والعسر واليسر ؛ والملاشط والمكره .

ورحم الله صاحب الكشف فقد قال عند تفسيره لهذه الجملة الكريمة: أمروا بأن يصحبوه على البأساء والضراء ، وأن يكابدوا معه الأهوال برغبة ونشاط واعتباط ، وأن يلقوا أنفسهم من الشدائد ما تلقاه نفسه ، علما بأنها أعز نفس على الله وأكرمها ، فإذا تعرضت - مع كرامتها وعزتها - للخوض في شدة وهول ، وجب على سائر الأنفس أن تتهافت - أي تتساقط - فيما تعرضت له ، ولا يكثر لها أصحابها ، ولا يقيمون لها وزنا ، وتكون أخف شيء عليهم وأهونه ، فضلا عن أن يربأوا بأنفسهم عن متابعتها ومصاحبتها ، ويضنوا بها على ما سمح بنفسه عليه . وهذا من بليغ ، مع تقييد الأمرهم ، وقوبلهم عليه ، وتهيج لمنابعته بأنفة وحمية (١) .

واسم الإشارة في قوله : ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ونصب ولا غمصة في سبيل الله ... ، يعود على ما دل عليه الكلام من وجوب مصاحبته وعدم التخلاب عنه .

أي : ذلك الذي كلفناهم به من وجوب مصاحبته - ﷺ - والنهي عن التخلاب عنه ، سببه أنهم لا يصيبهم ظمأ أي عطش ولا نصب ، أي : تعب ومشقة ولا غمصة ، أي : مجاعة شديدة تجعل البطون خامصة ضامرة في سبيل الله ، أي : في جهاد أعدائه وإعلاء كلمة الحق ولا يطاؤون موطنًا يغيظ الكفار ، أي : ولا يدوسون مكانًا من أمكنة الكفار بأرجلهم أو بحوافر خيولهم من أجل إغاضتهم وإزعاجهم .. ولا ينالون من عدو نيلا ، أي : ولا يصيبون من عدو من أعدائهم إصابة تقتل أو أسر أو غنيمة . . . إنهم لا يفعلون شيئا إلا كتب لهم به عمل صالح ، أي : إلا كتب لهم بكل واحد مما ذكر عمل صالح ، ينالون بسببه الثواب الجزيل من الله ، لأنه - سبحانه - لا يضيع أجر المحسنين ، وإنما يكافئهم على إحسانهم بالأجر العظيم .

وقوله : « ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ... معطوف على ما قبله .
 أى : وكذلك لا يتصدقون بصدقة صغيرة ، كالقرة ونحوها ، ولا كبيرة .
 كما فعل عثمان - رضى الله عنه - فى هذه الغزوة ، فقد تصدق بالكثير . . .
 « ولا يقطعون واديا ، من الوديان فى مسيرهم إلى عديهم ، أو فى
 رجوعهم عنه . . . »

لا يفعلون شيئا من ذلك أيضا ، إلا كتب لهم ، أى : إلا كتب لهم نوابه
 فى سجل حسناتهم .

« ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون ، أى : أمرهم بمصاحبة نبيهم فى كل
 غزواته ، وكلفهم بتحمل مشاق الجهاد ومتاعبه . ليجزيهم على ذلك أحسن
 الجزاء وأعظمه ، فأنتم ترى أن الله - تعالى - قد حرص المؤمنين على الجهاد
 فى هاتين الآيتين ، وبين لهم أن كل ما يلاقونه فى جهادهم من متاعب له نوابه
 العظيم ، وما دام الأمر كذلك فعليهم أن يصاحبوا رسولهم - ﷺ -
 فى جميع غزواته ، لأن التخلف عنه لا يليق بالمؤمنين الصادقين ، فضلا
 عن أن هذا التخلف - بدون عذر شرعى - سيؤدى إلى الخسران فى الدنيا
 والآخرة . . . »

وبعد أن حرص الله - تعالى - المؤمنين على الجهاد فى سبيله ، وحذرهم من
 الخروج مع رسوله - ﷺ - أتبع ذلك بالحديث عما يجب عليهم
 إذا لم تكن المصلحة تقتضى التغير العام ، فقال - تعالى - :

أَوْ مَا

إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ لَيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ
 لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٣٢﴾
 قال الجمل : وسبب نزول هذه الآية أن النبي - صلى الله عليه وسلم - لما
 بالغ فى الكشف عن عيوب المنافقين ، وفضحهم فى تخلفهم عن غزوة تبوك ،

قال المسلمون : والله لا نتخلف عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، ولا عن سرية بعثها ، فلما قدم - صلى الله عليه وسلم - المدينة من تبوك ، وبعث المرابيا ، أراد المسلمون أن ينفروا جميعا للغزو وأن يتركوا النبي - ﷺ - وحده فنزلت هذه الآية (١) .

والمعنى ، وما كان من شأن المؤمنين ، أن ينفروا جميعا في كل سرية تخرج للجهاد ، ويتركوا الرسول - صلى الله عليه وسلم - وحده بالمدينة ، وإنما يجب عليهم النفير العام إذا مادعاهم - صلى الله عليه وسلم - إلى ذلك . وقوله : « فلو لا نفر من كل فرقة منهم طائفة ... » معطوف على كلام محذوف ، ولولا حرف تحضيض بمعنى هلا .

أى : فحين لم يكن هناك موجب لنفير الكافة ، فهلا نفر من كل فرقة من المؤمنين طائفة للجهاد ، وتبقى طائفة أخرى منهم « ليتفقهوا في الدين » أى : ليتعلموا أحكامهم من رسولهم - صلى الله عليه وسلم - « ولينذروا قومهم » أى : وليعلموهم ويخبروهم بما أمروا به أو نهوا عنه « وإذا رجعوا إليهم » من الغزو « لعلمهم يحذرون » أى : لعل هؤلاء الراجعين إليهم من الغزو يحذرون ما نهوا عنه .

أى : أن على المسلمين في حالة عدم النفير العام ، أن يقسموا أنفسهم إلى قسمين :

قسم يبقى مع الرسول - صلى الله عليه وسلم - ليتفقه في دينه ، وقسم آخر يخرج للجهاد في سبيل الله ، فإذا ما عاد المجاهدون ، فعلى الباقين مع الرسول - صلى الله عليه وسلم - أن يبلغوا العائدين ما حفظوه عن الرسول - صلى الله عليه وسلم - من أحكام . .

وبذلك يجمع المسلمون بين المصلحتين : مصلحة الدفاع عن الدين بالحجة والبرهان ، ومصلحة الدفاع عنه بالسيف والسنان .

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٢ ص ٣٢٩ - بتصر يسير - .

وعلى هذا التفسير الذى سار عليه جمهور العلماء يكون الضمير فى قوله ليتفقهوا ولينذروا ، يعود إلى الطائفة الباقية مع الرسول - ﷺ - أما الضمير فى قوله ولعلمهم يحذرون ، فيعود على الطائفة التى خرجت بهاد ثم عادت .

ومنهم من يرى أن الضمير فى قوله وليتفقهوا ولينذروا ، يعود على لائفة التى خرجت للجهاد .

وقد رجح هذا الاتجاه الإمام ابن جرير فقال : وأما قوله وليتفقهوا فى دين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم ، فإن أولى الأقوال فى ذلك بالصواب ل من قال : لتتفقه الطائفة النافرة بما تعان من نصر الله لأهل دينه ولأصحاب موله على أهل عداوته والكفر به ، فيفقه بذلك من معاينته حقيقة علم أمر سلام ، وظهوره على الأديان ، من لم يكن فقهه ، ولينذروا قومهم فيحذروهم ينزل بهم من بأمر الله ، مثل الذى نزل بمن شاهدوا ، عن ظفر بهم المسلمون ، أهل الشرك ، إذا هم رجعوا إليهم من غزوهم ولعلمهم يحذرون ، أى : لعل مهم إذا هم حذروهم ما عاينوا من ذلك ، يحذرون فيؤمنون بالله ورسوله ، نرا من أن ينزل بهم ما نزل بالذين أخبروا خبرهم . . . (١)

وقد علق صاحب المنار على رأى ابن جرير هذا بقوله : وهذا تأويل كلف ينبو عنه النظم الكريم ، فإن اعتبار طائفة السرية بما قد يحصل لها النصر - وهو غير مضمون ولا مطرد - لا يسمى تفقهها فى الدين ، وإن ن يدخل فى عموم معنى الفقه ، فإن النفقه هو التعلم الذى يكون بالتكليف لتدرج ، والمتبادر من الدين علمه ، ولا يصح هذا المعنى فى ذلك العهد إلا فى ين يبقون مع النبي - صلى الله عليه وسلم - فيزدادون فى كل يوم علما قها بنزول القرآن . . . (٢)

(١) تفسير ابن جرير ج ١٤ ص ٥٧٣ - طبعة دار المعارف -

(٢) تفسير المنار ج ١١ ص ٨٠ .

هذا ، ومن الأحكام التي أخذها العلماء من هذه الآية : وجوب طلب العلم ، والتفقه في دين الله وتعليم الناس إياه . . .

قال القرطبي : هذه الآية أصل في وجوب طلب العلم ، لأن المعنى : وما كان المؤمنون لينفروا كافة والنبي - صلى الله عليه وسلم - مقيم لا ينفر فيتركوه وحده وفلو لا نف ، بعدما علموا أن النفر لا يسع جميعهم ومن كل فرقة منهم طائفة ، وتبقى بقيتها مع النبي - صلى الله عليه وسلم - ليتحملوا عنه الدين ويتفقهوا ، فإذا رجع النافرون إليهم أخبروهم بما سمعوه وعلموه . وفي هذا إيجاب التفقه ، في الكتاب والسنة ، وأنه على الكفاية دون الأعيان . . . (١) . ثم ختمت السورة الكريمة حديثها عن الجهاد في سبيل الله ، بدعوة المؤمنين إلى قتال أعدائهم بشدة وغلظة فقال - تعالى - :

تَايُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ
لُظَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾

وقوله : « يلونكم » ، من الولي بمعنى القرب ، تقول جلست مما يلي فلان أى : يقاربه .

قال الإمام ابن كثير : أمر الله المؤمنين أن يقاوموا الكفار أولاً فأولاً ، الأقرب فالأقرب ، إلى حوزة الإسلام ، ولهذا بدأ الرسول - ﷺ - بقتال المشركين في جزيرة العرب ، فلما فرغ منهم وفتح الله عليه مكة والمدينة واليمن . . . وغير ذلك من أقاليم العرب ، دخل الناس من سائر أحياء العرب في دين الله أفواجا ، شرع في قتال أهل الكتاب ، فتجهز لغزو الروم الذين هم أقرب الناس إلى جزيرة العرب ، وأولى الناس بالدعوة إلى الإسلام لأنهم أهل كتاب ، فبلغ نبوك تم رجوع لأجل جهد الناس ، وجذب البلاد ، وضيق الحال وذلك سنة تسع من الهجرة ، ثم اشتغل في السنة العاشرة بحجة الوداع ، ثم

عاجلته المنية - صلوات الله وسلامه عليه - بعد حجة الوداع بأحد وثمانين يوماً وسار خلفاؤه الراشدون من بعده على نهجه ..

وقوله : وليجدوا فيكم غلظة ، أى : وليجد الكفار منكم غلظة عليهم ، فى قتالكم ، فإن المؤمن الكامل هو الذى يكون رفيقا بأخيه المؤمن ، غليظا على عدوه الكافر . قال - تعالى - :

د محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم ، .

وفى الحديث أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : د أنا الضحوك القتال ، يعنى : أنه ضحوك فى وجه وليه المؤمن : قتال لهامة عدوه الكافر ، (١) .
وقوله : د واعلموا أن الله مع المتقين د تذييل قصد به حرس المؤمنين على التسليح بسلاح الإيمان والتقوى حتى ينالوا نصر الله وعونه .

أى : واعلموا أن الله - تعالى - مع المتقين بنصره ومعونته ، فاحرصوا على هذه الصفة ليستمر معكم نصره - سبحانه - وعونه .

ولإنما أمر الله - تعالى - المؤمنين أن يبدأوا قتالهم مع الأقرب فالأقرب من ديارهم ، لأن القتال شرع لتأمين الدعوة الإسلامية ، وقد كانت دهوة الإسلام موجهة إلى الأقرب فالأقرب ، فكان من الحكمة أن يبدأوا قتالهم مع المجاورين لهم حتى يأمنوا شرهم ، ولأنه من المعلوم أنه ليس فى طاقة المسلمين قتال جميع الكفار ، وغزو جميع البلاد فى زمان واحد ، فكان من قرب أولى بمن بعد .

ثم ختمت السورة - أيضاً - حديثها الطويل المتنوع عن المنافقين ببيان موقفهم من نزول الآيات القرآنية على الرسول - صلى الله عليه وسلم -

فقال - تعالى :-

وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ
مَنْ يَقُولُ أَيْكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ ءِإِيمَانًا ؕ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فزَادَتْهُمْ
إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فزَادَتْهُمْ
رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أَوْ لَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ
فِي كُلِّ عَمَلٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا
مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَسُكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ
أَنْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾

والمعنى : وإذا ما أنزلت سورة من سور القرآن عليك يا محمد ، تسامع المنافقون عنها في حذر وريبة ، فمنهم من يقول ، لا شباهاه في الكفر والنفاق على سبيل الاستمراء ، والتهوين من شأن القرآن الكريم ، أَيْكُمْ زادته هذه إيماناً ، أى : أى واحد منكم زادته هذه السورة النازلة إيماناً ؟ وهنا يجى الرد الحاسم الذى يخرس ألسنتهم ، من جهته - تعالى - فيقول : فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون ، .
أى : فأما الذين آمنوا فزادهم نزول السورة القرآنية ، إيماناً على إيمانهم ، وثباتاً على ثباتهم ، وبقينا على يقينهم ، . وهم ، فوق ذلك ، يستبشرون ، ويفرحون بنزولها لما فيها من المنافع الدينية والدنيوية .
هذا شأن المؤمنين بالنسبة لنزول السورة القرآنية ، وأما المنافقون ، فقد صور القرآن حالهم بقوله ، وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم .

أى : وأما الذين فى قلوبهم شك ونفاق وأرتياب ، فزادهم نزول
السورة كفرًا على كفرهم السابق .

وسمى - سبحانه - الكفر رجسًا ، لأنه أقبح الأشياء وأسوأها . . .
وقوله : « ماتوا وهم كافرون » ، تذييل قصد به بيان سوء عاقبتهم فى
الآخرة بعد بيان سوء أعمالهم فى الدنيا .

أى : لقد قضى هؤلاء المنافقون حياتهم فى الكفر والفسوق والعصيان ، ثم لم
توبوا عن ذلك ولم يرجعوا عنه ، بل ماتوا على الكفر والنفاق .

وقوله : « أولًا يردن أنهم يفتنون فى كل عام مرة أو مرتين . . . »
ربيع لهم على قسوة قلوبهم ، وانطماس بصيرتهم ، وغفلتهم عما يدعو
إلى الاعتبار والانعاظ .

أى : أبلغ الجهل والسفه وعمى البصيرة هؤلاء ، أنهم صاروا
يعتبرون ولا يتعظون بما حاق من فتن واختبارات وابتلاءات ، تنزل
م فى كل عام مرة أو مرتين ؟

ومن هذه الفتن والامتحانات : كشف مكرهم عن طريق إطلاع
سول الله - ﷺ - على ما يضررونه من سوء ، وما يقولونه من منكر ،
يفعلونه من أفعال خبيثة ، وحلول المصائب والأمراض بهم ، ومشاهدتهم
نصار المؤمنين وخذلان الكافرين

قال الآلوسى : والمراد من المرة والمرتين - على ما صرح به بعضهم -
د التكرير ، لا بيان الوقوع على حسب العدد المذكور .

وقوله : « ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون » ، بيان لرسوخهم فى
الاجحود .

أى : ثم بعد كل هذه الفتن الناله بهم ، لا يتوبون من نفاقهم ولا هم

يذكرون ، ويتعظون ، بل يصرون على مسالكهم الخبيثة ، وأعمالهم القبيحة ، مع أن من الفتن والمصائب والحن ، أنها تحمل على الاعتبار والاتعاظ ، والجوع عن طريق الشر إلى طريق الخير . . .

ثم تصور السورة الكريمة تصويرا معجزا ، مشهدهم عندما تنزل السورة القرآنية على الرسول ﷺ وهم حاضرون في مجلسه فتقول : « وإذا ما أنزلت سورة ، أو آيات منها ، على الرسول ﷺ - وهم موجودون في مجلسه » نظر بعضهم إلى بعض ، في ريبة ومكر ، وتغامزوا بعيونهم وجوارحهم في أؤم وخسة ثم تساءلوا : « هل يراكم من أحد ، أى : هل يراكم من أحد من المسلمين إذا ما فتم من هذا المجلس ، قبل أن يتلو الرسول ﷺ - هذه السورة أو الآيات التي قد تفضحكم وتمكشف عما أسرتموه فيها بينكم . »

« ثم انصرفوا ، من مجلس الرسول ﷺ - متسللين في حذر حتى لا يراهم أحد من المسلمين . »

وقوله : « صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون ، ذم لهم لإيثارهم الغنى على الرشد ، والضلالة على الهداية . »

أى : صرف الله قلوبهم عن الهداية والرشاد ، بسبب أنهم قوم لا يفقهون ما فيه خيرهم ونفعهم . وإنما يفقهون ما فيه شقاؤهم وتماستهم .

هذا ، وإن الناظر في هذه الآيات الكريمة يتدبر وإمعان ، ليراها قد صورت أحوال المنافقين وأخلاقهم وحركاتهم تصويرا دقيقا معجزا ، حتى إنه ليخيل إلى القارئ لهذه الآيات الكريمة أو السامع لها ، أنه يشاهد المنافقين مشاهدة حسية وهم على تلك الحالة من التحرك المريب والنظرات الخبيثة ، والخروج من مجلس النبي ﷺ - في حذر وريبة . . .

وهذا كله مما يعمد بأن هذا القرآن إنما هو من عند الله العليم بـمخفايا الصدور ، وبطوايا النفوس . . .

ثم ختم - سبحانه سورة التوبة ، بآيتين كريمتين ، اشتملتا على أسمى النعوت ، وأكرم الصفات للرسول - ﷺ - فقال - تعالى - .

لَقَدْ جَاءَكُمْ

رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾

وجمهور المفسرين على أن الخطاب في قوله - سبحانه - : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم » ، للعرب : فهو كقوله : « هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم » . أى : لقد جاءكم - يامعشر العرب - رسول كريم د من أنفسكم ، أى : جنسكم ، ومن نسبكم ، فهو عربي مثلكم ، فمن الواجب عليكم أن تؤمنوا به وتطيعوه . . .

فالمقصود من هذه هذه الجملة الكريمة ترغيب العرب في الإيمان بالنبى - ﷺ - وفي طاعته وتأييده ، فإن شرفهم قد تم بشرفه ، وعزهم بعزه ، وغرهم بفخره ، وهم في الوقت نفسه قد شهدوا له في صباه بالصدق والأمانة والعفاف وطهارة النسب ، والأخلاق الحميدة . . .

قال القرطبي : قوله د من أنفسكم ، يقتضى مدحا لنسب النبى - ﷺ - وأنه من صميم العرب وخالصها . وفي صحيح مسلم عن وإثلة بن الأسقع قال : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : إن الله اصطفى كنانة من ولد اسماعيل ، واصطفى قريشا من كنانة ، واصطفى من قريش بنى هاشم ،

واصطفاني من بنى هاشم ، عنه - ﷺ - أنه قال : إني من نكاح
ولست من سفاح ، (١) .

وقال الزجاج إن الخطاب في الآية الكريمة لجميع البشر ، لعموم
بعثته - ﷺ - ، ومعنى كونه - ﷺ - : « من أنفسكم » ، أنه جنس البشر .
ويبدو لنا أن الرأي الأول أرجح ، لأن الآية الكريمة ليست مسوقة
لإثبات رسالته - ﷺ - وعمومها ، وإنما هي مسوقة لبيان منته
وفضله - سبحانه - على العرب ، حيث أرسل خاتم أنبيائه منهم ، فمن الواجب
عليهم أن يؤمنوا به ، لأنه ليس غريباً عنهم ، وإذا لم يؤمنوا به تكون
الحجة عليهم ألزم ، والعقوبة لهم أعظم .

وقوله : « عزيز عليه ما عنتم » ، أي : شديد وشاق عليه عنتم ومشقتكم ،
لأنه يكونه بعضاً منكم ؛ فهو يخاف عليكم سوء العاقبة ، والوقوع في العذاب .
يقال : عزَّ عليه الأمر أي صعب وشق عليه ، والعنت المشقة والتعب ومنه
قولهم أكمة عنوت ، إذا كانت شاقة مهلكة ، والفعل عنت بوزن فرح .
وقوله : « حريص عليكم » ، أي : حريص على إيمانكم وهدايتكم
وعزةكم وسعادتكم في الدنيا والآخرة .

والحرص على الشيء معناه : شدة الرغبة في الحصول عليه وحفظه .
وقوله : « بالمؤمنين رءوف رحيم » ، أي : شديد الرأفة والرحمة بكم -
أيها المؤمنون - والرأفة عبارة عن السعي في إزالة الضرر ، والرحمة عبارة
عن السعي في إرسال النفع ، فهو - ﷺ - يسعى بشدة في إيبصال الخير
والنفع للمؤمنين ، وفي إزالة كل مكروه عنهم .

قال بعضهم : لم يجمع الله - تعالى - لآحد من الأنبياء اسمين من أسمائه
إلا للنبي - ﷺ - فإنه قال : « بالمؤمنين رءوف رحيم » ، وقال عن ذاته

- سبحانه - ، إن الله بالناس لرؤوف رحيم ، (١) .

ثم انتقل - سبحانه - من خطاب المؤمنين إلى خطابه - ﷺ - فقال :
« فإن تولوا فقل حسبي الله لا إله إلا هو ... » ،

أى : فإن أعرضوا عن الإيمان بك ، وتركوا طاعتك ، فلا تبتئس ولا
قيأس ، بل قل : حسبي الله ، أى : هو كافى ونصيرى « لا إله إلا هو » ،
ولا معبود بحق سواه ، « عليه » وحده « توكلت » وفوضت أمري ، وهو
- سبحانه - رب العرش العظيم ، الذى لا يعلم مقدار عظامته إلا الله عز وجل .
ففى هاتين الآيتين الكريمتين بيان للصفات التى منحها - سبحانه - لرسوله
محمد - ﷺ - ، ودعوة له ﷺ - إلى أن يفوض أمره إلى خالقه فهو
- سبحانه - كافيه وناصره .

وبعد فهذه سورة التوبة .

السورة الى احتوت على بيان الأحكام النهائية فى العلاقات الدائمة بين
المجتمع الإسلامى ، والمجتمعات الأخرى .

السورة التى حرصت المؤمنين على الجهاد فى سبيل الله ، وسأقت لهم من وسائل
الغريب فى ذلك ، ما يجعلهم يقدمون على قتال أعدائهم بصبر وثبات واستبشار ،
السورة التى أوجبت على المؤمنين أن تكون محبتهم لله رسوله ، وإعلام
كلمة الحق ، فوق محبة الآباء والأبناء والإخوان والأزواج والعشيرة والأموال .
السورة التى ذكرت المؤمنين بنصر الله لهم فى مواطن كثيرة ، وحذرتهم
من الغرور بأنفسهم . والعجب بقوتهم ، وأمرتهم بنصرة رسوله فى السراء
والضراء والعسر واليسر ، والمنشط والمكره . . .

السورة التى أمرت المؤمنين بأن يخلصوا فى دفاعهم عن دين الله وعن حرمانه
وعن مقدساته . وبشرتهم بأنهم إذا فعلوا ذلك ، فسوف يغنيهم الله من فضله .

السورة التي فضحت المنافقين ، وكشف عن أساليبهم الخبيثة ، ومسالكهم القبيحة ، وأقوالهم المنكرة ، وأفعالهم الأثيمة ، وسجلت عليهم الخزي والعار وحذرت المؤمنين من شرورهم . . .

السورة التي رسمت أسس التكافل الاجتماعي بين أفراد الأمة الإسلامية ، عن طريق مشروعية الزكاة ، ووجوب أدائها لمستحقها .

السورة التي ساقط ألوانا من فضل الله على عباده المؤمنين ، حيث تقبل سبحانه توبتهم ، وغسل حوبتهم ، وتجاوز عن خطيئهم . . .

السورة التي صنفت المجتمع الإسلامي في أواخر العهد النبوي تصنيفاً دقيقاً . فهناك السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان وهناك الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً . . .

وهناك المرجون لأمر الله إما يعذبهم وإما يتوب عنهم . . . وهناك الأعراب المنافقون وهناك الذين مردوا على انفاق من أهل المدينة . وقد بينت السورة الكريمة ما يستحقه كل قسم من الأقسام من ثواب أو عقاب السورة التي أوجبت على المؤمنين أن يقيموا علاقاتهم على أساس العقيدة الدينية لا على أساس القرابة الجسدية ، فمنعتهم أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربي . . .

هذا جانب من المقاصد الإجمالية التي اشتملت عليها هذه السورة الكريمة ونسأل الله - تعالى - أن يجعل القرآن ربيع قلوبنا، وأنس نفوسنا، وأن يرزقنا الإخلاص والتوفيق في القول والعمل . . .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

محمد السيد طنطاوى

عميد كلمة أصول الدين بأسبوط

فهرس إجمالى لتفسير آيات سورة التوبة

الآية المفسرة	رقها	الصفحة
براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم	١	٣١
فسبحوا في الأرض أربعة أشهر	٢	٣٥
وأذان من الله ورسوله	٣	٤٠
إلا الذين عاهدتم من المشركين	٤	٤٣
فإذا أساخ الأشهر الحرم	٥	٤٦
وإن أحد من المشركين استجارك	٦	٥٠
كيف يكون للمشركين عهد	٧	٥٥
كيف وإن يظهروا عليكم	٨	٥٨
اشتروا بآيات الله ثمنا قليلا	٩	٦٠
لا يرقبون في مؤمن	١٠	٦٢
فإن تابوا وأقاموا الصلاة	١١	٦٣
وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم	١٢	٦٤
ألا نقاتلون قوما نكثوا	١٣	٦٦
فأتلوهم يعذبهم الله بأيديكم	١٤	٦٧
ويذهب غيظ قلوبهم	١٥	٦٨
ألم حسبتم أن تقرّوا	١٦	٧١
ما كان للمشركين أن يعمرُوا مساجد الله	١٧	٧٣
إنما يعمر مساجد الله	١٨	٧٥
أجعلتم سقاية الحاج	١٩	٧٨
الذين آمنوا وهاجروا	٢٠	٨٠
ببشرهم ربهم برحمة منه	٢١	٨١
خالدين فيها أبدا	٢٢	٨٢
يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم	٢٣	٨٣
قل إن كان آباؤكم	٢٤	٨٥
لقد نصركم الله في موطن كثيرة	٢٤	٨٨
ثم أنزل الله سكينته على رسوله	٢٦	٩١
ثم يقوب الله من نعد ذلك	٢٧	٩٢

الصفحة	رقبها	الآية المفسرة
٩٥	٢٨	يأيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس
١٠٢	٢٩	قاتلوا الذير لا يؤمنون بالله
١١١	٣٠	وقالت اليهود عزيز ابن الله
١١٣	٣١	ايخذوا أحبارهم ورهبانهم
١١٥	٣٢	يريدون أن يطفئوا
١٢٠	٣٣	هو الذي أرسل رسوله
١٢٥	٣٤	يأيها الذين آمنوا إن كثيرا
١٣٠	٣٥	يرم يحمى عليها في نار جهنم
١٣٨	٣٦	إن عدة الشهور عند الله
١٤٥	٣٧	إنما النسيء زيادة في الكفر
١٥٠	٣٨	يأيها الذين آمنوا ما لكم إذا
١٥٤	٣٩	إلا تنفروا يعضدكم عذانا
١٥٦	٤٠	إلا تنصروه فقد نصره الله
١٦٠	٤١	انفروا أخفافا وثقالا
١٦٦	٤٢	لو كان عرضا فريبا
١٧٠	٤٣	عفا الله عنك لم أذنت لهم
١٧٣	٤٤	لا يستأذنك الذين يؤمنون
١٧٤	٤٥	إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون
١٧٦	٤٦	ولو أرادوا الخروج لأعدوا
١٧٨	٤٧	لو خرجوا فيكم مازاروكم
١٨٠	٤٨	لقد ابتغوا الفتنة من قبل
١٨٣	٤٩	ومنها من يقول ائذن لي
١٨٥	٥٠	إن تصيبك حسنة فاسألهم
١٧٦	٥١	قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا
١٨٧	٥٢	قل هل تربصون بنا إلا
١٨٨	٥٣	قل أنفقوا طوعا أو كرها
١٩٠	٥٤	وما منعكم أن تقبل منهم
١٩٢	٥٥	فلا تعجبكم أموالهم
١٩٣	٥٦	ويحملون بالله إنهم لمنكم
١٩٤	٥٧	لو يجدون ملجأ أو مغارات

الصفحة	رقبها	الآية المفصلة
١٩٥	٥٨	ومنهم من يلزك في الصدقات
١٩٧	٥٩	ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله
١٩٩	٦٠	إنما الصدقات للفقراء والمساكين
٢٠٨	٦١	ومنهم الذين يؤذون النبي
٢٠٩	٦٢	يخلفون بالله لئلا يرضوكم
٢١٢	٦٣	ألم يعلموا أنه من يحادد الله
٢١٥	٦٤	يخدر المنافقون أن ينزل
٢١٧	٦٥	ولئن سألتهم ليقولن
٢١٩	٦٦	لا نمتدروا قد كفرتم بعد
٢٢١	٦٧	المنافقون والمنافقات
٢٢٢	٦٨	وعد الله المنافقين والمنافقات
٢٢٣	٦٩	كالذين من قبلهم كانوا
٢٢٤	٧٠	ألم يأتهم نبي الذين من قبلهم
٢٢٧	٧١	والمؤمنون والمؤمنات بعضهم
٢٢٩	٧٢	وعد الله المؤمنين والمؤمنات
٢٣١	٧٣	يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين
٢٣٢	٧٤	يخلفون بالله ما قالوا
٢٣٧	٧٥	ومنهم من عاهد الله لئن
٢٣٩	٧٦	فلما آتاهم من فضله بخلوا به
٢٤٠	٧٧	أو أعقبهم نفاقا في قلوبهم
٢٤١	٧٨	ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم
٢٤٣	٧٩	للذين يلزون المطوعين من المؤمنين
٢٤٦	٨٠	ستغفر لهم أولا لا تستغفر لهم
٢٤٨	٨١	فرح الخلفون بتمدهم خلاف
٢٤٩	٨٢	فلنضحكوا قليلا وليبكيوا كثيرا
٢٥٠	٨٣	فإن رجعت الله إلى طائفة
٢٥٥	٨٤	ولا تصل على أحد منهم مات أبدا
٢٥٨	٨٥	ولا تحزنك أحوالهم وأولادهم
٢٥٩	٨٦	وإذا أنزلت سورة أن أنزلنا
٢٦٠	٨٧	رضوا بأن يكروا مع الخولاف

الصفحة	رقبها	الآية المفصلة
٢٦٠	٨٨	لكن الرسول والذين آمنوا معه
٢٦١	٨٩	أعد الله لهم جنات تجري من تحتها
٢٦٢	٩٠	وجاء المعذرون من الأعراب
٢٦٥	٩١	لقد ر على الضعفاء ولا على المرضى
٢٦٧	٩٢	ولا على الذين إذا ما أنوك لتحملهم
٢٧٠	٩٣	إنا السبيل على الذين يستأذنونك
٢٧١	٩٤	يعتذرون إليكم إذا رجعتم إليهم
٢٧٢	٩٥	سيخلفون بالله لكم إذا نقلبتم
٢٧٣	٩٦	مخلفون لكم لقرضوا عنهم
٢٧٤	٩٧	الأعراب أشد كفرا وبفاقا
٢٧٥	٩٨	ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مفرما
٢٧٧	٩٩	ومن الأعراب من يؤمن بالله
٢٨٠	١٠٠	والسابقون الأولون من المهاجرين
٢٨٢	١٠١	ومن حولكم من الأعراب منافقون
٢٨٥	١٠٢	وآخرون مرجون لأمر الله
٢٨٧	١٠٣	خذ من أموالهم صدقة
٢٨٨	١٠٤	ألم يعلموا أن الله هو يقبل
٢٨٩	١٠٥	وقل اعملوا فسيرى الله عملكم
٢٩٠	١٠٦	وآخرون مرجون لأمر الله
٢٩٤	١٠٧	والذين اتخذوا مسجدا ضارا
٢٩٦	١٠٨	لا تقم فيه أبدا المسجد أسس
٢٩٨	١٠٩	أفن أسس بنيانه على تقوى
٢٩٩	١١٠	لا يزال ببياناتهم الذي بذروه
٣٠٣	١١١	إلى الله اشهد من المؤمنين
٣٠٧	١١٢	النائبون المابدون الحامدون
٣١١	١١٣	ما كان النبي والذين آمنوا
٣١٢	١١٤	وما كان استغفار إبراهيم لأبيه
٣١٣	١١٥	وما كان الله ليصل فوما بعد إذ هداهم
٣١٤	١١٦	إن الله له ملك السموات والأرض
٣١٥	١١٧	لقد تاب الله على النبي والمهاجرين

الصفحة	رقمها	الآية المفسرة
٣٢٠	١١٨	وعلى الثلاثة الذين خلفوا
٣٢٣	١١٩	يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا
٣٢٤	١٢٠	ما كان لأهل المدينة ومن حولهم
٣٢٥	١٢١	ولا ينفقون نفقة صغيرة
٣٢٦	١٢٢	وما كان المؤمنون لينفروا كافة
٣٢٨	١٢٣	يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين
٣٣٠	١٢٤	وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول
٣٣١	١٢٥	وأما الذين في قلوبهم مرض
٣٣٢	١٢٦	أولاً يرون أنهم يفتنون في
٣٣٣	١٢٧	وإذا ما أنزلت سورة نظر
٣٣٤	١٢٨	أقد جاءكم رسول من أنفسكم
٣٣٦	١٢٩	فإن تولوا فقل حسبي الله

سورة نم بحمد الله

رقم الإيداع ٣٦٧٦ / ١٩٧٩



٧ ش الباب الأخضر المشهد الحسيني
القاهرة ت ٩٣٦٠٠٨